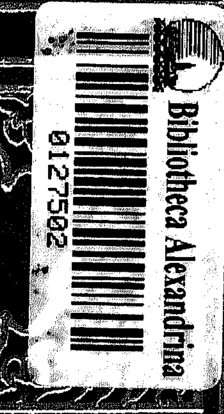
قصة وتاريخ الحضارات العربية

بين الامس واليوم

العراق
الاردن





EDITO CREPS INTERNATIONAL

قصة

و

تاريخ

الحضارات العربية

٩ ـ ١٠

قصة وتاريخ
الحضارات العربية

أول موسوعة من نوعها حديثة وبالالوان تعالج نشأة البلدان العربية واحداثها حتى ايامنا هذه

٩ ـ ١٠

تاريخية ـ جغرافية ـ حضارية وادبية

العراق
الاردن

هدى بو فرحات

Edito Creps, INT- 1998 -1999

BEYROUTH ,TEL :01/586207 - 01/586219 - 03/240824 - FAX 009611584391

القسم الأول: العراق

لمحة الجغرافية

ـ **الاسم**: الجمهوريّة العراقيّة.

ـ **الموقع**: يقع العراق في آسيا الغربيّة، في المنطقة التي عُرِفت قديماً باسم «بلاد ما بين النهرين».

ـ **الحدود**: تحيط به من الشمال: تركيا، ومن الشرق: الكويت، ومن الجنوب: المملكة السعوديّة، ومن الغرب: الأردن وسوريا.

ـ **المساحة**: ٤٣٤,٩٢٤كلم٢.

ـ **عدد السكّان**: ٢٠ مليون نسمة تقريباً.

ـ **الكثافة السكّانيّة**: بمعدّل ٤٥ نسمة/ كلم٢ الواحد.

ـ **اللغة الرسميّة**: اللغة العربيّة.

ـ **العملة**: الدينار العراقي.

ـ **العاصمة**: **بغداد** وتقع هذه المدينة على ضفّة نهر دجلة على مسافة ٤٠كلم من نهر الفرات وهي تفتخر بماضيها تعود آثارها إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ولقد ازدهرت بغداد في أيّام الخلفاء العبّاسيين حين أصبحت عاصمتهم من القرن الثامن حتى الثالث عشر. تهدّمت سنة ١٢٥٨ على أيدي المغول.

تعدُّ بغداد ٣,٢٠٥,٠٠٠ نسمة. تكثر فيها المتاحف والمساجد.

ـ **أهمّ المدن**: مدينة الرمادي على نهر الفرات، في وسط البلاد.

وفي الشمال: الموصل وأربيل وكركوك. وفي الجنوب: البصرة وهي من أهمّ موانىء العراق على شطّ العرب تعدّ ٦٠٠,٠٠٠ نسمة، مشهورة بصناعاتها الغذائية والكيميائية، مدينة الناصريّة والديوانيّة والعمارة. وفي العراق عدّة مراكز دينيّة مهمّة وكربلاء وفيها قبر الإمام حسين بن علي.

ـ **الديانة**: الإسلام.

ـ **التضاريس**: وتحيط بسهل العراق الجبال الوعرة والصحارى، فترتفع جبال كردستان القفرة في الشمال، إلى ما يزيد على ٣٣٣٠ متراً، بالقرب من الحدود الإيرانيّة. وتمتدّ الصحارى في جنوبي وغربي سهل العراق، وهي تشمل أيضاً أرض الجزيرة ما بين دجلة والفرات وهي تتكوّن من صخور صلبة تغطّيها الحصى والبقع الرمليّة، وتكون جزءاً من الهضبة القفر التي تمتدّ من سوريا والأردن إلى العربيّة السعودية.

ـ **المناخ**: مناخ العراق قارّي جاف ولكنّه معتدلٌ نسبياً في الشمال، لذلك يجب التمييز بين إقليمين مناخيين:

ـ الأول: إقليم حار في الوسط والجنوب، وهو يسمح بزراعة النخْيل والحمضيات والأرز.

ـ الثاني: إقليم متوسطي في شمال العراق، وهذا المناخ يسمح بزراعة الزيتون والكرمة والقمح والتين.

والمعروف أنَّ أمطار العراق قليلة، وأكثرها يسقط في الشمال. من هنا ندرك أهميّة نهري دجلة والفرات في حياة البلد.

الإقتصاد: يملك العراق موارد اقتصاديّة مهمّة، من سهوله الواسعة، الغنيّة بالإنتاج إلى مياهه الوافرة بفضل نهري دجلة والفرات، إلى حقول النفط وأخيراً ثروته المعدنيّة التي تشكّل جميعها أساساً مهمّاً لازدهار المياه الاقتصاديّة في العراق.

وتشكّل الزراعة أساس الحياة الاقتصاديّة في العراق. لذا تعمل الدولة

على تطوير أساليب الزراعة بتأمين المعدّات اللازمة، والقيام بتنفيذ المشاريع المائيّة والكهربائية.

أهمّ المحاصيل الزراعيّة هي: الخضار وأكثر أنواعها: البندورة والباذنجان والبصل والفاكهة مثل البطّيخ والشمّام... والحبوب التي تزرع في السهول الواسعة وأهمّها الذرة والأرزّ والقمح والشعير. ومن الأشجار المثمرة هناك الزيتون، والكرمة واللوز والفستق والحمضيات والرمّان، وللنخيل إنتاجٌ مهم فالعراق من مصدّري التمور إلى العالم.

الثورة الحيوانيّة غنيّة في العراق، وتنتشر تربية الأغنام والماعز في المناطق الشماليّة وتربية البقر والجاموس في الوسط والجنوب، وأخيراً تربية الإبل والخيول في الهضبة الغربيّة.

ومن مقوّمات الصناعة العراقيّة، الموادّ الأوليّة الزراعيّة والحيوانيّة كالقطن والكتّان، والتمور والحيوانات لصناعة الألبان والأجبان ودباغة الجلود. ومن المعادن والموارد المنجميّة: الحديد والكبريت والفوسفات والإسفلت والأملاح... أمّا النفط فإنه يعتبر من المواد الأكثر أهميّة بالنسبة لاقتصاد العراق ويقدّر احتياطي العراق من النفط بـ ١٦,٦٤ مليار طن. ولقد تأسّست شركة النفط الوطنيّة «إينوك» للإشراف على إنتاج النفط العراقي وتسويقه. ويستخرج البترول من عدّة حقول:

- حقول الشمال: في كركوك وجوار الموصل.
- حقول الشرق: في خانقين قرب الحدود مع إيران.
- حقول الجنوب: وهي العمارة والرميلة والزبير.

من هذه المواد الأوليّة، أنشئت صناعات متعدّدة ومهمة منها الصناعات البتروكيماويّة: كالغاز والبنزين والمازوت والإسفلت بالإضافة إلى صناعة الكبريت والأسمدة والبلاستيك، تليها صناعة مواد البناء وأهمّها صناعة الإسمنت وصناعة النسيج كالحرير والبسط والسجّاد والمنسوجات القطنيّة، الصناعات المعدنيّة والهندسيّة كالحديد والفولاذ والأجهزة الكهربائيّة... والصناعات الغذائيّة وصناعة الجلود والقوارب النهريّة وبعض الأدوية...



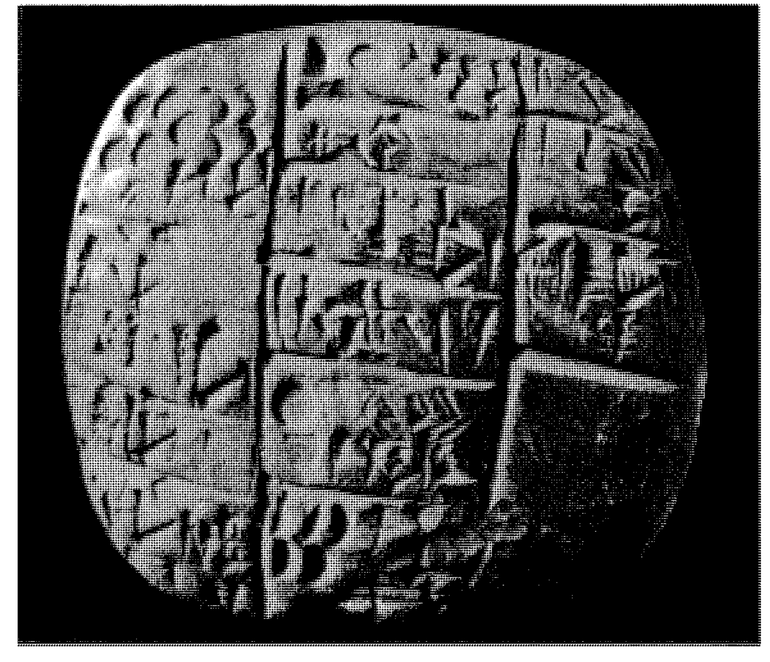
الملك سرجون الثاني



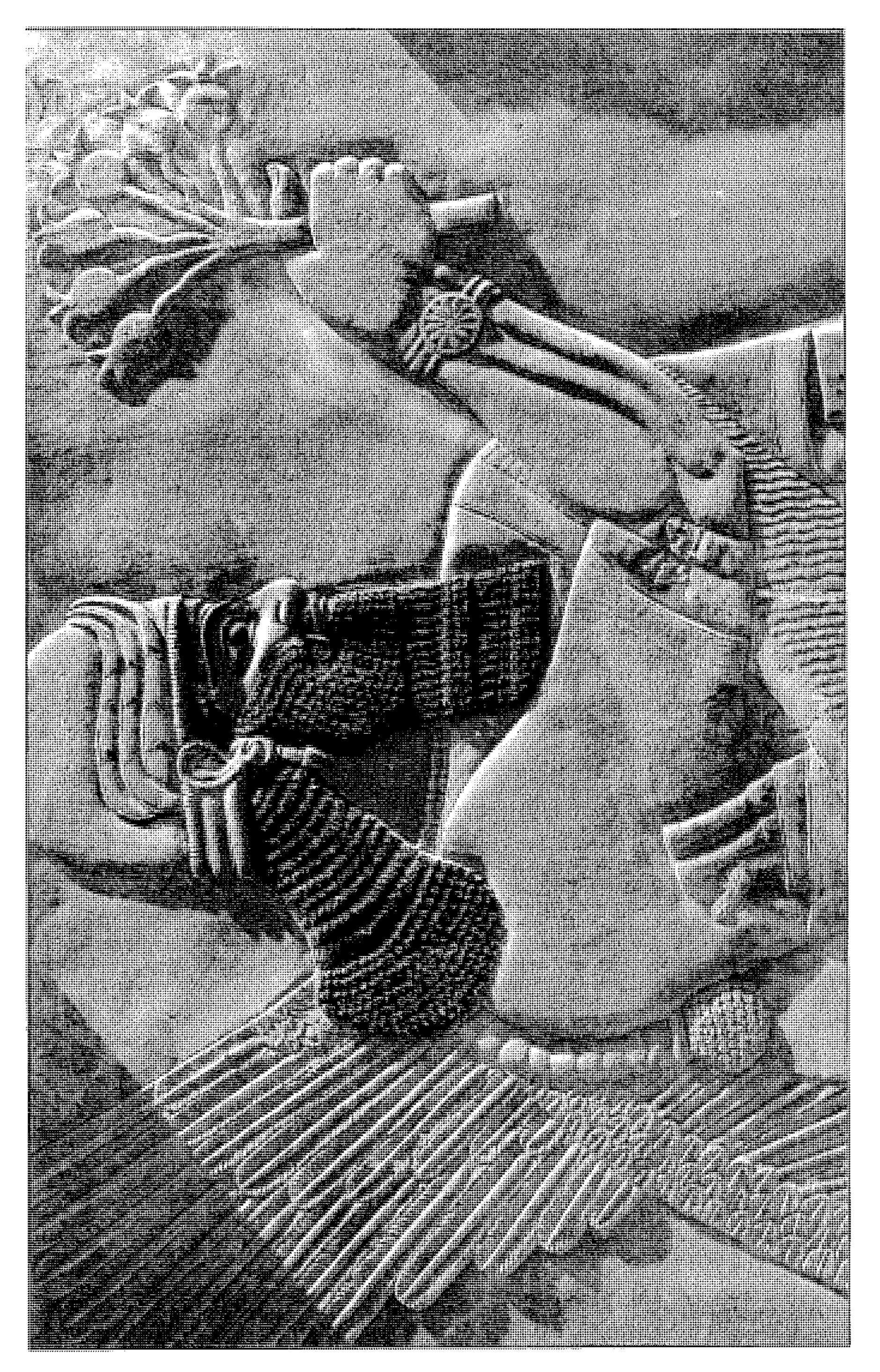
أشور بانيبال يصطاد الأسد



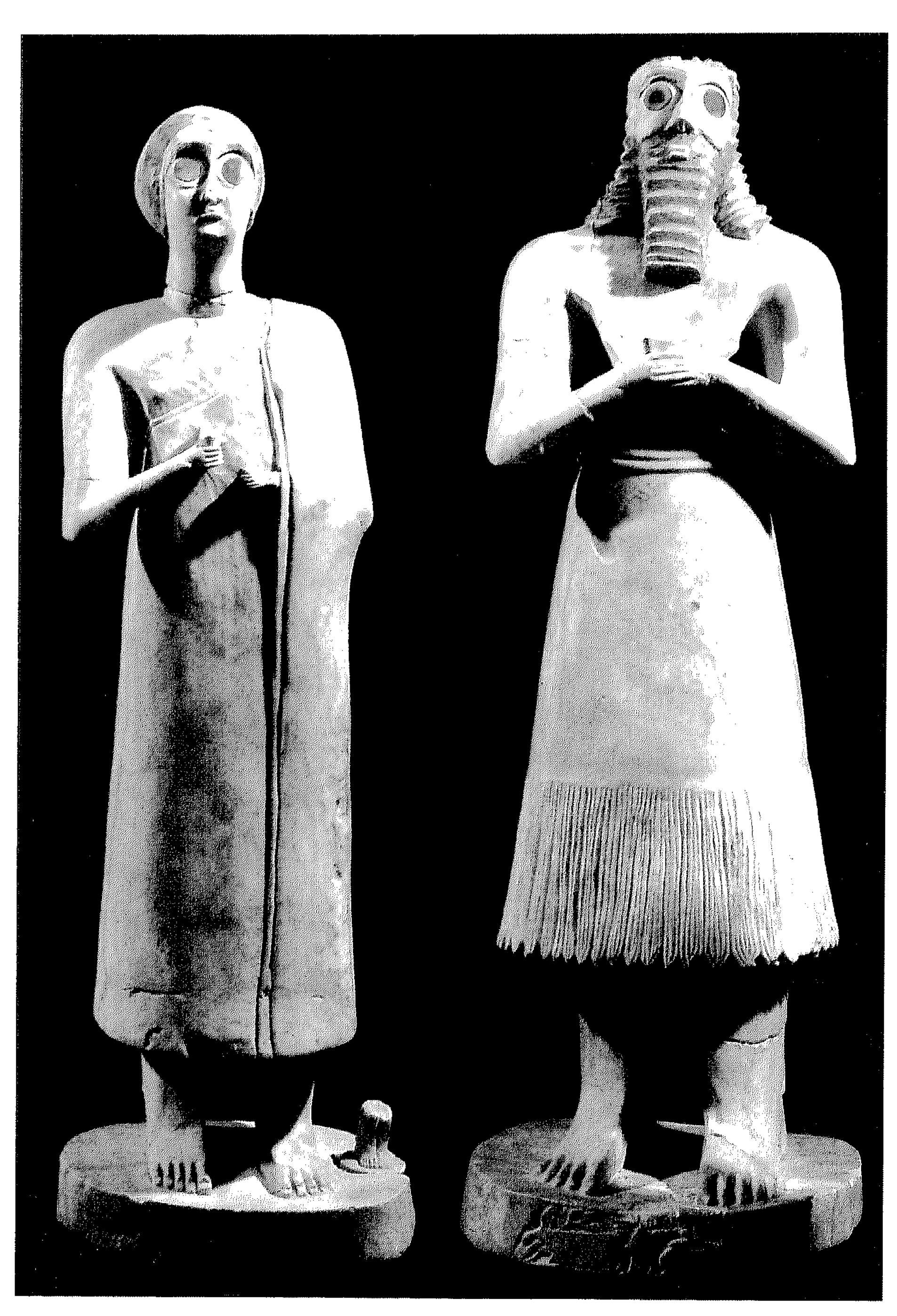
اللبوءة الجريحة



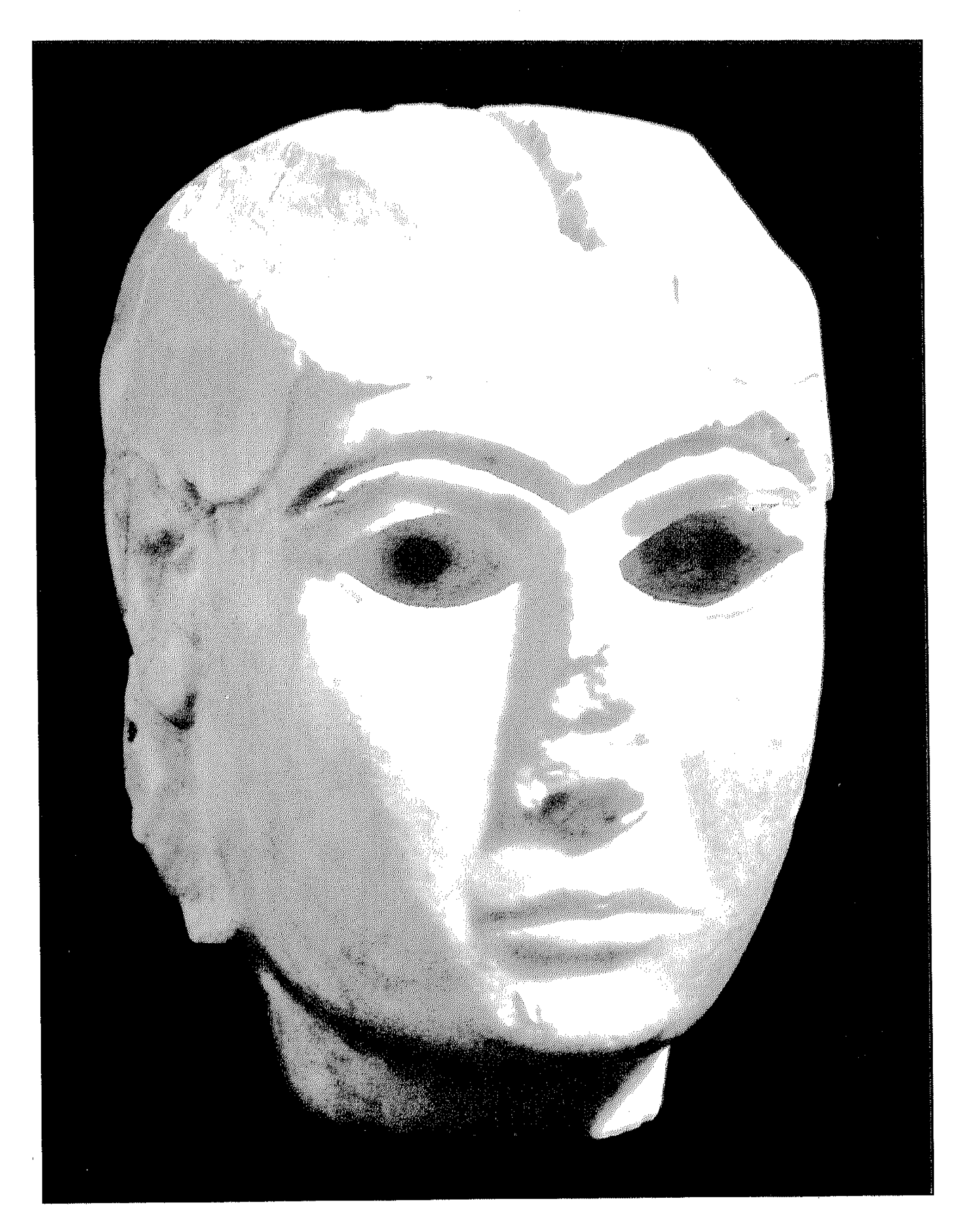
كتابة مسمارية



العبقري المجنح



تمثالا رجل وإمرأة



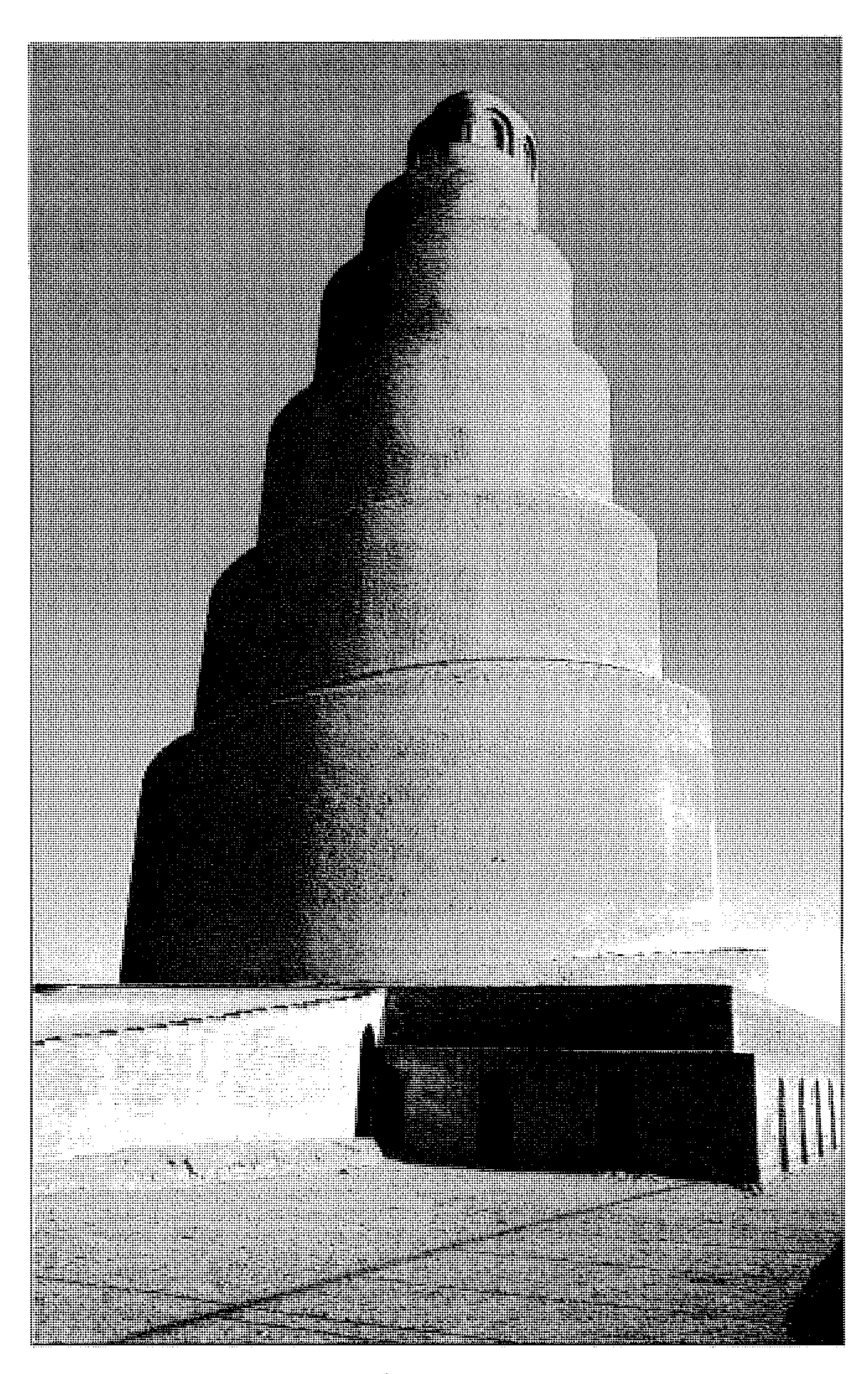
رأس امرأة



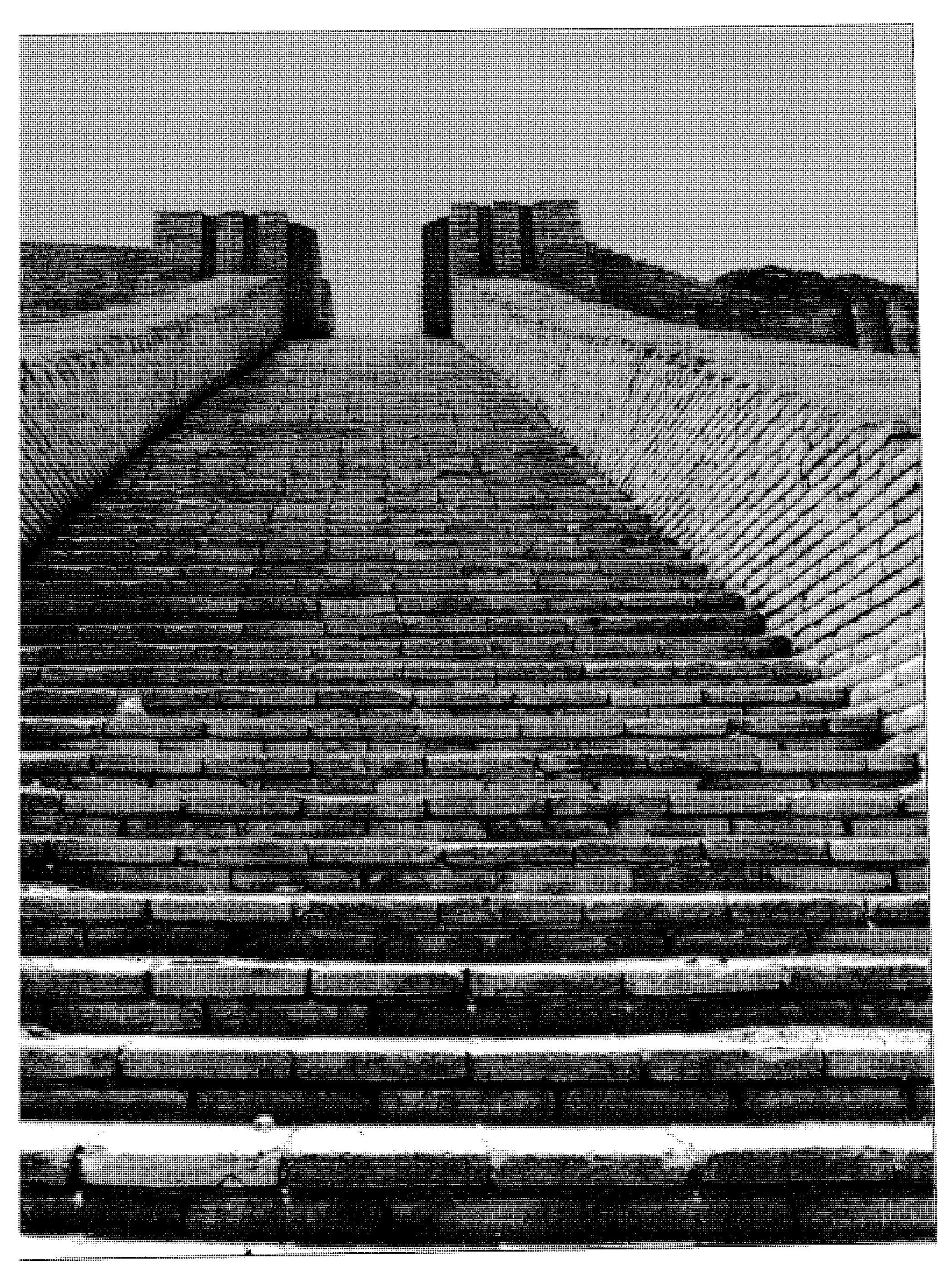
رأس
ثور
ذهبي



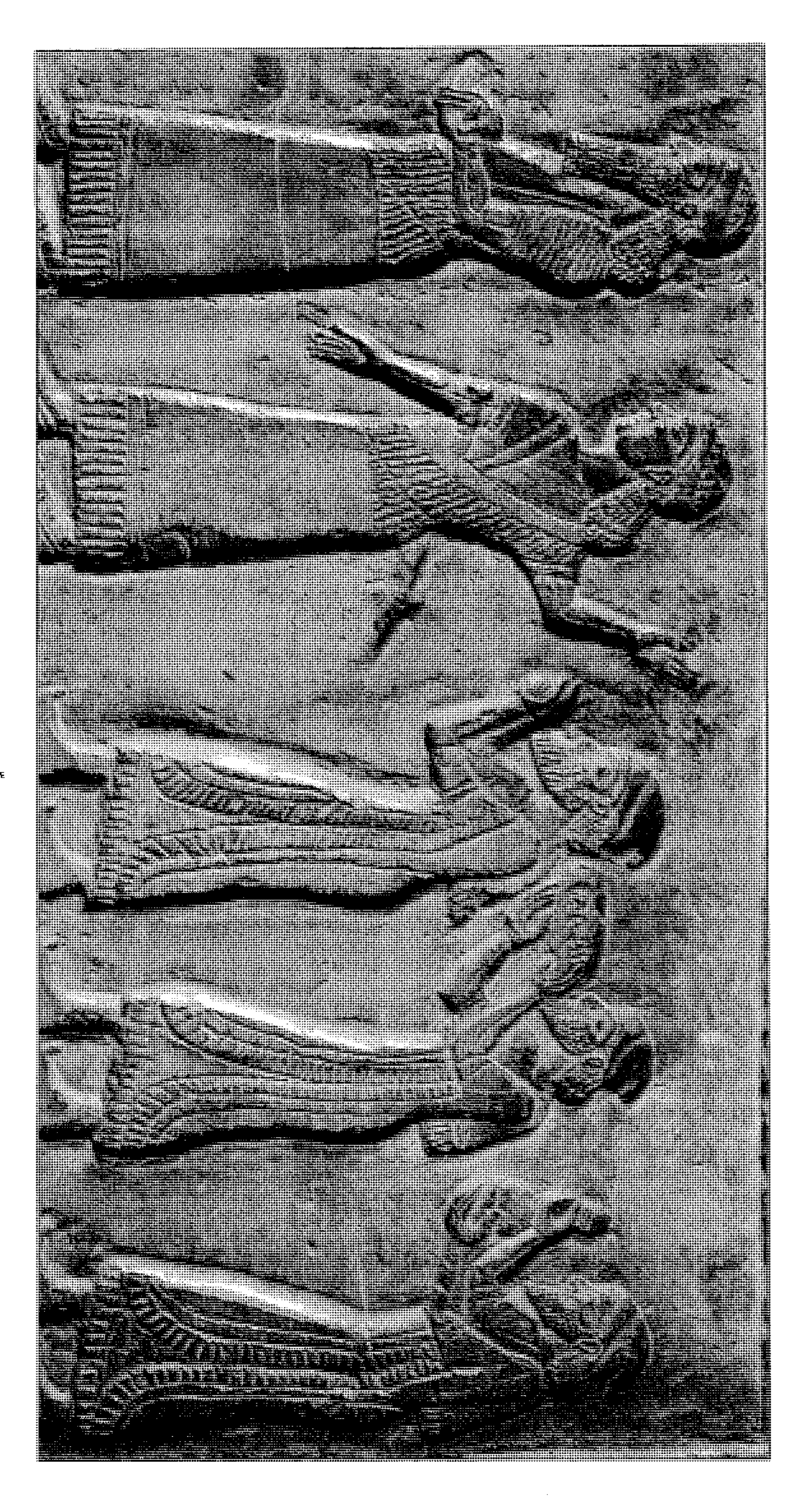
من آثار بابل



زيكورة سامرّاء



درج إحدى الزيكورات



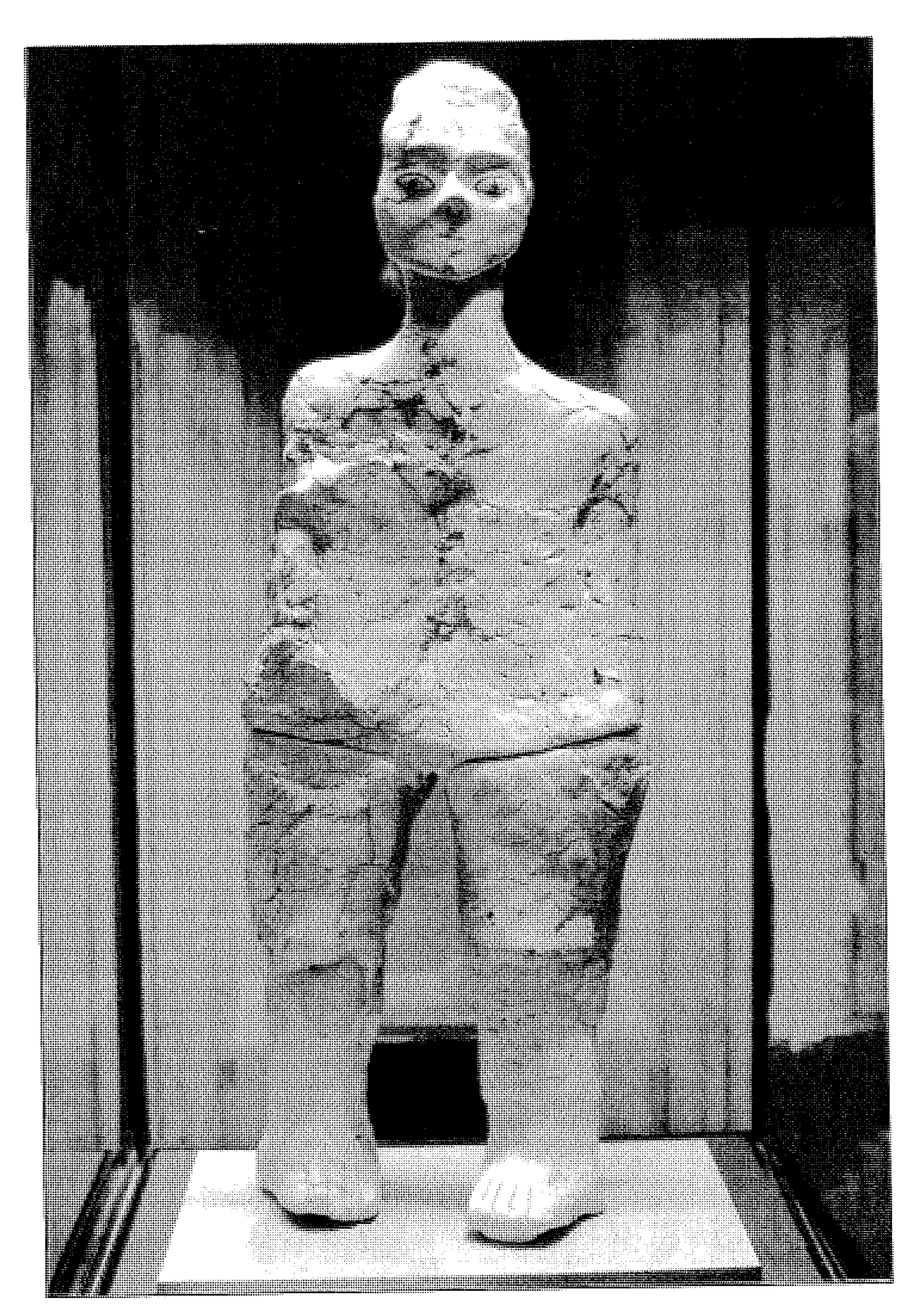
جانب من مسلّة شلمنصّر الثالث



أسد بابل



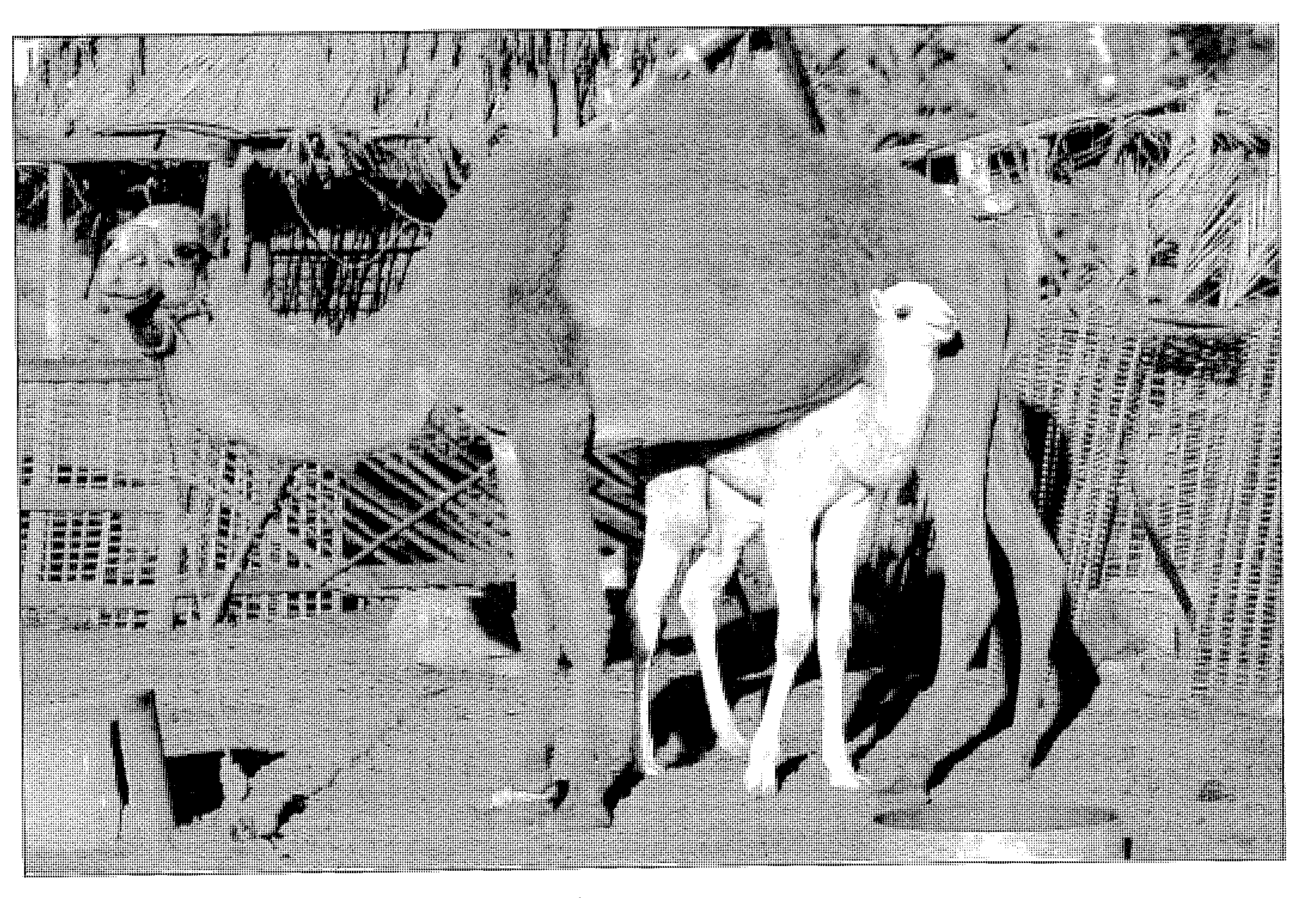
المعبد اليوناني الكبير



تمثال من العصر النيوليتي وجد في عمان



من آثار بترا



الحياة البدوية في الأردن

تمهيد

لقد شكّل العراق جزءاً من الأرض التي قامت عليها إحدى أقدم الحضارات في العالم، حضارة ما بين النهرين، فقد كانت موطن الأمبراطوريات السومريّة والأشوريّة، والبابليّة. والواقع أنَّ اسم العراق، ما هو إلاّ مرادف عربي لاسم تلك المنطقة القديمة. ولقد بقي العراق حتى القرن السادس ق.م يمثّل الأرض الخصبة التي تتنازع عليها الأمبراطوريّات والدول والدويلات....

تواريخ وأحداث

٢٢٤ ـ ٦٣٣: سيطر الساسانيّون على البلاد حيث كانت تقع عاصمتهم «المدائن».

٦٣٣ ـ ٦٤٢: الفتح العربي الإسلامي.

٦٦١ ـ ٧٥٠: شهد العراق أحياناً خلافات داخليّة (كربلاء سنة ٦٨٠).

٧٥٠ ـ ١٢٥٨: قيام الدولة العباسيّة جعل من بغداد عاصمة الخلافة الإسلاميّة.

١٠٥٥: الأتراك السلجوقيّون يستولون على بغداد.

١٢٥٨: مغول هولاكو يدمّرون بغداد.

١٢٥٨ ـ ١٥١٥: سيطر التركمان والمغول سيطرة كاملة على العراق.

١٤٠١: تيمورلنك يدمّر بغداد.

١٥١٥: احتلّ العثمانيّون العراق.

١٩١٤ ـ ١٩١٨ : بريطانيا العظمى تحتلّ العراق.

١٩٢٠ : انتداب بريطانيا على العراق.

١٩٢١ : الأمير الهاشمي فيصل بن الحسين يصبح ملكاً على العراق حتى سنة ١٩٣٣.

١٩٣٢ : العراق يصبح عضواً في عصبة الأمم كدولة مستقلّة.

١٩٣٣ : وفاة الملك فيصل وتولّي الملك غازي خلفاً له.

١٩٣٩ : تولّى الملك فيصل الثاني الطفل العرش.

١٩٤١ : قاد رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني انقلاباً على بريطانيا وخلع الوصي على العرش وهو الأمير عبد الإله خال الملك فيصل الثاني الطفل.

١٩٥٨ : العميد عبد الكريم قاسم يقوم بانقلاب ويعلن قيام الجمهوريّة.

١٩٦١ : ثورة الأكراد.

١٩٦٣ : عبد السلام عارف يطيح بقاسم.

١٩٦٦ ـ ١٩٦٨ : عبد الرحمن عارف يستلم الحكم بعد أخيه.

١٩٦٨ : انقلاب عسكري يؤدي إلى وصول حزب البعث إلى الحكم بقيادة أحمد حسن بكر كرئيسٍ للجمهورية.

١٩٧٢ : تأميم شركة الـ I.P.C.

١٩٧٥ : اتفاق العراق مع إيران لحلّ المشكلة الكرديّة.

١٩٧٩ : صدّام حسين رئيساً للجمهوريّة العراقيّة.

١٩٨٠ : اندلاع الحرب العراقيّة ـ الإيرانيّة.

١٩٨٨ : وقف إطلاق النار.

١٩٩٠ : العراق يهاجم ثمّ يحتلّ الكويت.

١٩٩١ : القوّات المتعدّدة الجنسيات تهاجم العراق وتحرّر الكويت.

بلاد ما بين النهرين وشعوبها

إنَّ المدنيّة ولدت في الصين، فقد ازدهرت هناك منذ ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد حضارة عظيمة أخذت تنتشر تدريجياً صوب الغرب عبر القارة الآسيوية. وفي حوالي القرن الثلاثين قبل الميلاد كانت الحضارة قد بلغت غايتها في الشرق الأوسط حيث وجد مركزاها البالغا الأهميّة وهما نهرا النيل والفرات، وظلّت المدنيتان المصريّة والبابليّة لعدّة آلاف من السنين أكبر المدنيات في العالم.

تقع بلاد ما بين النهرين La Mésopolamie، أي العراق كما نسميّه اليوم، بين بادية الشام ومرتفعات إيران، وهو منخفضٌ صحراوي يعبره نهرا دجلة والفرات، وقد عرفت هذه المنطقة أقدم الحضارات في العالم. وهي تنقسم إلى قسمين طبيعيين، الجنوبي منها منخفض جداً ومستوٍ، والشمالي صخري وجبلي، وعلى هذه الأراضي نشأت ونَمت امبراطوريتانِ منفصلتان، أشور في الشمال، وبابل في الجنوب، وكانتا دائمتي التنافس، فتارةً تتغلّب بابل وأخرى أشور، وأخيراً استطاعت امبراطوريّة بابل مرّة أخرى أن تسيطر على بلاد ما بين النهرين الواسعة.

أمّا الغرب بالنسبة للفرات اليوم فهو بلاد سورية، وسمّاها الأقدمون «أمورّو» وكانت مصدر معظم الهجرات السامية نحو بلاد الرافدين: (دجلة والفرات).

وإلى الجنوب الشرقي من العراق الحالي بلاد «عيلام» التي اشتهرت فيها مدينة سوسة «Suse»، دون أن تكون جزءاً أساسياً من بلاد «ما بين النهرين»، بل أضحت فيما بعد ركناً مهماً بالنسبة إلى حضارة فارس. كما أنَّ هضاب إيران بدورها قد صدّرت نحو «دجلة والفرات» عناصر آريّة أو «هنديّة

أوروبيّة» «كالسومريين» الذين قاموا بدور المؤسّس لحضارات ما بين النهرين.

ولقد كانت بلاد ما بين النهرين من أفضل المناطق التي عرفها العالم القديم. وبفضل خصوبة أرضها ومشاريع الريّ فيها تمكّن أهل البلد من أن يعيشوا حياة مستقرّة وهانئة. وفي هذا الجوّ الآمن الرغيد، ارتقت فنون الكتابة وسُنّت القوانين وتقدّم فنّ البناء. وبذلك أصبحت هذه البلاد مهداً لمدنيّة لا تضارع حتى بين البلاد التي ازدهرت فيها الحضارة بآسيا الصغرى.

ولقد تركزت الحياة في البدء عند الطرف الجنوبي من البلاد. وهنالك أنشأ «السومريون» أقدم حضارات العالم. ثمَّ تتالت هجرات القبائل الساميّة من بلاد أمورو، وشادت «أكاد» ثمّ «بابل». وبعد البابليين سيطر «الأشوريون» واتخذوا من «أشور» ثمّ «نينوى» عاصمة لهم. وأخيراً انتقلت مقاليد الأمور إلى «الكلدانيين» فأعادوا «بابل» إلى سابق مجدها. وهكذا تكون خمس دول قد تعاقبت على بلاد ما بين النهرين.

عيلام أو ثقافة السوس: تقع بلاد «عيلام» إلى الجنوب الشرقي من العراق الحالي دون أن تكون جزءاً أساسياً من بلاد ما بين النهرين. و «عيلام» تعني الأرض العالية، اشتهرت فيها مدينة السوس القديمة. وفي هذا الصقيع الضيّق الذي تحميه من غربه المناقع ومن شرقه الجبال الحافة بهضبة إيران العظيمة، أنشأ شعبٌ من الشعوب لا نعرف أصله ولا الجنس الذي ينتمي إليه، إحدى المدنيات الأولى المعروفة في تاريخ العالم. وقد وجد علماء الآثار الفرنسيون آثاراً بشريّة وشواهد تدلّ على قيام ثقافة مهمّة يرجع عهدها إلى ٤٥٠٠ق.م.

خرج أهل عيلام من الحياة البدويّة، حياة صيد الحيوان والسمك، وكانت لهم أسلحة وأدوات من النحاس وكانت لهم كتابة مقدّسة ووثائق تجاريّة، ومزايا وحلى وتجارة تمتدّ من مصر إلى الهند.

ولقد انتقل أهل عيلام إلى حياة السلطان والغزو فامتلكوا سومر وبابل، ثمّ ما لبثت أن استولت عليهم هاتان الدولتان الواحدة تلو الأخرى. وعاشت مدينة السوس ستّة آلاف من السنين، شهدت في خلالها عظمة أمبراطوريات

سومو وبابل ومصر وأشور وفارس واليونان وروما. وظلّت، باسم شوشان، مدينة مزدهرة حتى القرن الرابع عشر الميلادي، ومرّت بها في خلال تاريخها الطويل فترات مختلفة نمت فيها حضارتها نمواً عظيماً.

السومريون

أصلهم: بالرغم من الأبحاث الواسعة التي قام بها العلماء، لم نعرف إلى أيّة سلالة بشريّة انتمى السومريون ولا أيّ طريق سلكوا حتى دخلوا بلاد سومر. من الممكن أنهم قدموا من آسيا الوسطى، أو من بلاد القفقاس أو من أرمينيا ودخلوا أرض الجزيرة من الشمال متتبعين في سيرهم مجرى دجلة والفرات، حيث توجد شواهد دالّة على ثقافتهم الأولى، أو لعلّهم قد سلكوا الطريق المائي من الخليج الفارسي أو من مصر ثمَّ اتجهوا نحو الشمال متتبعين النهرين دجلة والفرات، أو لعلّهم أتوا من السويس، من بلاد عيلام أو أنَّ أصلهم القديم من المغول...

سكن هؤلاء واستقرّوا في الجنوب عند مصبّي دجلة والفرات حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م ولم يكن للنهر في ذلك الوقت مصبّ واحد كما هي الحال اليوم، وهنالك أسّسوا مدناً هي ممالك مستقلة وأشهرها: أور UR (المقَيَّر الحديثة) وأروك Uruk (إرك في التوراة) ونپور Nipour (نفر الحديثة) ولارسا Larsa (إلاسار في التوراة) لاكاش Lagash (سبرلا الحديثة) وأوما Oumma و«ماري» Mari (تقع في الشمال). وتفصل المستنقعات بين هذه المدن وإنّما تصل بينها الأقنية.

تاريخهم: كانت حكومة ما بين النهرين قديماً أقرب إلى شكل الإقطاع منها إلى الدولة المنظمة فكانت تقسم إلى مدنٍ مستقلة تعتبر إمارات أو مشيخات تفصل بينها مجاري الماء أو الجداول أو الأقنية المشتقة من الفرات ودجلة. وفي المرحلة الأولى من تاريخ سومر، كان الملك الكاهن هو الحاكم الأعلى ويسمى «بانيسي» وتحت إمرته نائب يرأس الحكومة.

يملك الملك قصراً أو عدّة قصور، وحولها بنيت أكواخ يقيم فيها العمّال والفلاحون الذين يخدمون الملك والإقطاعيين وتسمّى المملكة

الصغيرة باسم إله ذلك الهيكل. وكانت كل مملكة تحاول أن تفرض سيطرتها على الثانية. وأشهر العداء ما قام بين مدينتي «لا غاش» و «أوما» وانتهى بانتصار الأولى.

وفي المرحلة الثانية قُيّض لمدينة «أوما» ملك قوي اسمه لوغال زاجيزي (لوغال معناها الملك) فثأر لها وتابع زحفه نحو المدن الأخرى فوحّدها في دولة واحدة عاصمتها «أورك». ولقد فاخر هذا الملك ببسط نفوذه من «البحر الأدنى» إلى البحر الأعلى، أي من الخليج العربي إلى البحر المتوسط. ولكن هذه المملكة الموّحدة لم تعمّر أكثر من ربع قرن. وسقطت على يد «الأكاديين» عام ٢٧٢٥ق.م.

الأكاديون

أصلهم: كان الأكاديون مواطنين ساميين يحتمل أن يكونوا قد تسرّبوا إلى هذه الأرجاء من الصحراء العربيّة واستقرّوا في الجهّة الشمالية للإقليم الذي عاش السومريون فيه. كانوا، إذاً، قبائل قدمت من «بلاد أقورو» إلى السهل الخصب، بلاد ما بين النهرين.

تاريخهم: كان ملكهم الكبير سارجون Sargon، وقد امتدّ عهده من سنة ٢٣٥٠ قبل الميلاد، واستطاع سارجون أن يجمع كلمتهم وشاد عاصمة جديدة دعاها أكاد. وغلب السومريون فحلَّ العنصر السامي محل العنصر «الآري» أو «الهندي الأوروبي»، وعرفت بلاده باسم «أكّادية». ولقب الملك باسم «سرجون الأكادي»، وبواسطة الفتوحات المتواصلة أخضع شرقي شبه الجزيرة العربيّة وبلاد «عيلام» وبلغ الغرب حتّى البحر الأبيض المتوسط. ولكن الثورات قامت عليه فاضعفت دولته. ولم ينهض الدولة الأكاديّة إلاّ حفيد سارجون «نارام سين». ولكنّ الاستقرار لم يدم فعادت الثورات واستعادت المدن السومريّة قوّتها.

البابليّون

أصلهم: هم نتيجة امتزاج الأكاديين والسومريين، وقد نشأ الجنس

البابلي من تزاوج هاتين السلالتين، وكانت الغلبة في السلالة الجديدة للأصل السامي الأكادي. فقد انتهت الحروب التي شبّت بينهما بانتصار أكاد وتأسيس مدينة بابل لتكون حاضرة أرض الجزيرة السفلى بأجملها.

تاريخهم: في حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد، قام حمورابي، بتوحيد مملكتي إيسين ولارسا وجعل بابل عاصمة ملكه، ومن ثمّ أصبح أوّل ملك للمملكة البابليّة. وتعتبر فترة حكمه التي امتدّت ٤٣ سنة، العصر الذهبي لدولة بابل الأولى. وقد أصبحت مدينة بابل القائمة على نهر الفرات في ذلك الوقت عاصمة للأمبراطوريّة، واعترف بالإله ماردوك كإله للدولة له السلطان الأعلى على جميع الآلهة وآلهات الأمبراطوريّة الآخرين. ولقد أحسن حمورابي التنظيم وثبّت الدولة على ركائز متينة. واهتمّ بالفتوحات فأخضع بلاد «أشور» ثمّ بلاد «أمّورو» وشجّع الهجرات السامية نحو جنوب البلاد لتحلّ محلّ السومريين.

بعد موت حمورابي، انهارت الدولة وبدأ خطر الحثيين الآتين من آسيا الصغرى يهدّد بلاد ما بين النهرين. ولقد تعرّضت الأمبراطوريّة البابليّة الأولى للتخريب على أيدي أفواج من الغزاة الذين طمعوا في ثروة وخيرات الأمبراطوريّة على عهد حمورابي. هؤلاء الغزاة من أمثال الحثيين، الحوارنيين من سوريا، والكاسيتيين من جبال زاغروس كانوا طوائف من البرابرة بالقياس إلى المواطنين البابليين ذوي الحضارة. وانتقل ميزان القوى في بلاد ما بين النهرين إلى الامبراطوريّة الأشوريّة في الشمال. وسيطرة الأشوريين ستستمرّ أكثر من ٥٠٠ سنة.

بعد ذلك، أخذ البابليون يستعيدون قوّتهم حتّى استطاعوا أن ينتفضوا بالثورة ويهزموا جيرانهم الشماليين. وفي سنة ٦١٢ قبل الميلاد، تحالف نابويولاسّار Naboyolassar، ملك بابل من الميدسيين Medes على غزو ينوى، ومن ثمّ أصبح البابليون مرّة ثانية أسياداً على بلاد ما بين النهرين. ولكن دولة نابويولاسار التي أخذت بزمام الحكم فترة أقلّ من مائة سنة، كان عهدها آخر العهود التي اتسمت البابليّة فيه بالرضى والمجد والازدهار.

ولقد قام نيبوشادنيزار ابن نابويولاسار بإخضاع الشام والقدس وأعاد الكثير من اليهود إلى بابل، وكان مصلحاً كبيراً، حوّل مدينة بابل تحويلاً كاملاً إلى أوضاع أفضل، وتؤرّخ بعهده الزيكورات Zigguart الشهيرة المعروفة ببرج بابل. كما يمكن أن يكون من آثاره كذلك الحدائق الأسطوريّة البابليّة المعلقة، إحدى عجائب الدنيا السبع.

لكنَّ الدولة انهارت بعد وفاة هذا الملك بفترة وجيزة فلقد أمضى نابونيداس Nabonidas آخر ملوك بابل (من سنة ٥٥٦ إلى سنة ٥٣٩ ق.م.) معظم الوقت الذي حكم البلاد فيه وهو يشنّ غارت على البادية العربيّة، بينما كان بلشازار Belchazzar ويحتمل أن يكون ابنه، يقوم مكان نائب الملك في بابل. ومضت الأيّام التي شهدت الأمجاد البابيّة. وبدأ أفول نجم الأمبراطوريّة العظيمة. وفي سنة ٥٣٩ق.م إنحطّ قدر الأمبراطوريّة البابليّة حتى أن سايروس Cyrus ملك الفرس قرّر أن يهاجمها. وهزم بلشازار في أوبيس، وانهارت بابل دون مقاومه ونعني الملك نابونيداس.

وهكذا انتهى التاريخ المستقلّ لبلاد ما بين النهرين التي أصبحت بعد ذلك ولاية من ولايات الأمبراطوريّة الفارسيّة وهذه البلاد، بلاد ما بين النهرين، وإن استهدفت لحملات كثيرة من الدول كالفرس واليونان والباريتانيين Parthians والرومان فإن أهليها ظلّوا محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم القديمة حتى فتحها العرب في القرن السابع بعد الميلاد ونشروا الدين الإسلامي.

الأشوريّون

أصلهم: كان الأشوريون خليطاً من الساميين الذين وفدوا من بلاد الجنوب المتحضّرة (أمثال بابل وأكاد) ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب (ولعلّهم من الحثيين أو من قبائل تمت بصلة إلى قبائل ميتاني) ومن الكرد سكّان الجبال الآتين من القفقاس. وأخذ هؤلاء كلّهم لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر، ولكنّهم صاغوها فيما بعد بصياغة جديدة.

تاريخهم: بعد وفاة حمورابي الذي حكم بابل مدّة ٤٣ سنة انتقل ميزان

القوى في بلاد ما بين النهرين إلى الأمبراطوريّة الأشوريّة Assyrian في الشمال. وقد أخذ الأشوريون بالتدريج يوسّعون امبراطوريتهم على حساب المملكة الجنوبيّة الكبيرة. وقد صمّم أشور ناصربال، الملك الأشوري الأوّل الكبير، على أن يسيطر على آسيا الصغرى، وشنَّ في سبيل ذلك حملة امتدّت حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط. وكان مقاتلاً لا يرحم، وإليه يرجع السبب في وصف الأشوريين بالفظاظة والقسوة.

وبلغت الأمبراطوريّة الجديدة الذروة من قوتها تحت ظلّ تيجلاّ تبيليسر الثالث Tiglathpileser (وكان أوّل أشوري يتوّج ملكاً على بابل). وكان خلفاؤه: شالمايز، وسارجون الثاني وسنحاريب وآشوربانيبال. قبل هؤلاء الحكّام كان سرجون الأوّل وهو غير سرجون الأكادي، قد أنشأ منذ عام ١٧٧٥ق.م دولة اقتصرت في البدء على منطقتي «كردستان» و «الموصل» الحاليتين. وأعلنت مدينة «أشور» ثم مدينة «نينوى» عاصمة لهذه الدولة. وحوّل هؤلاء الحكّام كلّ الأهالي في آسيا الصغرى إلى رقيق. ولقد دمّروا المدينة البابليّة الكبيرة وأغرقوها بتحويلهم مجرى نهر الفرات. ولم يكن البابليّون وحدهم الذين خضعوا لسلطانهم ولكن كلّ الولايات السوريّة، ودفع لهم الملوك الإسرائيليّون الجزية. ومن عاصمة هذه الأمبراطوريّة نينوى الواقعة على نهر دجلة، بسطت أشور حكمها حتّى الحدود المصريّة، والجبال الأنيميانيّة والخليج الفارسي.

الكلدانيّون

أصلهم: من المؤكّد أنهم كانوا من القبائل الساميّة التي نزحت عن بلاد «أمورّو» واستقرّت في أوساط العراق. وهنالك عُرِفت باسم «الكلدو». وإليها انتسب «الكلدانيّون».

تاريخهم: لمّا تكاثر عدد الكلدانيين «بابل» عيّن الأشوريّون أحدهم حاكماً على هذه المدينة المهمّة. وفي سنة ٦١٢ق.م تحالف ملك بابل الكلداني الأصل نابوبالاسار Naboyolassar مع الميديين ملوك الفرس على غزو نينوى، عاصمة الأشوريين، فوجّها ضربة قاسية إلى هذه المدينة

العظيمة، وقامت دولة «الكلدانيين» على انقاض دولة «الأشوريين» وورثت عنها السيطرة على البلدان المجاورة، أي سوريا فلسطين وفينيقيا، ومصر. وأعاد الكلدانيون إلى بابل مجدها وعظمتها، وحوّل نبوخذنصّر ابن نابوبالاسار مدينة بابل تحويلاً عظيماً، وربما كانت من آثاره الحدائق المعلقّة، إحدى عجائب الدنيا السبع وأيضاً برج بابل المشهور.

ولكنّ مجد هذه الدولة لم يدم طويلاً، ففي سنة ٥٣٩ق.م إنحطّ قدر الأمبراطوريّة حتى أن قورش ملك الفرس قرّر أن يهاجمها، وهزم ملكها بلشازار في أوبيس فانهارت بابل دون مقاومة ونفي ملكها بابونيداس. وهكذا انتهى التاريخ المستقلّ لبلاد ما بين النهرين ودخلت في مرحلة انحطاط وانهارت حضارتها.

حضارات بلاد ما بين النهرين

لقد تساءل المؤرخون دائماً: هل كان ثمة حضارة واحدة أمّ حضارات متعاقبة في بلاد ما بين النهرين؟ فلقد امتزجت المعالم بين ما هو سومريّ (هندي ـ أوروبّي) وما هو سامي (أكادي، أو أشوري أو كلداني). فالسومريون الذين اسّسوا هذه الحضارات كانوا آريين، ولكنَّ الروح الساميّة طغت على هذه الحضارات. لذلك، من الصعب جداً تحديد من هي الدولة التي كان لها الفضل الأكبر والأعمق في بروز العلم والثقافة. وبسبب التجارة والغزوات المتلاحقة، حصل اتصال وتفاعل فكري وعلمي بين حضارة النيل وحضارة الفرات. وعلى هذا الأساس يشمل الحديث عن هذه الحضارات كلّ المراحل الممتدّة من حكم السومريين إلى زمن الكلدانيين مروراً بالأكاديين والبابليين والأشوريين.

نظام المجتمع

كان أهل بلاد ما بين النهرين من المزارعين، وعندما تحسنت أحوالهم وتوفرت لهم اليد العاملة من العبيد، انصرف الميسورون منهم إلى التجارة مستفيدين من موقع البلد وأهمّية المواصلات فيه. وبعد الغزوات والفتوحات وإذ دخلت شعوب جديدة تحت سيطرة «مملكة ما بين النهرين» ظهرت مشاكل جديدة وفوراق اجتماعيّة خاصة أيّام البابليين فجاء حمورابي ينظم المجتمع بهذا الشكل:

الملك: هو رأس الهرم وهو صاحب السلطة. ففي مجتمع كهذا كانت سلطة الملك مطلقة تسندها الثروة التجاريّة والإقطاعيّة. يمثل الملك الله على الأرض دون أن يعتبر نفسه إلهاً، اختارته الآلهة بواسطة الكهنة ملكاً. لذلك

كان يستشير الكهنة عند اللزوم، فالعرش لا يتبع مبدأ الوراثة. وقد استغلّ الكهنة هذا القانون ليختاروا الملك مميّزين شخصاً دون الآخر، مبررين ذلك بالاستجابة لمشيئته.

طبقات المجتمع: كان الناس في ذلك العصر ثلاث طبقات: الأحرار أو النبلاء، والعبيد وطبقة متوسطة بينهما عبرنا عنها بالموالي، على نحو ما كان عليه العرب في صدر الإسلام، فإنّ المولى عندهم أرقى من العبد وأدنى من الحرّ. واسم المولى عند البابليين «ماشنكك» وتعني «مسكن» في العبرانية ومعناها صعلوك أو فقير «مسكين».

أ ـ الأحرار أو النبلاء: هم الميسورون، الأغنياء بالوراثة والذين من بينهم ينتقى أعضاء مجلس الشيوخ في المدينة ولهم الصدارة في القضاء، هم مقرّبون من الملك كأعضاء في حاشيته ولقد استأثروا بأعلى مراتب القيادة العسكرية في الجيش البابلي. والأغنياء، بممارستهم التجارة، ينتمون أيضاً إلى هذه الطبقة. والأحرار هم كما اعتبرهم حمورابي العنصر الأساسي في المجتمع والعائلة هي النواة.

وكانت العادة في الأمّة المؤلفة من طبقات متباينة أنّ أهل كل طبقة تتزاوج فيما بينها، ويندر أن يحصل الزواج بين طبقة وأخرى إلاّ ما قد يقتنيه الأحرار من الجواري على سبيل التملّك. ولكن يؤخذ من شريعة حمورابي أنّ العبيد عند البابليين قد يتزوجون من بنات الأحرار زيجة شرعيّة، ولكن يظهر أنّ ذلك خاص بعبيد القصر الملكي. والزواج عندهم لا يعتبر نافذاً إلاّ بعقد مكتوب، شأن أرقى الأمم المتمدنة اليوم، والمحافظة على الحقوق الزوجية شرط واجب. والخطوبة تسبق الزواج والإنجاب غاية الزواج وينتج عنه سلطة مطلقة للزوج أو الوالد. فهو السّيد في المنزل، وحرّية التصرف لديه مطلقة تسمح له ببيع زوجته وأولاده ولكن لفترة لا تتجاوز الثلاثة أعوام. وكان عقاب الزنا القتل ذبحاً أو غرقاً، وكان الرجل يدفع مهر الفتاة مالاً... فكأن البابليون قد آلفوا في حقوق الزواج بين عادات الشرق والغرب.

ب ـ المساكين «مشكينو» أو الطبقة الفقيرة: كان الحكم في ذلك

الزمان إقطاعياً، أي لا وجود للطبقة المتوسطة فيه. فالمساكين أي الفقراء يؤمنون حياتهم اليوميّة بالعمل في الحقول والريّ والعناية بالأقنية وهم معرّضون للسخرة من قبل المتنفذين الأحرار ويفتقر معظمهم إلى الملكيّة الخاصة، فيعتنون بأراضي الملك أو الإقطاعي وهم يكتفون بالخضار والثمار ونادراً ما يأكلون اللحوم. بيوتهم من اللبن والغزّار، ولكن العوز أحياناً كان يدفعهم إلى بيع أنفسهم فينحدرون إلى طبقة العبيد. وهم بالرغم من حالة الفقر التي كانوا يعيشون فيها، تمتّعوا بحقوق ضمنها لهم القانون.

ج ـ **العبيد**: هم عبيد أسيادهم وملك لهم، إذ لا حرّية بتاتاً لهم. يميزون بإشارة أو بقلادة عليها اسم صاحبهم. ولقد وصلوا إلى هذا الوضع لأحد أمرين: البعض منهم وُلد عبداً والبعض الآخر استعبد عن طريق الأسر أو البيع. وفي الحالتين فقدوا صفتهم الإنسانيّة ليعاملوا كالسلعة أو كالحيوان. ونتيجة للحروب المتواصلة أيّام الأشوريين، تكاثر عدد العبيد فتشدّد القانون الأشوري في معاملتهم فزادهم إرهاقاً وتوزّع العبيد بين الملك والحاشية والمعابد والتجّار حتى أنّ بعض الميسورين من الأحرار كانوا يقتنون العبيد وقد أجبروا على تنفيذ الأعمال الشاقة والمهن البسيطة دون أجر. وتجدر الإشارة إلى «سبي بابل» عام ٥٨٧ق.م واستعباد يهود أورشليم على يد نبوخذ نصّر الملك الكلداني.

الكهنة: الملك السومري هو الكاهن، باسم پاتيزي Potesie يهتمّ بالأمور الزمنية والأمور الروحية في نفس الوقت. وبذلك فإن سلطته كبيرة لا حدود لها. وكان للكهنة بشكل عام أهمية كبيرة وسلطة على الشعب والكهنة علّموا الناس العلوم ولقنوهم الأساطير وبذلك كانوا يستغلّون وضعهم هذا لتعليم الناس ما يريدونه هم للسيطرة على نفوس الشعب. كما أسرف الكهنة في ابتزاز الأموال من الناس ممّا اضطر الحكّام إلى سنّ قوانين نظمت هذه الأمور. ومع الغزوات، أخذت سلطة رجال الدين تتضاعف، نتيجة لاعتقاد الناس بالسحر والتنجيم والطلاسم والرُقى. ولكن بقي الملك هو الكاهن الأعلى لأنه مثّل الإله على الأرض ويترأس المراسيم الدينيّة والاحتفالات،

دون أن تكون له صفة إلهيّة، وتضمّ حاشيته عدداً كبيراً من كهنة البلاط الملكي.

وفي مرتبة أدنى هناك كهنة المعابد، ولكنهم ككهنة البلاط يتمتعون بنفوذ معنوي وماديّ: معنوي لأنهم ربطوا بين الطبّ والدين، وفسّروا مشيئة الآلهة في اختيار وريث العهد، وفي تأدية النصح في زمن الحروب. ويتمتعون أيضاً بنفوذ مادي نتيجة البحبوحة واليسر فأجورهم عالية ويعود إليهم قسم كبير من التقادم والذبائح في الهيكل.

الموظفون: في «سلطة بلاد ما بين النهرين» تراتبيّة؛ ففي بادىء الأمر كان يؤخذ الكتبة، أو الموظفون الصغار من بين الكهنة، ومن بين الكتبة يؤخذ الموظفون الكبار. وعندما اتسعت الأمبراطورية اشتدّت الحاجة إلى الموظفين. ونشطت المراسلات والاتصالات بين العاصمة والمقاطعات فبلغ عدد الموظفين أيّام حمورابي عشرات الآلاف فلم يعد بالإمكان اختيارهم من بين الكهنة. أمّا في زمن الأشوريين فلقد اختصرت المعاملات الإداريّة لأن الحكم عسكري وكل الأمور الإدارية كانت تُناط بالجيش.

الجيش

في بلاد ما بين النهرين قامت غزوات وفتوحات كثيرة، فاضطرت الأمبراطوريّة أن تدافع عن أرضها وشعبها عند حصول الغزو وأن تهاجم وتحارب للتوسّع والانتشار. ولكن الجيش لم يتنظم إلاّ مع الأشوريين تنظيماً عسكرياً متفوقاً عن ذي قبل. فالأكاديون واصلوا فتوحاتهم حتى البحر الأبيض المتوسط وحمورابي اكتفى بالقليل من الفتوح ولكنه اهتمّ بتثبيت أقدامه في كل بلد أخضعه لسلطانه. أمّا أيّام الأشوريون فقد عُرفت بالحروب ونتائجها من ويلات الهزائم ونشوة الانتصارات. وقوّة الأشوريين تابعة من طبيعة بلادهم القاسية الجبليّة، وعدم وجود منافذ بحرية في مناطقهم، وأيضاً عدم وجود حدود طبيعيّة لحمايتهم وكون جيرانهم من الأقوياء كالحثيين... كل هذه الأسباب جعلتهم يتأهبون دائماً لأي حدثٍ يستجدُّ فأصبحت الحرب مهنتهم. وبذلوا قصارى جهودهم لتنظيم الجيش بهذا الشكل:

أ ـ القيادة العسكريّة: رئيسها الملك نفسه أو يعيّن قائداً من قبله لهذه المهمّة. ولكن كان القائد أحياناً يشكّل خطراً على العرش خاصة إذا كان قوياً، باسلاً وكان الملك ضعيف الشخصيّة، أو غير مؤهل للقتال.

ب ـ الفرق العسكريّة: تألفت عناصر الجيش من الأشوريين بشكل أساسي ثمّ المرتزقة وأسرى الحرب وجنود البلاد التي خضعت لحكّام بلاد ما بين النهرين، وتوزّع الجنود حسب اختصاصهم إلى فرق أهمّها:

● **المشاة:** أعدادهم كبيرة، تسلّحوا بالقِسّي والحراب والسيوف وقد أتقنوا الطعن بالخوذ والدروع. استعملوا القوارب الصغيرة لكي يقطعوا الأنهار بدون جسور. ولقد اشتهروا بسرعة الحركة وبالمناورات وبأسلوب المباغتة.

● **الخيالة:** استحدث الأشوريون هذه الفرقة وهي اعتمدت على سرعة الهجوم، استعملت الخيّالة السلاح الخفيف كالقوس.

● **الهندسة:** يلبس عناصر الهندسة الدروع كجهازٍ واقٍ يقيهم السهام والحراب، اختصاصهم تحطيم أبواب القلاع والحصونِ أيّام الحصار. أمّا في أيّام السلم فهذه الفرقة تمهّد الطرقات وتبني الجسور.

● **المركبات:** يجرّ المركبة جوادان أو ثلاثة جياد. يقف فيها جنديان، أحدهما يقود والثاني يرمي السهام، وآخران اثنان مهمتهما الحماية يتواجدن معهما. أهميتها في الصدام مع العدو. فسلاح المركبات مصمّم للهجوم واقتحام الصفوف.

● **البحرية:** سلاح البحرية تطوّر أيّام الأشوريين، وقد طلبوا من الفينيقيين إنشاء أسطول بحريّ، على صورة المراكب الفينيقيّة، مقدّمتها دقيقة ومنخفضة وظيفتها اختراق السفن المعادية. أمّا المراكب المخصّصة لنقل الجنود فكانت عادية.

اشتهر الجيش الأشوري في التاريخ القديم بأسلحته الحديديّة التي جعلته يتفوّق على العدو الذي اقتصرت أسلحته على البرونز، وإنّ تنظيمه وقسوة محاربيه الأشدّاء جعلته ينتصر ويدمّر ويرتكب الأعمال الوحشيّة. لذلك هلّل

العالم القديم عندما سقطت عاصمتهم نينوى سنة ٦١٢ق.م فالكلدانيون الذين حلّوا محلّ الأشوريين كانوا أقلّ قسوة.

الديانة

تعدّدت الآلهة في بلاد ما بين النهرين، فلقد قدّس السومريون مظاهر الطبيعة وعناصرها، فكانت عبادة الشمس «نور الآلهة» الذي كان يقضي الليل في الأعمال الشماليّة حتى يفتح له الفجر أبوابه فيصعد في السماء كاللهب ويضرب بعربته في أعماق القبّة الزرقاء، ولم تكن الشمس إلاّ عجلة في مركبته الناريّة، وكان هنالك إلهة الأرض والمعروفة لدى أهل أكاد الساميين باسم «أستير»، وكان «تنجرسو» إله الريّ و«رب الفياضانات»، وكان «أبو أو تمّوز» إله الزرع، وكان «سِن» إله القمر، وكان الهواء كلّه في زعمهم مملوءاً بالأرواح - منها ملائكة خيّرون لكل سومري ملاك منهم يحميه، ومنها أرواح شرّيرة أو شياطين تعمل ضدّ روح الخير.

وكان معظم الآلهة يسكن المعابد حيث يقرّب لها المؤمنون القرابين من مال وطعام وأزواج. كما عبد السومريون القوى الكامنة وراء عناصر الطبيعة كحرارة الشمس في العراق أو قوّة المياه عند فيضانها أو الطوفان (أسطورة جلجميش Galgamesh)، ومن ثمّ جعلوا الآلهة على صورة البشر، لهم صفات القوة وصفات الضعف ولهم حسنات وسيئات. ولقد تعدّدت الآلهة بتعدّد المدن والولايات، لكل مدينة إله تعبده وتفرض عبادته على المدن المجاورة وتنتهي الصدارة إلى إله المدينة المنتصرة.

هكذا فعل البابليون، فبعد أن أخضعوا البلاد احتفظوا بآلهة «السومريين» والأكاديين معاً، ولكنهم جعلوا «مردوخ» إله بابل، عاصمتهم في مقدمتها جميعاً. فنفوذ الإله إذاً هو نفوذ الدولة، و«مردوخ» ليس بالغريب عن آلهة السومريين والأكاديين فهو ابن «آيا» إله المياه الجوفيّة. وتختصر فيه صفات الآلهة جميعاً لأنّه خلصها من خطر أحدق بها فكانت له المرتبة الأولى بين الآلهة. وعندما حكم الأشوريّون، برز في المقدمّة إلههم «أشور».

اعتقد السومريون بأنّ النفس لا تموت، فعند الموت، وبعد مفارقتها

الجسد، «تذهب الروح إلى أصقاع لا ترجع منها» وهنالك تستمرّ في حياة بائسة، فقيرة إلى الأمل. وحرص السومريون على أن يضعوا مع الميت كل ما يعوزه في حياته الثانية مثل مصاغه ومقتنياته.

لقد شاعت هذه المعتقدات لدى كل من الأكاديين والبابليين والأشوريين والكلدانيين، لذلك نعتبر بأن الحضارة السومريّة كانت الحجر الأساس بالنسبة لديانات بلاد ما بين النهرين.

الفكر

إنَّ آثار شعوب «ما بين النهرين» الفكريّة مهمّة وكثيرة، ولقد حفظ معظمها في مكتبة أشور بانيبال. وأهمّها الكتابة المسماريّة وقانون حمورابي.

١ ـ **الكتابة**: وهي أهمّ ما خلّفه السومريون فعندما أحسّوا بالحاجة إلى تدوين أفكارهم في التجارة والشعر والدين، وضعوا أسس كتابة أوليّة أخذها عنهم الأكاديون وطوروها فأضحت أحسن استعمالاً، وهذه الكتابة عرفت بالمسماريّة. من حسن الحظّ أن سكّان ما بين النهرين لم يكتبوا بالمداد السريع الزوال على الورق السريع العطب، القصير الأجل، بل كتبوا على الطين الطريّ ونقشوا عليه ما يريدون نقشه بسَنّ آلة حادة كالإسفين، وهكذا استطاعوا أن يحتفظوا بالسجلات، ويدونوا العقود والمشارطات ويكتبوا الوثائق الرسميّة، ويخلقوا من هذه كلّها حضارة مهمّة يذكرها التاريخ.

وهذه الكتابة تعتمد على الإصطلاح الذي يدلُّ على فكرة أو عمل أو مقطع صوتي. ولقد بدأت الكتابة لدى السومريون من اليمين إلى الشمال، كما تكتب اللغة العربيّة. وتسميتها بالمسماريّة عائد إلى اعتماد الطبع بآلة دقيقة تشبه المسمار على ألواح طريئة من الدلغان ثمَّ تجففّ في الشمس، أو تُشوى على النار حتّى تقسو، ولقد تبجّح الملك «أشور بانيبال» بأنه ترك مكتبة ضخمة.

إنَّ الانتقال من الكتابة إلى الأدب تطلّب عدّة مئات من السنين فلم يحلّ عام ٢٧٠٠ق.م حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد أنشىء

في المدن السامريّة. ولقد بدأ المؤرخون السومريون منذ عام ٢٠٠٠ق.م يكتبون ماضيهم ويسجلون حاضرهم ليخلفوه لمن يجيء بعدهم. على أنَّ ما بقي من هذه الكتب في صورته الأصليّة لوح عثر عليه في نپور كتب عليه الأصل السومري البدائي لملحمة جلجميش. وتحتوي بعض الألواح المحطّمة على مراث بأسلوب أدبي خليق بالتقدير. ولم تكن القصائد الأولى إذن أراجيز ولا أناشيد غزليّة بل كانت صلوات وأدعية دينيّة.

٢ ـ **التشريع**: إلى جانب النظام الملكي الاقطاعي في بلاد ما بين النهرين، كانت تقوم القوانين التي استندت إلى سوابق كثيرة من عهد أور ـ أنجور ودنجى اللذين جمعا قوانين «أور» ودوّناها فكانت هي المُعين الذي استمدّ منه حمورابي شريعته الذائعة الصيت. وكانت تلك الشرائع أبسط وأكثر بدائيّة من الشرائع اللاحقة، ولكنها كانت أيضاً أقلّ منها قسوةً. ولقد شمل القانون السومري العلاقات التجاريّة كما شمل العلاقات الزوجيّة والجنسيّة بوجه عام ونظّم شؤون القروض والعقود والبيع والشراء والتبني والوصية بكافة أنواعها. وكانت المحاكم تعقد جلساتها في المعابد وكان معظم قضاتها من رجال الدين، أمّا المحاكم العليا فكان يعيّن لها قضاة فنيّون مختصّون. وخير ما في القانون كلّه هو النظام الذي وضعه لتجنب التقاضي، ذلك أنّ كل نزاع كان يعرض أولاً على محكّم عام واجبه أن يسوّيه بطريقة وديّة دون أن يلجأ المتنازعون إلى حكم القانون.

ولكن لم يدوّن السامريون والأكاديون شرائعهم في قانون. والفضل في كتابة وجمع هذا القانون يعود إلى حمورابي، وهو الملك البابلي العظيم الذي عمل بمهمته ممثّلاً الإله مردوخ على الأرض، أيّ أنه كان المسؤول عن تنظيم البلاد وإقامة العدل. ولقد جمع حمورابي ٢٨٢ مادة تشريعيّة، من جميع التقاليد والقوانين السائدة والمعمول بها في المنطقة وحاول أن يجعلها أكثر تناسباً مع عصره ومجتمعه واسترشد كلُّ الموظفين بهذا القانون.

كان الحكم ملكياً أيّام حمورابي، وبدوره كان الملك يورث عرشه ممن يختاره من أبنائه بلا تفريق بينهم، والحكومة كان يديرها عدد كبير من

الموظفين الإداريين، يعينهم الملك. ولقد اعتمد المبدأ الأساسي في قانون حمورابي على الطبقيّة والمعاملة بالمثل. وقد تكلمنا فيما سبق عن ثلاث طبقات في المجتمع: الأحرار والمساكين والعبيد. أمّا المعاملة فترتكز على مبدأ السن بالسن والعين بالعين، طبعاً إذا كان المتقاضيان من طبقة واحدة. وفي كل حال القصاص واجب لمن أخطأ أو ارتكب جرماً.

ولقد ارتاح المجتمع البابلي لقانون حمورابي، ولمّا تسلّم الأشوريون الحكم، تبنّوا هذا القانون مع مبادئه، ولكنهم كانوا أدقَّ من البابليين في تطبيقه، فضيّعوا القيم الإنسانيّة التي تميّز بها هذا القانون.

العلوم

اشتهر أهل بلاد ما بين النهرين بالعلوم ولقد ارتبطت في مفهومهم بالدين والتنجيم والفلك. وتطوّر الطبّ في أيّامهم كما اهتموا بالتقويم والأعداد والمقاييس.

١ ـ **الطبّ**: ارتبط الطبّ عند السومريين بالدين، فلقد اعتقدوا أن الإنسان المريض هو إنسان ارتكب خطيئة ما فتخلّى عنه الإله، وسكنه الشيطان وراح يعذّبه. فيُستدعى الكاهن لمعالجته. فالكهنة هم الأطبّاء، وقد حفظوا سرّ المهنة، وطبعاً كان الطبّ بدائياً في تلك العهود، فكانوا يضعون التفاسير والأدوية الروحيّة لكل ما يعجزون عن مداواته علمياً. والكاهن يصف لمريضه الدواء المرّ المذاق ليتضايق منه الشيطان فيغادر جسد المريض بسرعة.

ولكن، تطوّر الطبّ أيّام البابليين، فأصبحت وسائلهم شبه علميّة، وحاولوا جاهدين التخلّص من التفسيرات الروحيّة للمرض ولم يلجأوا إلى هذا الطبّ الروحي، إلاّ عندما عجزوا عن معالجة مريض وشفائه. وتنظم الطب أكثر فأكثر أيّام الملك حمورابي وحدّد القانون الأجر الواجب تقاضيه من الحرّ والمسكين والعبد أيضاً. ووضعت قوانين لحماية المهنة والمحافظة على مستواها.

وبالرغم من كل هذا التطوّر، بقي الطبّ والجراحة من اختصاص الإلهة

«بو» التي لا تُخطىء. الطبيب فقط مسؤول عن الخطأ لأنه لم يُحسن تفسير ما أمرت به هذه الإلهة، وخوف الأطباء من العقاب والقصاص عند وقوع الخطأ، جعل الجراحة لا تتقدّم إلاّ ببطءٍ شديد، في حين اشتهر فيه المصريون بالتشريح والتحنيط. ولكنّ الأشوريين عرفوا كيف يقتبسون من أهل النيل الوسائل المصريّة في الطب والجراحة. وأخيراً ميّزوا بين الطبّ والديانة وأصبح العلم مستقلاً، واستعان الملوك الأشوريون كثيراً بالأطبّاء.

٢ ـ **الأعداد والمقاييس**: أتقنت شعوب بلاد ما بين النهرين الكتابة المسماريّة، لذلك كتبوا الأعداد كما نعرفها اليوم بل رمزوا إليها بشكل مسماري ومع الأكاديين أصبح النظام «إثني عشرياً» (١٢) لسهولة قسمته إلى اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو ستة، باستثناء الخمسة. وأتى البابليون فجعلوه «ستينياً» ٦٠ ليصبح أكثر قابليّة للقسمة. لذلك عندما أرادوا أن يدونوا الأعداد بالعشرات جعلوا الرمز المسماري ستّ مرّات فإذا وصلوا إلى «الستين» عادوا يكرّرون الشكل المسماري الذي يرمز إلى الواحد. ولقد ظهر اعتماد النظام الستيني في تقسيم الساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية. وإنَّ النظام الستيني جاء مكملاً للنظام الاثني عشري لا ناقضاً له. كقسمة اليوم إلى اثنتي عشرة فترة (مدّة كل منها ساعتان، واحدة للّيل وواحدة للنهار) والأعداد إلى دزّينات (١٢ واحدة) وكل خمس دزينات تساوي ستين. ولم تلحظ شعوب ما بين النهرين الرقم «صفر» ولكنَّ الحساب من جمعٍ وطرحٍ وضرب تطوّر جداً.

٣ ـ **التقويم**: عرف شعب بلاد مابين النهرين التقويم نتيجة لمعرفته التنجيم وعلم الغيب. ولقد بدأ العام لدى السومريين في الربيع عندما تزدهر الطبيعة وكانوا يحتفلون بذلك. والسنة تتألف من فصلين متعادلين، الأوّل يبدأ في شهر نيسان والثاني في شهر «تشريت» تشرين الأوّل. وجاء الأكاديون فتابعوا ما بدأه السومريون فاستقرّت أشهر السنة كما يلي:

الفصل الأوّل	الفصل الثاني
نيسان (آذار ـ نيسان)	تشريت (أيلول ـ تشرين الأوّل)
أيّار (نيسان ـ أيّار)	حَسَامنا (تشرين الأوّل ـ تشرين الثاني)
سيوان (أيّار ـ حزيران)	كيسِمو (تشرين الثاني ـ كانون الأوّل)
تمّوز (حزيران ـ تمّوز)	تابت (كانون الأوّل ـ كانون الثاني)
آب (تمّوز ـ آب)	شباط (كانون الثاني ـ شباط)
ألول (آب ـ أيلول)	آذار (شباط ـ آذار)

هذا التقويم ليس دقيقاً، فالشهر القمري المعتمد تختلف مدّته بين ٢٩ و٣٠ يوماً. وهذا يعطي مجموع ٣٥٤ يوماً في السنة القمريّة أي بفارق قدره ١١ يوماً وربع اليوم بين السنة القمرية والسنة الشمسيّة. وهذا الفارق يزداد بين نهاية العام القمري وبداية السنة في فصل الربيع (أواسط نيسان). فشعر البابليون بضرورة ردّ الحساب القمري إلى الحساب الشمسي حتى تنتظم أعياد الربيع فاتفقوا على زيادة سبعة أشهر كل تسعة عشر عاماً فيستقيم التقويم.

أمّا التجّار فقد قسّموا الشهر إلى ستة أسابيع، مدّة كلّ أسبوع خمسة أيّام. وهكذا أصبح الشهر التجاري ثلاثين يوماً، والسنة التجاريّة ٣٦٠ يوماً.

أمّا اليوم لدى سكّان ما بين النهرين فيبدأ عند الغروب، ويقسم إلى اثنتي عشرة فترة، مدّة كل فترة ساعتان. وقسّموا الساعة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثانية.

والتاريخ عند شعوب بلاد ما بين النهرين لا يبدأ مع حدث رئيسي معيّن، كميلاد المسيح أو هجرة الرسول، وإنما يرتكز على تولّي الملك أو مع تدشين معبد.

الفنون

لقد كانت حضارةُ «بلاد ما بين النهرين» مزيجاً مركباً من بدايات خشنة وإتقان بارع في بعض الأحيان. وفي تلك البلاد، نجد أوّل ما أسّسه الإنسان من دول وأمبراطوريّات، وأول نظم للريّ وأوّل استخدام للذهب والفضّة

وأوّل كتب للقوانين وأوّل استخدام للكتابة، وأوّل قصص الخلق والطوفان وأوّل الأدب، وأوّل الفنون: من تجميل وحلى ونحت ونقش بارز، وبناء القصور والهياكل، واستعمال للمعادن في الترصيع والتزيين وكل فنون البناء: العقود والأقواس والقباب.

١ ـ **فنّ البناء:** لقد استعملوا الآجر من طين مجفّف ولبن وشووا الحجارة في الأفران لكي تصبح قاسية ومع كل ذلك لم تصمد مثل الحجر الصخري، فتعرّضت الهياكل والمقابر والقصور إلى الاندثار. كما سبّبت الفيضانات خراب الأبنية فتحولت جميعها إلى تلول. ويبدو أن السومريين هم أوّل من ابتدع الأشكال الأساسيّة للمنازل والهياكل والأعمدة والقباب. ومن البداية البسيطة تطوّر فنّ البناء خاصة بانفتاح شعب بلاد ما بين النهرين على الحضارة المصريّة.

ـ **الأبنية الدينية:** وهي المعابد والمقابر، وهي كثيرة جداً ومتنوعة. بنى السومريون المعابد وعُرفت في أيّامهم باسم «الزقّورة» وهي تتألف من خمس طبقات متدرّجة، في أعلاها يرتكز المعبد ليكون قريباً من السماء وهكذا يستطيع المتعبّد أن يتصل بالآلهة الكثيرة العدد. والأشوريّون جعلوا الزقّورة من سبع طبقات. والمعبد بنوه مرتفعاً عالياً ليكون بمثابة مرصد تراقب منه الكواكب والنجوم. فلقد كان لعلم الفلك أهميته في حياة الشعب اليوميّة والدينيّة. وللوصول إلى المعبد في الزقّورة، أقيم درج ضخم مواجه يلتقي بدرجين جانبيين عند الطبقة الثانية من الزقّورة. أمّا الأشوريون فقد استعملوا الدرج اللولبي الذي يلتفّ حول الزقّورة.

وكانت المعابد والزقورات غنيّة جداً، إذ تستورد لها الحجارة من الأقطار النائية وكانت تتزيّن بأعمدة وأفاريز من النحاس مطعمة بمواد شبيهة بالحجارة الكريمة. وكان هيكل «ناتاو» في أور طرازاً تحتذيه سائر هياكل أرض الجزيرة، فقد كانت جدرانه مغطاة من الخارج بالقرميد الأزرق الشاحب. أمّا من الداخل فكانت تكسوه ألواح من الأخشاب النادرة. وكانت الهياكل تزينها أحياناً تماثيل للآلهة وللحيوان وللأبطال من بني الإنسان وهذه

التماثيل مصنوعة من النحاس أو الفضّة، والأبراج كانت تعتبر مساكن الآلهة فتتلقّى يومياً مئات التقادم. ومن أشهر الأبراج برج بابل حيث عُبِدَ الإله «نبو».

أمّا المقابر فلقد كانت تحت الأرض، واحتوت بالإضافة إلى جثّة الميت، على كل ما هو بحاجةٍ إليه، من أوانٍ وأدوات، ومعه يوضع تمثال شبيه به ليكسب رضى الآلهة.

ـ **القصور**: كان الأغنياء من أهل المدن يشيّدون قصوراً يقيمونها على رُبى تعلو عن أرض السهل قرابة أربعين قدماً في بعض الأحيان، وكانوا يجعلونها منيعة لا يمكن الوصول إليها إلاّ من طريق واحد، وبذلك يستطيع كل عظيم سومري كلداني أو بابلي أو أشوري أن يتخذ من قصره حصناً له.

ومن أشهر القصور، قصر «خورساباد» في نينوى عاصمة الأشوريين، وقصور «بابل» الكلدانية. ولقد زاد الكلدانيّون في رونق هذه العاصمة بعد أن طمسها الحكم الأشوري مدّة من الزمن وقد شيّدت على نهر الفرات، يحيط بها صفّان من الأسوار، ولها مئة بوّابة من القُلُز، دُورُها غنيّة متعدّدة الطبقات وكان أبرز ما فيها قصر «نبوخذ نصّر» وبرج بابل بجنائنه المعلّقة. ولقد بلغت مساحة القصر عشرة كيلومترات مربعة. طول قاعة العرش فيه ستّون متراً، مطليّة كلّها بالأبيض. وكل جدران هذه القصور مزيّنة بالنقوش.

٢ ـ **النحت**: في شمال بلاد ما بين النهرين مقالع صخريّة، أمّا في الجنوب فلقد افتقرت هذه المنطقة إلى الصخور والحجارة. لذلك جاءت أنصاب وتماثيل السومريين عديمة الإنسجام، صغيرة المقاس. ولقد استعمل أهل الشمال والجنوب المعادن الثمينة لتغليف التماثيل فزادوا من قيمتها. ولقد برع السومريون بالحفر والتطعيم على ألواح من الحُمَّر كما أتقنوا صناعة الخزف. وصهروا المعادن وبرعوا في تشكيلها وصناعتها كما في أبواب بلاوات العظيمة. والنقوش الرائعة هي نقوش الحيوانات، فالفن القديم وحتى الفن الحديث لم ينجح في نحت الحيوانات نجاح الفنّ الأشوري: مناظر الحرب والصيد، نذكر منها نقوش خراساباد وتبدو فيها خيل سرجون الثاني

ونقوش قصر سنحاريب في نينوى وفيها اللبوءة الجريحة، ونقوش قصر أشور بانيبال وفيها اللبوءة المحتضرة المنقوشة على حجر المرمر. فلقد جسّد الأشوريون في نحتهم كل ما يمثّل القوّة.

ولقد أبرزوا معالم الوجه وتقاسيمه وكذلك العضلات المفتولة وستّروا بقية الجسم برداء فضفاض، فأتى التمثال مطابقاً لأوصاف صاحبه، إذ كانت الغاية من كل تمثال أن يمثّل صاحبه في المعبد لترضى الآلهة عنه بعد الممات. وعندما تزايد الطلب على التماثيل، صنعوا القوالب فأنتجوا أعداداً ضخمة من تماثيل الآجر بأنموذج واحد. وبذلك قلَّ الاهتمام بالتفاصيل فخرج النحت عن المقوّمات الفنيّة.

٣ ـ **الرسم**: لقد اقتصر على تلوين النقوش. ولم يتطور الرسم في بلاد ما بين النهرين، إذ لم يميّز سكّان هذه البلاد بين الصف الأمامي وما خلفه كما لم يلحظوا الحركة فبقيت لوحاتهم جامدة غير معبّرة.

مرحلة الغزوات

١ ـ الفرس فاليونان

لقد عاشت بلاد ما بين النهرين فترة ازدهار واستقلال تحت حكم نبوخذ نصّر من سنة ٦٠٥ق.م إلى سنة ٥٦٢ق.م. وفي سنة ٥٣٨ق.م استطاع قورش الثاني، ملك الفرس أن يحتلّ بلاد ما بين النهرين بعد أن قتل حاكمها فأصبح عندئذٍ سيّد الشرق الأوسط. ولقد تميّز حكمه بالعدل والإنصاف، فلقد سمح لليهود النازحين إلى بابل بالعودة إلى بلادهم. ولكن في سنة ٥٢٨ق.م. قهرته الملكة توميريس Tomyris واستلمت زمام الحكم مكانه. واستمرّت سيطرة الفرس على بلاد ما بين النهرين زمناً طويلاً إلى أن تغلّب الإسكندر، القائد اليوناني الكبير، على الأمبراطور الفارسي داريوس الثالث. وتركّز الإسكندر الكبير في مدينة بابل Babylone آملاً في أن تصبح عاصمة امبراطوريته المترامية الأطراف، وقد حاول صهر اليونان مع الفرس ليوطّد وحده دولته. توفّي الإسكندر في مدينة بابل سنة ٣٢٣ق.م في الثالثة والثلاثين من عمره.

٢ ـ الرومان

بعد وفاة الإسكندر، تقهقرت الحضارة الهلينيّة وتقاسم خلفاؤه الأمبراطوريّة المترامية الأطراف، وازدهرت الحضارات الشرقيّة الأخرى كالمصريّة والآسيويّة، وهاجر عدد كبير من اليونانيين، نفوذ العاصمة أثينا، فأصبحت البلاد فريسة سهلة للمحتلّين الجدد وهم الرومان الذين استطاعوا أن يمدّوا سلطتهم على كل الأراضي التي سبقت أن حكمتها اليونان. وهكذا ففي سنة ١٤٨ق.م سقطت مقدونية في أيديهم وتتالت الفتوحات.

وكانت آسيا الصغرى قد أرهقها حكم الغلاطيين وتجزأت إلى دويلات سنة ٢٥٠ق.م فخضعت لروما تحت حكم الملك أنطيوخوص الثالث Antiochos III من سنة ٢٢٣ق.م إلى سنة ١٨٧ق.م. أمّا مملكة فارس ومملكة بلاد ما بين النهرين La Mésopotolamie فلقد وقعتا في أيدي البارتانيين، وهم بدو رحّل أتوا من منطقة خراسان.

٣ ـ أمبراطوريّة البارتانيين

لقد سيطرت سلالة البارتانيين على منطقة واسعة امتدّت من حارات Harät (أفغانستان اليوم) إلى نهر الفرات وأقامت عاصمتها Chésiphon على نهر دجلة. قوّة هذه الأمبراطوريّة كانت محدودة بسبب وجود دويلات مستقلّة في داخلها. وكان يتألّف جيشها من النبلاء ولعب دوراً مهمّاً في صدّ هجمات المعتدين. وقد حاول الرومان عدّة مرّات السيطرة على طرق القوافل لآسيا الوسطى ولكنّ محاولاتهم باءت جميعها بالفشل.

إنّ السيطرة البارتانية على المنطقة أدّت إلى التخفيف من التأثير الهلّيني في المقاطعات التابعة للأمبراطورية. ولقد عادت بلاد الفرس إلى أصولها الآسيويّة بدل التطلّع إلى عالم البحر الأبيض المتوسط. وإنّ سياسة الساسانيين الذين خلفوا البارتانيين تؤكّد ذلك.

٤ ـ الأمبراطوريّة الساسانيّة

هي سلالة فارسيّة الأصل حكمت من القرن الثاني حتّى القرن السابع بعد المسيح. وخلال هذه الفترة تراجع التأثير الهليني أمام الذوق الفارسي خاصة في البناء، ويشهد على ذلك قصر الملك شاهبور الأوّل الذي بناه في مدينة «المدائن» على نهر دجلة.

في سنة ٢٢٤ق.م قاد أردشير، وهو ساساني الأصل، انقلاباً ناجحاً ضدّ أرذبان الخامس فقضى على جميع السلالات المحليّة وعلى التنظيمات البارتانيّة الضعيفة ليؤسّس مكانها مؤسّسات مركزيّة قوية، كما ارتكزت قوّة الدولة الساسانيّة على جيش كبير استطاع أن يتغلّب على الأعداء ويصدّ هجماتهم.

العراق في الفتح الإسلامي

تاريخ الفتوحات: وضع النبي ﷺ أساس السياسة الخارجيّة للعرب فأرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والإيمان برسالته، وحارب الغساسنة الخاضعين للروم على حدود بلاد الشام، لمّا سخروا من دعوته، واعتدوا على رسله، وقتلوا أصحابه.

وقد جهّز الرسول قبل وفاته حملة لغزو بلاد الشام، عقد لواءها لأسامة بن زيد بن حارثة، وكان أسامة حين استشهد أبوه في الخامسة عشرة من عمره، فما كاد يبلغ الثامنة عشرة، حتى رأى الرسول، تكريماً لذكرى أبيه، أن يعقد لابنه، ويسيّره لقتال الروم، ويؤدّبهم. ثمّ مرض الرسول وانتقل لجوار ربّه سنة ٦٣٢ ميلاديّة، فرأى أسامة أن ينزل عن إمرة الجيش، ليترك للخليفة الجديد حريّة الاختيار، ولكنّ أبا بكر خليفة رسول الله، أبى إلاّ ينفذ رغبة الرسول.

سيّر أبو بكر أسامة بن زيد إلى مشارف الشام، لأنّه رأى في ذلك مناورة حربيّة وسياسيّة تُشعر الأعداء في الداخل وفي الخارج بقوّة الحكومة العربيّة، وآنضوى العديد من المسلمين تحت لواء أسامة مجاهدين في سبيل الله، ومن بين هؤلاء عمر بن الخطّاب. وبعد شهرين، عاد الجيش سالماً منتصراً.

ولقد قابل أبو بكر فتنة الردّة بالحزم، فعاقب المرتدّين الذين عصوا أوامره. وبعد أن قمع الردّة، فأمن الإسلام في عقر داره، أتبع ذلك بأن دفع الخطر من هجوم الأعداء عليه، فسيّر البعوث إلى حدود العراق والشام، بهدف دفع الأذى وحماية الطريق والتمهيد لنشر الدين بالحسنى والبرهان إذا تيسّر ذلك، فإن قامت العقبة من قوّة طاغية تحول دون ذلك، عندها يحين وقتُ الحساب.

فتح العراق وزوال الدولة الساسانيّة

كان العرب يرون بلاد الفرس أصعب منالاً من بلاد الدولة البيزنطيّة. فلمّا اطمأنّ عمر من ناحية الروم بعد هزيمتهم في أجنادين سنة ١٥ هجرية وجّه همّه لغزو الفرس في العراق، فبعث رجلاً من كبار الصحابة، وهو سعد بن أبي وقاص على رأس جيش التقى مع جيوش يزدجرد، آخر ملوك الفرس، في العراق عند مدينة القادسيّة، ودارت الدائرة على الفرس، فقتل قائدهم رستم، وعدد كبير من جنده، وهرب الباقون، فتبعهم سعد إلى مدينة جلولاء سنة ١٦ هجرية وأوقع بهم وأسر إحدى بنات كسرى، وقتل عدداً كبيراً من الفرس. وكان من أثر فتح جلولاء أن اعتنق دهاقين (الفلاليج والنهرين وبابل) وغيرهم الإسلام، فأقرّهم عمر بن الخطاب على ما بأيديهم من البلاد ورفع عنهم الجزية.

عند ذلك كتب سعد إلى عمر يبشّره بالفتح، فكتب إليه أن يقنع بهذا فاتخذ سعد مدينة الكوفة، وأسّس فيها المسجد الجامع، واختطّ الناس المنازل بها، وأصبحت من حواضر المسلمين الهامة. ثمّ توغل سعد بن أبي وقّاص في بلاد العراق، واستولى على المدائن الواقعة على نهر دجلة وكانت حاضرة بلاد الفرس، بعد أن حاصرها شهرين، وغنم العرب منها غنائم كثيرة من بينها بساط كسرى.

وتابع العرب فتوحهم في بلاد الفرس حتى استولوا على قم وقاشان سنة ٢٢ هجرية. بعد أن استولوا على نهاوند سنة ٢١ هجرية ولم تتوطّد أقدام العرب في بلاد الفرس إلاّ بعد أن قتلوا يزدجرد الثالث، الذي كان قد فرّ إلى خراسان سنة ٣١ هجرية. وفي أيّام الخليفة زالت الدولة الساسانيّة وتحقّقت دعوة النبي بتمزيق مملكة الفرس.

ولم تقتصر أعمال العرب على الحرب والفتح فحسب، بل إنّهم أعادوا الأمن والنظام إلى البلاد وقاموا بإصلاحات عظيمة فنظّموا الإدارة، ونصبوا القضاة، ورسموا خطّة جباية الخراج، وعنوا عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الريّ وإنشاء الأحواض، والقناطر والجسور.

انهيار الخلافة الأموية: بدأت الخلافة الأموية، التي كان مركزها الشام،

مرحلة انحطاط انتهت إلى الانهيار وصرفوا همومهم في الصيد ومعاقرة الخمر والانغماس في اللهو. وعلى الرغم من الروابط التي أوجدها الإسلام بين أجزاء العالم الإسلامي فإنّ الخلاف بين القيسيّة واليمنيّة قوي جداً، فانتقل العداء إلى أنحاء العالم الإسلامي ممّا أضعف الدولة وساعد في سقوطها.

أمّا أتباع الشيعة الناقمون على الأمويين فإنّهم لم يضعفوا، على رغم ما لحق بهم من ضربات، ولم ينسوا ما حلّ بأئمتهم ولا سيما الحسين بن علي في كربلاء، وكانوا قد انقسموا فرقاً وبعضهم كان يدعو لعبدالله بن حسن بن الحسين بن علي. لذلك رأى العبّاسيون ضرورة التفاهم معهم لتوحيد الدعوة، فراحوا بعدما قويت شوكتهم وكثر أتباعهم يعلنون حقّهم في الخلافة على أساس أنهم أقرب إلى الرسول من بني أميّة. وقاد أبو العبّاس جموع الثائرين على بني أميّة وفي عام ٧٤٧ ميلاديّة دخل أبو مسلم الخراساني، وهو مولى فارسي كوفي النشأة مدينة «مَرو» عنوةً ورفع الراية السوداء التي أصبحت شعار الدولة العبّاسيّة. وبعد سقوط «مرو» عاصمة خراسان سقطت مدينة الكوفة سنة ٧٤٩م، وفي مسجدها بايع الناس أبا العبّاس، فنودي به خليفة. وأراد مروان بن محمّد الأموي أن يقف في وجه المدّ العبّاسي، فسار على رأس اثني عشر ألف محارب، والتقى، في مطلع عام ٧٥٠م الجيوش العبّاسيّة بقيادة عبدالله عم الخليفة الجديد، قرب نهر الزاب، فدُحر الأمويّون وشُتّتوا. وأكمل العبّاسيون سيرهم باتجاه دمشق وفتحوها بالقوّة، وفرّ مروان بن محمد إلى مصر، ولكنّ العبّاسيين تعقّبوه وقبضوا عليه وقتلوه. وبذلك انتهى حكم بني أميّة وبدأ حكم بني العبّاس، وانتقل مقرّ الخلافة من الشام إلى العراق.

الخلافة العبّاسيّة: امتدّت الخلافة العبّاسيّة إلى خمسة قرون (٦٥٦م ـ ١٢٥٨م) خضعت فيها البلاد لعوامل وأحداث سياسيّة واجتماعيّة عديدة. وقد اتفق المؤرّخون على تقسيم تلك المرحلة إلى أربعة عصور:

١ ـ العصر العبّاسي الأوّل: (٧٥٠م ـ ٨٤٧م):

تتابع على الحكم فيه سبعة خلفاء وقد سمّي بعصر القوّة بالرغم من سيطرة النفوذ الفارسي في أوّل العهد.

٢ ـ العصر العبّاسي الثاني: (٨٤٧م ـ ٩٤٥م):

وهذا العصر غلب عليه النفوذ التركي، وخلافاً للعصر الأوّل، بدأت تبرز علامات الضعف في الدولة العبّاسيّة.

٣ ـ العصر العبّاسي الثالث: (٩٤٥م ـ ١٠٥٥م):

سمّي بعصر الدويلات التي قامت في أنحاء البلاد وكانت مستقلّة عن الحكم المركزي بعدّة أمور ولقد غلب النفوذ البويهي على هذا العصر.

٤ ـ العصر العبّاسي الرابع: (١٠٥٥م ـ ١٢٥٨م):

ويعتبر عصر الانهيار الذي معه انتهت الدولة العبّاسية. ولقد سيطر عليه النفوذ السلجوقي....

بغداد عاصمة الدولة العبّاسيّة

رأى العبّاسيون أن يتخذوا من العراق موئلاً لخلافتهم فاتخذ أبو العبّاس السفّاح الهاشميّة مقرّاً للدولة، ولم يلبث أبو جعفر المنصور أن اختار مدينة صغيرة على الضفّة الغربيّة لدجلة، لتكون حاضرة الخلافة، وهي بغداد. وكلمة بغداد فارسيّة الأصل مكوّنة من لفظتين، باغ وتغني بالفارسيّة بستان وداد بمعنى يعطي، كناية عن الله، أي هي بستان الله. ولقد سمّاها الخليفة المنصور مدينة السلام أو دار السلام، وفي هذا الاسم إشارة إلى الجنّة، وقد استعمل هذا الاسم فقط في الشؤون الرسميّة، ولكنّ الناس فضّلوا اسم بغداد.

● **هندسة المدينة:** أمر أبو جعفر المنصور بإحضار المهندسين، والبنّائين والفعلة والصنّاع من النجارين، والحدّادين والحفّارين من الشام والموصل والبصرة والكوفة وبلاد الديلم، وقد بلغ عددهم حوالي المائة ألف رجل، ولقد وضع حجر الأساس في احتفال كبير حضره رجال الدولة العبّاسيّة من الأمراء والوزراء والعلماء والقوّاد والأعيان وكان ذلك في سنة ١٤٥ هجرية.

لقد جعل المنصور مدينة بغداد مدوّرة، وبنى داره وجامعه في وسطها

حتى لا يكون أحد أقرب إليه من الآخر، وهو نوع جديد من بناء المدن عند المسلمين، وبالقرب من القصر بنى داراً للحرس من ناحية باب الشام، وسقيفة كبيرة ممتدّة على عمد، مبنيّة بالآجر والجصّ، خصّ إحداها لصاحب الشرطة والأخرى لصاحب الحرس، وأقام حول ذلك منازل أولاده الصغار ومن يقوم بشؤونهم من الخدم والعبيد، واتخذ حول ذلك قصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة ومطبخ العامة. ولقد بنى البناؤون حول الدواوين دور الأهالي تتخللها الأسواق، وجعل للمدينة شوارع رئيسيّة أربعة تتفرّع منها شوارع أخرى.

أسوار بغداد وأبوابها: أمر الخليفة المنصور أن يبنى لمدينة بغداد سوران: سور داخلي وسور خارجي عرضه كعرض السور الداخلي وليس عليه أبراج وحوله من الخارج خندق عَميق، تجري فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا، وبُنيت حافتاه بالجص والآجر، وفوقه ١٦٣ برجاً، وكان في السور الخارجي أربعة أبواب:

- باب الكوفة ويقع في الجنوب الغربي.
- باب البصرة ويقع في الجنوب الشرقي.
- باب خراسان ويقع في الشمال الشرقي، وكان على نهر دجلة ويوصل إلى قنطرة السفن الرئيسيّة وكان يسمّى باب الدولة لإقبال قوّة الدولة العبّاسيّة من خراسان.
- باب الشام ويقع في الشمال الغربي.

وكان قطر مدينة بغداد من باب خراسان إلى باب الكوفة ٢٢٠٠ ذراع ومن باب البصرة إلى باب الشام كذلك.

● **قصر الذهب**: بنى الخليفة أبو جعفر المنصور قصره الذي يطلق عليه اسم قصر الذهب، وبنى جامعه قبالته في وسط المدينة بغداد، ويعتبر قصر الذهب والجامع مركز الدائرة. ومنه تفرّعت الشوارع الرئيسيّة منظّمة حتى تنتهي إلى خارج المدينة. وقد أقيمت على جانبي هذه الشوارع الأبنية العالية، التي نسّقت تنسيقاً بديعاً وقد تشابهت في الشكل وهندسة البناء ولقد

بلغت مساحة القصر ١٦٠,٠٠٠ ذراع مربّع وبلغت مساحة الجامع ٤٠,٠٠٠ ذراع مربّع. وكان إذا وقف الإنسان في نهاية أحد شوارع بغداد، رأى قصر الخليفة بكل سهولة.

إزدهار بغداد وضواحيها: أسهب المؤرخون في الكلام عن سكك بغداد وأسواقها، وقبابها، وجوامعها. فلقد تطلّب بناء بغداد كثيراً من النفقات لأن الخليفة المنصور عمل على تحصينها تحصيناً منيعاً لتحاكي الحواضر الكبيرة، وخاصة القسطنطينيّة عاصمة الروم، وقد بلغت نفقات المدينة بكاملها ١٨ مليون دينار من الذهب على رواية الطبري. وقد بقيت على حالها إلى سنة ٦٥٦ هجرية حين خرّبها التتار بقيادة هولاكو.

سكك بغداد (أزقتها) ودروبها عديدة وقد بلغت ستة آلاف، منها سكة الشرطة وسكّة المطبق وسكّة الربيع وسكّة المؤذنين. كما بلغ عدد الحمّامات العشرة آلاف والمساجد الثلاثين ألفاً. ولقد ازدهرت أيضاً ضواحي بغداد التي قسّمت إلى أقسام وأقيم في كل قسم سوقاً والشوارع والمباني كانت منتظمة سمّيت باسم القائد الذي يقيم فيها.

لقد أصبحت بغداد أم المدن في الشرق في ذلك العصر وبلغ عدد سكّانها مليوني نسمة، وازدهرت فيها الفنون بكل أنواعها ومنها انتشرت إلى أنحاء العالم الإسلامي آنذاك ولقد توسّعت المدينة ببناء الكرخ والرصافة المتاخمين لها:

١ ـ **بناء الكرخ:** تقع مدينة الكرخ غربي المدينة المدوّرة بغداد وقد قام الخليفة المنصور بتصميمها وأصبحت مركزاً هاماً للصناعة والتجارة وعندما اتسعت مدينة بغداد أصبحت الكرخ في وسطها.

٢ ـ **الرصافة:** تقع الرصافة في الجهة الشرقيّة من دجلة المقابلة لمدينة بغداد وبنى لها المنصور سوراً، وحفر حولها خندقاً وجعل فيها ميداناً فسيحاً ومسجداً وبستاناً وأجرى الماء فيها، فتمّ لك في خلافة ابنه المهدي سنة ١٥٩هـ وسرعان ما عمرت الرصافة فظهرت فيها الحدائق والمنتزهات والميادين والمباني الفخمة. كما تجلّت فيها مظاهر الخلاعة والملاهي.

ضعف الدولة العبّاسيّة ونشوء الدويلات

استقرّت الدولة العبّاسية بمؤسساتها في العراق خاصة في بغداد العاصمة وكان الحكم المطلق للخليفة الذي يمثل الإسلام كدين ودولة. ولكن خلال الحقبة التي استغرقتها الخلافة العبّاسيّة التي امتدّت إلى خمسة قرون قام عدد من الدول التي استقلّت جزئياً أو كلياً عن بغداد ومن أهمّها:

١ ـ **الدولة العقاريّة**: بسطت سلطتها على خراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان قد أسّسها يعقوب بن الليث.

٢ ـ **الدولة السامانيّة**: التي ظلّت قائمة أكثر من قرن ونصف القرن، وقد بسطت سلطتها على سمرقند وفرغانة.

٣ ـ **الدولة الغَزَنوية**: في شمالي الهند، وقد ضُمّ إليها إقليم البنجاب ومدينة لاهور التي صارت نواة الدولة الباكستانيّة.

٤ ـ **الدولة البويهيّة**: كانت تقع هذه الدولة بين همذان وأصفهان وسيطر أحمد معزّ على خوزستان كما أشرف على العراق. ولمّا دبّت الفوضى في العراق استنجد الناس بأحمد بن بويه فدخل بجيشه بغداد وأزال نفوذ الأتراك واستقرّت البلاد في ظلّ البويهيين على الرغم من أنّ الخليفة لم يكن له سوى الاسم.

ولقد استطاع عضد الدولة بن الحسن بن بويه أن يتفوّق على إخوته وأبناء عمومته فوحّد فارس والعراق تحت سلطته وحسّن علاقته بالخليفة. وفي عهد عضد الدولة ازدهرت البلاد، فأنشئت الجسور وأصلحت الطرق ونشطت الحركة الفكرية خاصة في بغداد.

٥ ـ **دولة الأغالبة**: في ولاية أفريقيا، وعاصمتها القيروان، وكانت على علاقة جيّدة مع العباسيين في بغداد تؤمّن لهم الأموال وقد أعلنت الولاء لهم.

٦ ـ **دولة الأدارسة:** استقلّت هذه الدولة استقلالاً تاماً وبسطت سلطتها على المغرب وجعلت عاصمتها فاس.

٧ ـ **الدولة الحمدانيّة:** وعاصمتها حلب، كانت بمثابة قوة داعمة للخلافة العبّاسيّة. من أشهر رجالها سيف الدولة والشاعر أبو فراس الحمداني.

٨ ـ **الدولة الطولونيّة:** في مصر، ولقد قضى العبّاسيون عليها سنة ٩٠٥م بعدما حاول الطولونيون التوسّع.

٩ ـ **الدولة الأخشيديّة:** حاول الخليفة العبّاسي الراضي بالله أن يعيّن رجلاً قوياً من قبله ليتولى شؤون مصر بعد انهزام الطولونيين، لكي تبقى هذه المنطقة تحت قبضة العبّاسيين وهكذا تمّ اختيار الأخشيد، الذي بدوره حاول بسط سلطته على مصر والشام والاستقلال عن العبّاسيين، وبعد موت الأخشيد أعلن كافور نفسه والياً على مصر من قبل الخليفة وانتهت الدولة الأخشيديّة بعد وفاته سنة ٩٦٨، وذلك على يد الخليفة الفاطمي.

١٠ ـ **الدولة الفاطميّة:** اعتبرت دولة مستقلّة، وقد تنقّل الفاطميون في عدّة عواصم. مؤسِّس هذه الدولة ابن زكريا المعروف بالمعلِّم.

١١ ـ **الدولة السلجوقيّة:** لقد توسع السلاجقة، الذين هم في الأصل قبائل من تركستان، في فارس والعراق وآسيا الصغرى وقد استعان الخليفة العبّاسي بالسلاجقة للقضاء على البويهيين. ولقد عُرِف العصر العبّاسي الرابع بسيطرة النفوذ السلجوقي على المنطقة والعراق بالتحديد مقرّ الخلافة العبّاسية، فبعد أن ساعد السلاجقة العبّاسيين للقضاء على البويهيين، دخل قائدهم طغرلبك العاصمة بغداد. وفي الوقت الذي انشغل فيه السلاجقة بأمورهم الداخليّة دخل البساسيري وهو قائد بويهي، مدينة بغداد وذلك بمعاونة الفاطميين ونشر الأعلام الفاطمية فما كان إلاّ أن عاد طغرلبك إلى بغداد وقتل البساسيري.

وبعد موت طغرلبك، تولى الحكم ابن أخيه المدعو ألب أرسلان

فسيطر على حلب والشام وفلسطين. وبعد موته، خلفه ابنه ملكشاه فقاد من جديد حرب السلاجقة ضدّ الفاطميين في الشام فغلبهم وتوسّعت سلطة السلاجقة إلى فارس والعراق وأفغانستان وآسيا الصغرى عدا عن بلاد الشام.

وفي عصر السلاجقة، ازدهرت الحركة العلميّة، وفي عهد ملكشاه اشتهر الشاعر عمر الخيّام، برباعياته التي نقلت إلى العربيّة شعراً ونثراً، والوزير نظام الملك الذي أسّس المدارس النظاميّة في بغداد، ونيسابور وبلخ والموصل ومرو. ولكن بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ١٠٩٢م تولّى ابنه السلطنة فاختلف مع أعمامه وإخوته ممّا أضعف الدولة وهكذا انتهت الدولة السلجوقيّة سنة ١١٥٧م.

إذاً، لقد استلم خلفاء بني العبّاس من الناحية السياسيّة امبراطوريّة إسلاميّة تشمل المسلمين كافة ثمّ انتهى العصر العبّاسي الأوّل. وكانت هناك خلافة عبّاسية في بغداد كعاصمة وكمركز ذات أهمية حضاريّة ولكن كان هناك دول استقلّت عنها كلياً أو جزئياً وفي الحالتين بقيت على علاقةٍ معها، وهذه الدول أضعفت نوعاً ما الخلافة العبّاسية المركزية وفكّكت أواصرها.

السياسة العبّاسية

إتصفت سياسة بني العبّاس بالسياسة الدينيّة، فلقد كان الدين هو الدستور وأساس العمل السياسي والإداري، وإنّ هذه السياسة الإسلاميّة فرضت نفسها منذ أواخر العهد الأموي ولكنّها ازدهرت في العصر العبّاسي. وكانت السياسة العبّاسيّة الدينيّة ذات هدف سياسي وهو دعم نظام الحكم وقد استخدموا كل الأعمال الدينية للوصول إلى ذلك من جهاد وحجٍ ونشرٍ للإسلام.

ولقد تعاون العبّاسيون مع الشعوب غير العربيّة من أنباط العراق والشام والإيرانيين والترك، وهذا ما يدعم نظريتهم الهادفة إلى جعل الخلافة الصورة السياسيّة للدين الإسلامي. ويعتبر الخليفة أبو جعفر المنصور من واضعي خطوط هذه السياسة، ومن منطلقاتها مثلاً «تقديس» منصب «الخليفة» لأنَّ سلطته مستمدّة من الله، وهو عادل وهو حكيم، ولأن الخليفة العبّاسي هو الأقرب إلى سلالة النبي ﷺ. وأبدى الخلفاء العبّاسيّون اهتماماً خاصاً بأهل الحرمين ليضمنوا ولاءهم لهم.

ولقد تمّ أيضاً نشر الدين الإسلامي في العصر العبّاسي الأوّل وفي العصر الثاني، في مصر وإيران وبين الترك وفي السند، فقويت الدولة العبّاسية. ثمّ نظّم العبّاسيون الأوائل حملات الجهاد، خاصةً ضدّ الروم.

أمّا فيما يتعلّق **بالسياسة الخارجيّة**: فلقد مارس العبّاسيّون سياسة الدولة الأقوى وحاولوا دائماً فرض النفوذ بالقوّة العسكريّة، وقد لجأوا أحياناً إلى استخدام الوسائل الدبلوماسيّة من سفراء ومراسلات عندما تعذّر نجاح القوّة.

وفي العهد العبّاسي الأوّل نظّمت وسجّلت، لأوَل مرّة في التاريخ، قواعد القانون الدولي على الأساس الإسلامي، وكان المسلمون منذ الفتح

ينظّمون ذلك حسب أوامر الدين ونصوص العهود والهدنة، مع البلاد المفتوحة. وهكذا استطاعت الدولة العبّاسيّة أن تسترد بسرعة مركزها العالمي.

وكانت علاقاتهم مع الروم هي الأصعب والأقسى، وكانت جبهة الروم تسخن أو تبرد حسب الظروف المتقلّبة في كلّ من العاصمتين: بغداد من جهة، والقسطنطينيّة من الجهّة الأخرى. وبالرغم من كل ذلك كان هنالك تبادلٌ ثقافي على المستوى العلمي والأدبي بين الروم والعبّاسيين.

ونظرت الخلافة العبّاسيّة إلى البحر المتوسط على أنّه الحدود لعالمها؛ فلقد كانت شواطىء الشام ومصر بالنسبة إلى بغداد نهايات ينبغي حمايتها وليس الإنطلاق منها للمزيد من الفتوحات. ولكن قامت الدولة العبّاسيّة بعدّة عمليات عسكرية بحرية كانت نوعاً من إثبات الوجود في البحر المتوسط.

مشاكل الرعيّة: شهد العصر العبّاسي الأوّل والعصر الأموي قبله عدّة ثورات دينيّة إيرانيّة ـ فارسيّة مهّدت لفتنٍ محليّة ولانفصال أقاليم الدولة ولتحولها إلى الحكم الذاتي كما رأينا في بعض الدول المستقلّة عن بغداد. نذكر من الثورات الإيرانيّة، ثورة المازيار التي مثّلت ثورة الوعي الإيراني الديني ضدّ السلطان العبّاسي، وثورة أمراء الأفشين. والأفشين هو لقب كان يلقّب به أمراء أشروسنة قبل الإسلام. وفي فترة ٢١٨ هجرية إلى سنة ٢٤٧ هجرية، كانت نهاية عهد الثورات العقائديّة في زمن خلافة المعتصم خاصةً.

من ناحية ثانية، قامت ثورةٌ علوية واحدة حملت صفات الثورات العلوية الأولى فبينما كانت الدعوة العلويّة تأخذ مجارٍ سريّة أخرى، تمخّض عنها في العصر العبّاسي الثاني حركات انقلابيّة خطرة.

لقد ظهرت دولتا الخوارج في عهد المنصور والرشيد في أفريقيا وفي عمان، واستقلّت هاتان الدولتان عن الخلافة العبّاسيّة.

وفي العصر العبّاسي انتفضت أرمينيا عدّة مرّات وسُحقت ثوراتها في أغلب الأحيان، وكانت الأسباب إقليميّة بسبب الحدود المتاخمة للامتداد العبّاسي. وكانت هذه المملكة الأرمينيّة تشكّل عازلاً بين دولتين كبيرتين هما

الدولة البيزنطيّة من جهة والدولة العبّاسيّة من جهة أخرى.

واستمرّت الشام مهملة من الخلفاء العبّاسيين فكثرت ثوراتها، ولا سيما في حمص ودمشق، وحاول الخليفة المأمون أن يزيل العوامل الأساسيّة لتذمّر هذه المناطق ولكن محاولاته باءت بالفشل، فلقد قامت ثورات في دمشق وجنوب الشام، أي في الأردن والغور حتى الرملة في قلب فلسطين.

الخلفاء العبّاسيّون

تعاقب على الحكم خلال العصور العبّاسيّة الأربعة عدّة خلفاء من أشهرهم:

١ ـ **أبو العبّاس السفّاح**: هو أبو العبّاس عبدالله بن محمّد بن علي بن عبدالله بن عبّاس، تولّى الخلافة لمدّة أربع سنوات (١٣٢ ـ ١٣٦ هجرية) (٧٤٩ ـ ٧٥٣ ميلاديّة) هو أوّل خليفة عبّاسي، في عهد لم تستطع الدولة الجديدة أن تبسط نفوذها على كل البلاد التي كانت خاضعة في السابق لبني أميّة. لذلك لجأ إلى القسوة لإثبات الوجود ولتركيز دعائم الخلافة فلُقِّب بالسفاح كما لقّب هو نفسه في أوّل خطبة له: «يا أهل الكوفة أنتم أهل محبتنا ومنزل مودّتنا. . . فاستعدّوا فأنا السفّاح المبيح والثائر المبير». ولقد أكثر من تقتيل بني أميّة على أيدي أعمامه: عبدالله بن علي في الشام وسليمان بن علي في البصرة وداود بن علي بن الحجاز واليمن، وصالح بن علي في مصر وإسماعيل بن علي في الأهواز. وفي العصر العبّاسي الأوّل، عندما تعاظم النفوذ الفارسي على حساب النفوذ العربي، قامت عدّة ثورات في فلسطين، وفي الشام، وفي شمالي العراق. ولكن استطاع العبّاسيون أن يقضوا عليها جميعها.

ونقل الخليفة أبو العبّاس السفّاح الخلافة من الكوفة التي كثر فيها اتباع لأبناء علي، إلى الأنبار وشيّد بجوارها قصراً وأقام فيه حتى وفاته سنة ١٣٦ هجرية أي ٧٥٤م.

٢ ـ **أبو جعفر المنصور**: هو من أشهر الخلفاء العبّاسيين، فقد استمرّ

حكمه اثنين وعشرين عاماً وتميّز بالإنجازات الكبيرة. استطاع أن يوطّد حكمهُ فقضى على كل عدو وعلى كل من ادعى الخلافة لنفسه. فعندما ثار عليه عمّه عبدالله، أرسل إليه أبا مسلم الخراساني فهزمه وشعر هذا الأخير بقوّته، فقضى عليه المنصور. ولكنّ مقتل الخراساني أثار غضب العديد من العبّاسيين الذين كانوا يعتبرون أنّ له الفضل في تركيز دعائم الدولة العبّاسيّة. وقامت حركات مناهضة للعبّاسيين والمسلمين تزعّمها أتباع أبو مسلم الخراساني. وبعد مدّة طالب محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، المعروف بالنفس الزكيّة، بالخلافة لنفسه في المدينة، فأرسل المنصور جيشاً قوياً فحاصر المدينة وقتل محمد النفس الزكيّة، ثمّ حارب شقيقه إبراهيم بعدما بايعه أهلها، وقتله فخاف الأخ الثالث إدريس بن عبدالله فهرب إلى المغرب الأقصى وأسّس هناك دولة الأدارسة.

طمح المنصور إلى التوسّع نحو أفريقيا والأندلس، ولكنه لم يستطع الوصول أبعد من القيروان لذلك توقّف عند هذا الحدّ وأيّد عبدالرحمن بن معاوية الذي أسّس دولته في الأندلس ولقبّه بصقر قريش.

بعد أن حاول البيزنطيّون دخول عدّة مناطق يسيطر عليها العبّاسيّون، انقضّ عليهم المنصور بجيشه القوي وتوغّل في أراضيهم سنة ١٥٥ هجرية ـ ٧٧٢ ميلاديّة.

بعد أن أقام المنصور عدّة سنوات في «المدائن» اختار بغداد وجعلها عاصمة الدولة العبّاسيّة وقد عرفت بغداد «بمدينة المنصور» و«المدينة المدوّرة»، بالنسبة إلى شكلها، وبمدينة السلام.

٣ ـ محمد المهدي: في عهد المهدي عمّ الرخاء المجتمع العبّاسي، فلقد اكتسب الكثير من العادات الفارسيّة، وتميّزت هذه الفترة بحياة الترف والرخاء، فانتشر الغناء وراج شرب الخمر.

وكان الخليفة المهدي متسامحاً، أطلق المساجين العلويين، وردّ الأموال المصادرة، ووجّه اهتمامه إلى مكّة والمدينة اللتين أهملهما معظم

الخلفاء ووزّع الهبات على أبناء الحجاز، فاسترضى جميع الناقمين على الدولة العبّاسيّة.

بالمقابل ظلّت العداوة قائمة بين المهدي والبيزنطيين فحاربهم بجميع الوسائل البريّة والبحرية. وأجرى اتصالات مع الملك الفرنسي شارلمان بهدف القضاء على أمير الأندلس عبدالرحمن بن معاوية. ولقد أوصى المهدي بالخلافة لابنه الهادي ومن بعده لهارون الرشيد.

٤ ـ **موسى الهادي**: حكم مدّة سنة وشهرين. تبع سياسة التسامح التي انتهجها والده المهدي خاصة مع العلويين، ولكنه بالمقابل ضيّق عليهم المراقبة لأنه لم ينسَ مطالبتهم بالخلافة وقضى على كل محاولة ثورة.

٥ ـ **هارون الرشيد**: شخصيّة مميّزة في العصر العبّاسي، تناقضت الأخبار حول شخصيته، فمنهم من وصفه بالتديّن بحجّة أنه كان يواظب على الصلاة ويحجّ ويتصدّق على الفقراء ومنهم من وصفه بالماجن، يسمع الغناء ويحضر مجالس اللهو.

سلّم هارون الرشيد شؤون الوزارة إلى بعض البرامكة، وهم في الأصل من المجوس الذي لبّوا الدعوة الإسلاميّة وأصبحوا مقرّبين من الخلفاء. فلقد جعل المنصور ناصر خالد بن برمك والياً على بلاد فارس والموصل، وابنه يحيي علي على أذربيجان وبدوره عيّن محمّد المهدي يحيي بن خالد كاتبه ووزيره، لذلك رافق ابنه الرشيد في غزواته ونادمه في مجالسه. وقدّم أولاد يحيي بن خالد الأربعة خدمات كبيرة لهارون الرشيد الخليفة ولكن سرعان ما تخلّى هو عنهم، ربّما لأن البرامكة استطاعوا أن يعتلوا أهمّ المراكز في الدولة العبّاسيّة وازدادت نفوذهم وشهرتهم. وهناك قصة خاصة بالعبّاسية أخت الرشيد التي أحبّت جعفر بن يحيي وتزوجته فغضب الخليفة هارون الرشيد على كل البرامكة وفتك بهم الواحد تلوَ الآخر.

واستمرّ الرشيد في سياسة العداء للبيزنطيين.

٦ ـ **محمّد الأمين**: كان قد أوصى هارون الرشيد بالخلافة لابنه الأمين، حتى يستطيع ابنه الثاني المأمون أن يهتمّ بشؤون خراسان. فوالدته

كانت فارسية وأمّ الأمين كانت عربية. ونشأت خلافات عديدة بين الأخوين، فبعد أن حاول الأمين إخضاع أخيه لطاعته تمرّد هذا الأخير وأعدّ جيشاً وحاصر به بغداد، فقتل قائدا الجيش الأمين.

٧ ـ **عبدالله المأمون**: هو ابن هارون الرشيد، ازدهرت في عهده الحركة الفكرية. فلقد اهتمّ بالعلم والفلسفة، فشهدت بغداد عصرها الذهبي، وبنى فيها بيت الحكمة، وكرّم الأدباء والمفكرين والعلماء كما نشطت في أيّامه حركة النقل وظهرت تيّارات فلسفيّة دينيّة.

في الفترة الأولى من عهده، بقي المأمون بعيداً عن العاصمة بغداد لأسباب مجهولة، بعد أن كلّف وزيره الفضل بن سهل إدارة الخلافة كما ولّى المأمون الحسن بن سهل على العراق، وقامت عدّة ثورات في عهد المأمون. أوّلها كانت الثورة في الكوفة والتي تزعّمها الشيباني فهزم جيش الحسن بن سهل ودخل البصرة والكوفة، ثمّ ما لبث أن انهزم على يد هذا الأخير فقبض عليه وقتله سنة ٨١٥م.

والثورة الثانية قامت في الحجاز بقيادة أحد أحفاد الإمام علي، وبعد أن نجحت في طرد والي العبّاسيين سحقها جيش الخليفة الذي أرسله هرثمة بن أعين، كما قُضي أيضاً على الثورة التي قامت في اليمن بقيادة إبراهيم بن موسى بن جعفر.

في سنة ٨١٧م، بعد أن جعل المأمون ولاية العهد في الإمام العلوي علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وقتل قائده هرثمة بن أعين، تجمّع البغداديّون وخلعوا المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي، فتوجّه المأمون نحو بغداد بعد أن قتل الفضل بن سهل الذي خدعه وخانه، وقبل وصوله إلى بغداد، كان قد توفي الإمام علي الرضا.

أمّا الثورة الثالثة والمهمّة في عهد المأمون، فهي ثورة «الزط»، وهم خليط من الشعوب التي كانت تعيش في شمالي غرب الهند وبعض مناطق الشرق الأقصى ثمّ انتقلوا إلى الخليج العربي، وحياتهم أشبه بحياة الغجر. وعندما وقعت الخلافات بين الأمين والمأمون دخلوا إلى البصرة وخرّبوا فيها

ما استطاعوا. عندئذٍ حاول المأمون القضاء عليهم ولكنه لم ينجح لأنهم كانوا يهربون إلى القفار كلّما شعروا بالخطر ليعودوا إلى التجمع بعد زواله. واستمرّ «الزط» في تمرّدهم ومشاغباتهم في عهد المعتصم واستطاع أخيراً بعد عدّة محاولات القضاء عليهم فنزحوا إلى شمال البلاد فأسرهم البيزنطيون ونشروهم في مناطق أوروبا، ولا سيما هنغاريا وإسبانيا.

ومع ازدياد نفوذ الفرس في العراق، تغلّب نصر بن شبث من بني عقيل على شمال الشام، فأرسل المأمون طاهر بن الحسين للقضاء عليه ففشل، وعندما انتقل المأمون إلى بغداد، أرسل من جديد عبدالله بن طاهر فمضى وحاصره بن الحسين فمضى وحاصره وأجبره على الاستسلام سنة ٨٢٥م.

أمّا ثورة بابك الحزمي في بلاد فارس فقد بدأت في عهد المأمون وانتهت في عهد المعتصم الذي قتله صلباً سنة ٨٣١م. وكان بابك زعيم الفرقة الحزميّة التي أباحت النساء وسائر المحرّمات.

ولقد قام المأمون بعدّة حملات ضدّ البيزنطيين، ولكنّه أصيب بالحمّى في إحدى غزواته وتوفي سنة ٨٣٣م.

٨ ـ **محمد المعتصم بالله**: قوي النفوذ التركي في عهد المعتصم، فجعل القسم الأكبر من الجيش من الأتراك، فغضب الشعب فاضطرّ الخليفة إلى البحث عن مقرّ جديد له ولحاشيته، فاختار مدينة «سامراء» التي تبعد ٦٠ ميلاً عن بغداد. ومن أهمّ القادة الأتراك كان «الأفشين» الذي قضى على بابك الحزمي الثائر فكرّمه المعتصم في بادىء الأمر، ولمّا شكّ في إخلاصه قتله.

حارب المعتصم الروم؛ فعندما هاجم الإمبراطور «تيوفيل» مدينة زبطرة ودمّرها، ثمّ أغار على ملطيّة وقتل العديد من المسلمين، جهّز المعتصم جيشاً كبيراً وقصد مدينة مهمّة جداً بالنسبة للروم، وهي عمّوريّة، فحاصرها واقتحمها وانتقم للمسلمين وعاد إلى بلاده منتصراً.

٩ ـ **هارون الواثق بالله**: بقي النفوذ التركي كبيراً في عهده وتسلّم «أشناس» السلطة الفعليّة منه. ولقد قضى الواثق على ثورة القيسيين في دمشق

ولمّا ثار بنو سليم في الحجاز وجّه الخليفة القائد التركي «بُغا» فأوقع بهم واستطاع أن يفرض سلطة الخلافة في الجزيرة العربيّة.

ولم يُخف الخليفة الواثق تعصّبه للمعتزلة، شأنه شأن والده المعتصم وعمّه المأمون.

١٠ ـ **جعفر المتوكل على الله:** في أيّام المتوكل شهدت البلاد اضطرابات كثيرة وحركات انفصاليّة في أرمينيا وصنعاء وأذربيجان وسواها. وحارب المتوكل الذي تسلّم الخلافة بعد أخيه الواثق سنة ٨٤٨م، البيزنطيين فكرّر الغزوات على بلادهم، كما أغاروا هم على المناطق الإسلاميّة. وبعد أن قوي نفوذ الأتراك، حاول الخليفة المتوكل القضاء عليهم فقتل بعض قادتهم. كما عُرِف بكراهيته للعلويين، وقد تجرأ على هدم قبر الحسين بن علي في كربلاء واستقدم أبا الحسن علي الهادي بن محمّد الجواد وأجبره على الإقامة في سامراء مقر إقامته.

وحكم المتوكل مدّة خمس عشرة سنة تقريباً وعندما أبطل المناقشة في القرآن الكريم وخلقه، ارتاح الناس من المناقشات التي كانت تجري بين العلماء. وجعل المتوكل ولاية العهد لابنه المعتزّ ولكن المنتصر دبّر مؤامرة لاغتيال أبيه بمساعدة الأتراك سنة ٨٦١م. ومن الملاحظ أنّ الدولة بدأت تضعف في أيّامه فنستطيع أن نعتبر الخليفة الواثق آخر الخلفاء الأقوياء في الدولة العبّاسيّة.

١١ ـ **محمد المنتصر بالله:** تسلّم المنتصر الحكم بعد مقتل أبيه المتوكل لكنّه توفي بعد سنة من تسلّمه الخلافة، وكان قد قرّب إليه العلويين.

١٢ ـ **أحمد المستعين بالله:** في عهده، كان له الاسم كخليفة أمّا فعلياً فكان الحكم للأتراك، الذين اختلفوا فيما بينهم أمثال «وصيف» و «أشناس»، وأتامش و «باغر»، ثمّ بايع أتراك سامرّاء الخلافة للمعتزّ، فوقع الخلاف وقُتل المستعين واستلم الحكم المعتزّ بالله سنة ٨٦٦م.

١٣ ـ **محمّد المعتزّ بالله:** في عهده كان الأتراك أصحاب السلطة، وفي نهاية عهده الذي استمرّ ثلاث سنوات ثار عليه الجند وقتلوه سنة ٨٦٩م.

١٤ ـ محمد المهتدي بالله: في عهده قامت ثورات عديدة، منها ثورة أحمد بن عيسى في بلاد الشام فأخضعه المهتدي بعد فترة من الصراع، وثورة صاحب الزنج الذي بقي يهدّد الخلافة عشر سنوات، ونهب الأهواز والبصرة وواسط. وبالرغم من جميع المحاولات لم يستطع المهتدي القضاء أو التخلّص من الأتراك حتّى فتك به موسى بن بغا سنة ٨٧٠م.

١٥ ـ أحمد المعتمد على الله: استمرّ المعتمد في الخلافة حتّى موته سنة ٨٩٢م. وقد عاش حياة لهو وقد ترك لأخيه طلحة المعروف باسم الموفّق الحكم الفعلي للخلافة. وقد استطاع هذا الأخير القضاء على ثورة الزنج، وهم طائفة من العبيد الأفارقة، استقدموا للعمل فاستغلّ أوضاعهم علي بن محمد، وهو من أنسباء الإمام علي بن أبي طالب، واستمال قلوبهم، فعظم شأنه، وراح أتباعه يغزون المدن العبّاسيّة، فخاف الشعب منهم وخرج الموفّق أخو المعتمد لقتالهم سنة ٨٨١ وحاصر مدينتهم «المختارة» واقتحمها وتابع القتال حتى قضى عليهم سنة ٨٨٣ وقتل رئيسهم.

وفي عهد المعتمد توفي الإمام الحادي عشر في الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة، أبو محمد الحسن العسكري، وكان ولده محمد في الخامسة من عمره فدخل سرداباً في مدينة سامرّاء واختفى أثره. فأصبح الإمام الثاني عشر المنتظر. كما لجأ أئمّة الإسماعيليّة إلى التخفي ونشر دعوتهم المناهضة للعبّاسيين، وجعلوا قرية السلميّة قرب حمص مركزاً لهم، ومنهم سينطلق فريق باسم القرامطة الذين سيعيثون في الكوفة والعراق وبادية الشام. وفي سنة ٨٩٢م توفي الخليفة المعتمد.

١٦ ـ المعتضد بالله: كان المعتضد بالله شجاعاً قوياً قضى على تمرّد بني شيبان الثائرين في الجزيرة واقتحم قلعة مارين ثمّ هدمها بعد أن قبض على جدّ الأسرة الحمدانيّة الذي اختبأ فيها، كما استطاع المعتضد أن يردّ غارات القرامطة في البحرين والبصرة وسواحل فارس.

واهتمّ أيضاً المعتضد بإصلاح الإدارة ووفّق بين التقويمين الهلالي

والشمسي، ثمّ نقل مركز خلافته من سامرّاء إلى بغداد وتوفي سنة ٩٠٢م فخلفه ابنه أبو محمد المكتفي بالله.

١٧ ـ **المكتفي بالله**: كانت قد قويت الدولة العبّاسيّة في عهدي المعتمد والمعتضد، ولكن ما لبث أن عاد الضعف إلى جسمها من جديد في عهد المكتفي. فلقد أنزل القرامطة الهزيمة بقوات أحمد بن طولون تحت قيادة الحسين بن زكرويه المعروف بأبي الشامة فطارده المكتفي بالله، فهبّ والد زكرويه وأغار على قرى الشام كما هاجم الكوفة وخرّبها، فاضطرّ المكتفي بالله إلى تجهيز جيش استطاع قتل زكرويه وتفريق جماعته. وتوفي المكتفي سنة ٩٠٨م.

١٨ ـ **المقتدر بالله**: في عهده، تفشّت الفوضى وعمّ الخراب في البلاد، فلقد غزا القرامطة تحت قيادة أبو طاهر سليمان الجنابي البصرة فنهبوا وقتلوا ثمّ قبضوا على إحدى قوافل الحجّاج وتركوهم يموتون جوعاً وعطشاً. وأخيراً انتقلوا إلى الكوفة فدخلوها بعدما هزموا الجيش العبّاسي ونشروا الخراب في سائر المدن والقرى. وتجرأ أبو طاهر أن يغزوَ مكّة المكرّمة وأن يقتلع الحجر الأسود ولم يرجعه إلاّ بعد أن تدخّل عبيدالله المهدي مؤسّس الدولة الفاطميّة في أفريقيا.

وبسبب ضعف الدولة العبّاسيّة، غزا البيزنطيون مدينة «دبيل» في أرمينيا، وقضوا على فرقة إسلاميّة قرب طرسوس، وقتل المقتدر سنة ٩٣٢م. وبويع أخوه القاهر بالله.

١٩ ـ **القاهر بالله**: كان سفّاحاً، ظالماً فاتفق القادة على خلعه وسجنه حتى وفاته.

٢٠ ـ **الراضي بالله**: في عهده، قوي نفوذ الحنابلة، وعاد القرامطة إلى قطع سبل الحجّ، واستمرّ الفساد متفشياً، والرشاوى منتشرة، فكثر الخارجون عن طاعة الخليفة.

٢١ ـ **المتقي لله**: بعد وفاة الراضي سنة ٩٤٠م. بويع إبراهيم بن

المعتضد، المتقي لله، وكان حكمه سيئاً مثل من سبقه. ففي عهده دخل أبو الحسن البريدي بغداد على رأس جيش كبير من الأتراك والديلم واستولى على دار الخلافة التي تركها الخليفة المتقّي، ليعود إليها بعد ثلاثة أشهر. وكانت نهاية المتقي لله على يد الأتراك سنة ٩٤٤م.

٢٢ ـ **المستكفي بالله**: سلّم قادة بغداد من بني بويه المناصب الرفيعة وأعطاهم الألقاب الحسنة فغدر أحدهم به، وهو معزّ الدولة فسجنه وخلع عنه الخلافة.

٢٣ ـ **المطيع لله**: هو ابن عم المستكفي وقد امتدّت خلافته طويلاً وكان الأمر فيها لآل بويه، وفي عهده وقعت الخلافات بين الحمدانيين والبويهيين وفرض البويهيّون الضرائب الباهظة على الشعب وذلك لتأمين أجور الجند، فعمّ الفقر بغداد. كما وقع الخلاف بين الديلم والأتراك فاضطربت الحياة الاقتصاديّة، فتنازل الخليفة المطيع لابن الطالع.

٢٤ ـ **الطالع لله**: في عهده الذي استمرّ سبع عشرة سنة ازدادت حالة البلاد سوءاً. ووقع الخلاف بين السنّة والشيعة ودخل عضد الدولة البويهي بغداد وعزل القادة وتولّى السلطة. ثمّ قام بهاء الدولة وقبض على الخليفة وأهلكه سنة ٩٩١م.

٢٥ ـ **القادر بالله**: بقي في الخلافة مدّة أربعين سنة وكان الحكم في عهده بيد البويهيين.

٢٦ ـ **القائم بأمر الله**: في عهده أصبحت الدولة العبّاسيّة تحت حكم السلاجقة الذين اتصل بهم الخليفة للخلاص من البويهيين. ولقد تحوّلت بغداد العاصمة إلى مسرح للشغب والفوضى، وانحلّت الدولة انحلالاً تاماً.

سقوط الخلافة العبّاسيّة

ازداد النفوذ السلجوقي في الدولة العبّاسية، فطلب السلطان ملكشاه أن تكون الخلافة لابن بنت القائم بالله والتي تزوجها طغرلبك. ولكن ملكشاه

توفي فارتاحَ الخليفة العبّاسي المقتدي بالله وانقسم بعده البيت السلجوقي، ثمّ أقدم الخليفة العبّاسي المقتفي على طرد السلاجقة من بغداد واستولى جنده على العراق وعاد النفوذ الفعلي إلى العبّاسيين في عهد ابنه الخليفة المستنجد بالله.

وفي القرن الثالث عشر ميلادي، كان التتار أو المغول قد اكتسحوا الشرق تحت قيادة جنكيزخان. وعندما توفي تابع هولاكو مسيرته فقاد الجيوش نحو بغداد، فانتصروا على الجيش العبّاسي واقتحموا المدينة وأحرقوا بغداد وأعملوا السيف في الرقاب، وقبضوا على الخليفة العبّاسي فقتلوه، وكان ذلك سنة ١٢٥٨م.

يُعتبر العصر العبّاسي العصر الذهبي في تاريخ العرب والإسلام، ولكنّ المغول الذين سيطروا على بغداد دمّروا جميع المعالم الحضارية وسيستمرّ حكمهم حتى منتصف القرن السادس عشر، بعدها سيبقى الشرق بأكمله تقريباً تحت قبضة العثمانيين حتى التاريخ الحديث، تاريخ استقلال الشعوب العربيّة.

المؤسّسات العبّاسيّة

اتّبع العبّاسيّون في الحكم سياسة إسلاميّة مقابل السياسة العربيّة التي اتبعها الأمويون. وكان هذا يعني أنّ الدين كان الدستور والمصدر للعمل السياسي والإداري وأنّ شعوب الدولة الإسلاميّة، بما فيها العرب أضحت على مسافة واحدة، أو أضحت متساوية القرب والبعد سياسيّاً من الخلفاء. ومن أهمّ المؤسسات في الدولة العبّاسية:

١ ـ **الخلافة**: كانت الخلافة مؤسّسة دينيّة، لذا كان يترتب على الخليفة القيام بواجبات دينية محدّدة. وكان الخليفة هو رأس الدولة ومصدر جميع السلطات، يستعين بالوزراء الذين يفوّض إليهم السلطة المدنيّة، وبالقضاة لمعالجة الأمور الشرعيّة، وبأحد الأمراء ليقود الجيش.

ولأنّ الخليفة في الدولة العبّاسيّة هو ظلّ الله على الأرض، فقد أُحيط شخصه بهالة من القداسة واحتجب في غالب الأحيان عن رعيته. وكان كل شخص يدخل إلى الخليفة ينحني ويقبّل الأرض بين يديه. وتميّز خلفاء العصر العبّاسي الأول بالاستبداد بالحكم وبالنفوذ والقيادة، ثمّ بدأت سلطتهم تضعف مع حلول العصر العبّاسي الثاني إلى أن انحلّت دولتهم مع مجيء الأتراك والسلاجقة.

٢ ـ **الوزارة**: لم تكن الوزارة في العهد العبّاسي مستقرّة إذ لم تكن مؤسّسة رسمية وجزءاً محترم المكانة من نظام الحكم، بقدر ما كانت عملاً شخصياً سواء بالنسبة للخليفة، أو بالنسبة لمن يتولاها. ولهذا ظلّ تصادم السلطات بين الوزير والخليفة، واستمرّت النكبات. في الأصل، الوزارة منصبٌ فارسي، وتأتي مرتبة الوزير بعد الخليفة، وهو يساعده وينوب عنه أحياناً، في تعيين الولاة والإشراف على الضرائب، وقد يجمع في شخصه

السلطتين المدنيّة والحربيّة، كما يُعهد إليه بمصادرة أملاك من يُغضب الخليفة من الولاة والعمّال. وكانت الوزارة على نوعين: وزارة تفويض ووزارة تنفيذ، فالأولى هي أن يفوّض الخليفة تدبير الأمور إلى وزيره ما عدا تعيين الولاة، والثانية يؤدّي فيها الوزير أوامر الخليفة.

لكن، في نهاية العصر العبّاسي الأول، جرى تدهورٌ في تقاليد الوزارة، حين تولاها أناس لا معرفة لهم ولا ثقافة ولا إدارة، وقد تحدّدت سلطة الوزارة في نهاية هذه الفترة، وضعفت، نتيجة لتعاظم النفوذ التركي. وممّا يذكر، أنّ منصب الوزير قد أُلغي بعد خلافة المقتدر وقام مكانها منصب أمير الأمراء.

٣ ـ **الحجابة**: في زمن الخلفاء الراشدين، لم تُعرف الحجابة، لقرب الخلفاء من الناس واختلاطهم معهم. أمّا في زمن الأمويين فقد خاف الخلفاء على أنفسهم فابتعدوا عن الشعب، واتخذوا حُجّاباً لهم يقفون على أبوابهم تلافياً لازدحام الناس، وتحاشياً للخصومات. في بادىء الأمر، كانت مهمّة الحاجب الوقوف بباب الخليفة لإدخال الناس بحسب مقامهم وأهميّة أعمالهم. ثمّ عندما اتّسعت رقعة الدولة العبّاسيّة، أصبحت مهمّة الحاجب تقديم سفراء الدول والشخصيات المميّزة إلى الخليفة.

ومع مرور الزمن، ازداد نفوذ الحاجب، وصار يُستشار في أمور الدولة، فكان أصحاب الدواوين يرجعون إليه في تسيير أعمالهم. وقد أدّى بعض الحجّاب أدواراً خطيرة في الدولة.

٤ ـ **الدواوين**: من الدواوين التي عُرفت في العصر العبّاسي:

ـ **ديوان بيت المال**: وهو عصب الدولة فلقد كان ذا أهميّة كبرى في عهد الأمويين. وعند المسلمين مصادر دخل الدولة هي الزكاة، أي الضريبة الشرعيّة الوحيدة المطلوبة من المسلم، وكانت تجبى على الزرع والمواشي والتجارة، والمال وغيره ممّا كان يُجمع من المسلمين المؤمنين يوزّع على الفقراء والمحتاجين والأيتام والمساكين.

وكان هناك مصدر آخر لبيت المال وهو الفيء، أي المداخيل الواردة من الخارج على أنواعها، من متاجر غير المسلمين الواردة إلى بلاد الإسلام، ومن الفيء تدفع أجور أفراد الجيش ومستلزماته وتبنى المساجد، وتقام الجسور وتدفع سائر نفقات الدولة.

ـ **ديوان البريد**: كان دوره مهماً جداً، ولقد عُرِف هذا الديوان من أيّام الخليفة معاوية في العهد الأموي. والقائم عليه عُرِف بصاحب البريد. وكان للبريد طرق تربط العواصم بعضها ببعض، وعلى هذه الطرق تسير دواب البريد، من خيل وجمال وبغال. كما يقال أنّ الحمام الزاجل لعب دوراً مهماً في نقل الأخبار.

ومن مهام صاحب البريد أيضاً تتبّع أخبار الدولة وأحداثها كما كانت ترد إليه تقارير عن سلوك الموظفين والولاة، ودوره دور رجل المخابرات إذ يبثّ الجواسيس في كل مكان لملاحقة الأحداث والأشخاص.

وجدير بالذكر أنَّ الخليفة الرشيد هو الذي نظّم ديوان البريد مع مستشاره يحيى البرمكي.

ديوان الشرطة: والقائم عليه يعرف باسم صاحب الشرطة، فكان يهتمّ بالسهر على الأمن وأحوال الأخلاق والأسواق، ومنع المنكرات، كما هو مكلّف بمراقبة الموازين والمكاييل.

وكان هنالك عدّة دواوين أخرى عرفها العصر العبّاسي منها ديوان الجيش وديوان الرسائل وديوان الخاتم...

٥ ـ **الولاية**: لقد توسّعت الدولة العبّاسية جداً حتى شملت أقطاراً بعيدة ممّا أدى إلى لا مركزية جعلت المقاطعات إمارات وراثيّة شبه مستقلّة عن بغداد.

أمّا بالنسبة للولايات الأقرب فقد كلّف الخلفاء العبّاسيون بعض أفراد الأسرة العبّاسيّة وكبار القادة والشخصيات البارزة إدارة شؤونها. فكان الوالي عليها، يمثّل الخليفة فهو الذي يسهر على حسن سير أعمالها أمنياً ومالياً وعسكرياً.

وكثيراً ما استغلَّ الوالي مركزه فقتل وصادر أموال أعدائه. لهذا السبب أنشأ الخليفة المنصور ديوان المظالم لإنصاف المظلومين.

٦ ـ **القضاء**: تنظّم القضاء منذ قيام الدولة العبّاسيّة حسب المذاهب الأربعة المعروفة في ذلك الحين (الحنفي، المالكي، الشافعي والحنبلي) فأصبح القاضي يصدر أحكامه طبقاً لأصول أحد هذه المذاهب.

ولقد كانت بغداد العاصمة، هي مركز قاضي القضاة ومركز قاضي قضاة الشيعة الذي عُرف باسم النقيب. يختار الخليفة قاضي القضاة من الفقهاء المشهود لهم بالتقوى والصدق والنزاهة ومعرفة القرآن الكريم والسُنّة النبوية الشريفة.

ولقد ارتدى القضاة اللباس الأسود، شعار العبّاسيين وتعمّموا عمامة سوداء أيضاً. جلسوا في بادىء الأمر في الجامع حتى منعهم الخليفة المعتضد من ذلك لما في بعض الدعاوى من أمور تسيء إلى حرمة بيوت الله. فأصبح لقاضي القضاة ديوان خاص به كما صار بعض القضاة يفصلون بين الناس في دورهم.

وفي أواخر العصر العبّاسي الأول، اتسعت صلاحيات القضاة، فصاروا يفصلون في الأوقاف ويُستشارون في اختيار الولاة فاتخذوا مساعدين لهم، كالكتّاب الذين ينظمون الجلسات ويدّونون الأحكام.

وعندما ضعفت الدولة العبّاسيّة، انتشر الفساد وعمّت الرشوة القضاء ومال بعض القضاة إلى الخمرة.

ـ **ديوان المظالم**: كان تابعاً للقضاء. ولقد بنى الخليفة المهتدي «قبّة المظالم» ديواناً للخاصة والعامة على السواء. رئيس ديوان المظالم سمّي بـ «صاحب المظالم» وهي على حدّ قول ابن خلدون «وظيفة ممتزجة من سطوة السلطان ونصفة القضاء». وهو أعلى رتبةٍ من القاضي وينظر في قضايا المرتزقة ومواعيد الحجّ.

٧ ـ **الكتّاب**: اتسعت الدولة العبّاسيّة وضمّت شعوباً وطوائف متنوعة

فكان لا بدّ من جهاز يتولى أعمال الكتابة التي يوجهها الخليفة إلى اتباعه، من ولاة وقضاة في الأقاليم البعيدة. وعلى الكاتب أن يتحلّى بأخلاقٍ حميدة وثقافة واسعة.

ولقد كان هناك كتّاب الرسائل وكتّاب الخراج والجند، والشرطة وكان صاحب ديوان الرسائل هو الذي يهتمّ بنشر المراسيم وتحرير الرسائل السياسيّة وختمها بخاتم الخليفة.

٨ ـ **الجيش**: تنظّم الجيش في عهد الخلفاء العبّاسيين بعد أن كان يتألف من أبناء المقاتلين ومن العنصر العربي ولم يكن مدرباً على التمارين العسكريّة المدروسة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والأمويين.

وكان جيش الدولة العبّاسيّة قوياً، كثير العدد شارك الفرس في تأسيسه فأصبح الجند يتعاطون الجندية كحرفة وعُرفوا أحياناً بالمرتزقة لأن الدولة كانت تؤمن لهم الرزق. وتألف الجيش النظامي من:

١ ـ المشاة وسلاحهم الرمح والسيف والترس.

٢ ـ رماة السهام.

٣ ـ الفرسان الذين كانوا يلبسون الخوذ والدروع ويحملون الحراب والفؤوس.

٤ ـ النفّاطين الذين يرتدون ثياباً لا تخترقها النار ويرشقون العدو بالمواد الملتهبة.

٥ ـ الأسطول البحري للدفاع عن سواحل الدولة العبّاسيّة ضد هجمات البيزنطيين.

وكان الجيش العبّاسي يقسم إلى فرق، كل فرقة مؤلفة من عشرة آلاف جندي بقيادة أمير، وتتكوّن الفرقة من كتائب، كل كتيبة من ألف جندي وعليها قائد، والكتيبة بدورها تقسم إلى وحدات، كل وحدة من مئة جندي برئاسة نقيب، وتنقسم الوحدة إلى فصائل، وكل فصيلة من عشرة جنود برئاسة عريف.

٩ ـ الاقتصاد: لقد اهتمّ العباسيون بالوضع الاقتصادي لتحسين الحياة المعيشيّة بعد أن أرهقت الدولة الأموية رعاياها بالضرائب.

ولقد قسّمت الدولة العبّاسيّة الميزانيّة العامة إلى قسمين: المداخيل والنفقات، وكان الخراج والجزية والزكاة والفيء والغنيمة والعشور من موراد بيت المال.

المجتمع العبّاسي

كان المجتمع العبّاسي مختلفاً جداً عن المجتمع الأموي في عدّة نقاط منها:

ـ كان المجتمع الأموي عربي الطابع وأمّا العبّاسيون فلم يتحيّزوا للدم العربي، إذ لم يكن بين الخلفاء إلاّ قلّة من أبناء الحرائر، كأبي عباس السفّاح، والمهدي والأمين.

ـ لم يغرق الأمويون في حياة البذخ ولم يهتمّوا بمظاهر الخلافة. أمّا العبّاسيون فلقد أخذوا عن الفرس عدّة تقاليد وشكليات، فلم يختلطوا دائماً مع الناس بل أوقفوا الحجّاب لتنظيم المقابلات. ولقد اشتهروا ببذخهم وإسرافهم في اللباس الفاخر وإنفاقهم على الشعراء والمغنيّين كما اهتمّ بعض الخلفاء ببناء مجالس اللهو والموسيقى والغناء والرقص.

ـ كان المجتمع العبّاسي مؤلفاً من طبقة غنيّة جداً وأخرى فقيرة جداً ولا وجود للطبقة الوسطى بينهما. أيّ أنّ المجتمع كان منقسماً بين الخاصة العالية من التجار والأغنياء يعاملون العامة باحتقار وازدراء والعامة من الشعب تعاني من الفقر والعوز.

العناصر البشرية في المجتمع العبّاسي

أهل الذمة: وهم أهل الكتاب من يهود ونصارى وصائبة. وقد أعطوا الذمّة وحوفظ على ممتلكاتهم مقابل دفع الجزية، تعاطوا الزراعة وعاشوا منعزلين محافظين على لغتهم، وكانت الآرامية والسريانية في سوريا والعراق. وقد تقلّد بعضهم المناصب العالية. وكان رعايا الخلفاء العبّاسيين من النصارى، ولا سيما في العراق ومصر ينتمون إلى كنيستين سريانيتين، هما الكنيسة اليعقوبيّة والكنيسة النسطورية.

اليهود: كان اليهود في العصر العبّاسي قليلي العدد، وكان لهم في بغداد جالية كبيرة بقيت ناشطة حتى سقوط المدينة وعاملهم العبّاسيّون معاملة حسنة.

الصائبة: وهي لفظة آرامية الأصل وتعني أصحاب المعرفة، وتدل على الطائفة التي جمعت في عقائدها بين اليهوديّة والنصرانية، مارسوا سنّة المعموديّة بعد الولادة وقبل الزواج، انتقلوا من فلسطين، على الأرجح، في القرن الأوّل للميلاد وأقاموا في سهول بابل السفلى، ومنهم فرقة المغتسلة وهم يسكنون منخفضات العراق الجنوبي.

المجوس: لقد بقيت الديانة الزرادشتية قائمة عند فئة من الناس القادمين من إيران، وبقي المانيون وهم أتباع ماني الفارسي ولكنّ أعدادهم كانت قليلة.

الرقيق: كثر عدد الرقيق في المجتمع العبّاسي فشكّلوا نسبة عالية هي مزيج من الشعوب غير المسلمة.

ولقد راجت تجارة الرقيق في العصر العبّاسي وانتشرت أسواق النخاسة، وعرفت بغداد وسائر المدن الكبرى عدداً من الأسواق لبيع الرقيق. والعبيد كانوا بأغلبيتهم من الشعوب غير المسلمة، انتزعوا من بلدانهم أو أسِروا في الحروب أو اشتروا بالمال، والذي يقع أسراً يمسي رقيقاً. وقد تقع مدينة تحت نير الاحتلال فيصبح أهلها أرقاء. كما فعل الخليفة المعتصم بعد فتح مدينة عمّوريّة.

والجواري هنَّ من الرقيق عملنَ مغنيات وراقصات وسراري. فقد ذكر عن الخليفة الرشيد أنّه اشترى جاريته وأهداها لمساعده ثمَّ أعادها إليه. أمّا الخليفة الأمين فإنّه اقتنى الجواري الحِسان الوجوه فقصّ شعورهنّ وألبسهنّ ثياب الغلمان وعُرِفن باسم الغلاميات، وإذا تزوّج الحر أمة يكون أولادها أحراراً على عكس ما كان متبعاً في الجاهليّة.

الحياة الاجتماعية في العصر العبّاسي

ظهرت طبقة اجتماعية هي مزيج من العرب والترك والفرس والروم نتيجة امتزاج العرب بالشعوب المغلوبة، أو بالشعوب النازحة أو المحتلّة لسببٍ من الأسباب. لذلك فقد العنصر العربي طابعه الخاص وضاع بين الأعاجم. ولقد انفتح المجتمع العبّاسي على حضارات تلك البلدان، ومن نتائج ذلك أنّ المرأة في العصر العبّاسي تمتعت بقسط وافر من الحريّة، ما لبثت أن فقدته في القرن العاشر عندما بسط البويهيّون نفوذهم فحدّوا من حريتها.

كما تأثرّ أبناء المجتمع العبّاسي بالأزياء الفارسيّة فعُرِف أبناء الطبقات العالية من لباسهم.

أمّا الهندسة فقد ازدادات زخرفةً وحدائق غنّاء فتشابهت المنازل في بغداد وفي سامراء. أمّا دور الخاصة والأغنياء فكانت تقسم إلى مقاصير للحريم، وحجرات للخدم، ومجالس للضيوف، وحدائق.

وقد أخذ العبّاسيون الكثير من عادات الفرس، في الأكل والشرب، وأثاث البيت، وما شابه ذلك.

أما تحريم الخمر الذي شدّد عليه الإسلام، فلم يلاقِ النجاح في العصر العبّاسي، فلقد شرب الناس الخمر سرّاً أو علانية. وكان يعقب ذلك حفلات الغناء والرقص والأنس.

ومن مظاهر الحياة الاجتماعيّة، خاصة في بغداد، انتشار الحمّامات العامة التي ارتادها الناس للاغتسال ومن أجل اللهو والترف أيضاً. وفي العاصمة بغداد وزعت آلاف الحمّامات على الأحياء.

الحياة الاقتصاديّة

التجارة: في القرن التاسع، لم يعد العرب يحتقرون التجارة كما فعلوا في السابق، فنشطوا في هذا المجال وأصبحت بغداد والبصرة وسيراف على الخليج العربي، والاسكندريّة، من المرافىء المهمّة للتجارة البحريّة والبريّة، كما حافظت مكّة والمدينة ودمشق على أهميتها السابقة.

وفي القرنين التاسع والعاشر سيطر المسلمون على العمل التجاري في العالم المعروف آنذاك، ووصلوا إلى الصين شرقاً وإلى افريقيا وإلى روسيا ولم يبق خارج سلطتهم سوى بيزنطية والمناطق التابعة لها وأصبح التجّار من أغنى الناس خاصة العطّارين وصانعي الألبسة.

وكانت العملة المتداولة في العالم الإسلامي هي الدينار الذهبي والدرهم الفضّي والفلس البرونزي. وفي القرن العاشر توحّدت العملة على أساس الدينار.

الصناعة: ازدهرت الصناعة في العصر العبّاسي، وافتخرت أنوال فارس والعراق بإنتاج أفخر أنواع السجّاد، كما انتجت الكوفة المناديل الحريريّة التي تلبس على الرأس وتعرف اليوم باسم الكوفيّة.

وكل الأعمال اليدويّة انتعشت في جميع أنحاء الدولة العبّاسية من صناعة الأقمشة والحرائر، والزجاج المخطّط والمطلي في سوريا، وصناعة الفسيفساء والقرميد في دمشق وصناعة الورق في مصر. وفي القرنين التاسع والعاشر تقدمت صناعة الورق في المجتمع العبّاسي، وأوّل مصنع للورق في بغداد كان على عهد هارون الرشيد.

وفي ما بعد انتشرت دكاكين الورّاقين لاستنساخ الكتب وتجليدها وبيعها.

كما كانت لصياغة الجواهر أهميتها في المجتمع العبّاسي. والذي ساعد في صناعة الجواهر غنى الدولة بالذهب والفضّة في خراسان والرصاص والفضّة في كرمان... ورغب في شراء كل ذلك الملوك والأغنياء.

الزراعة: إنّ منطقة بلاد ما بين النهرين، هي من أخصب المناطق الإسلامية، بعد وادي النيل لذلك اهتمّ العبّاسيّون بالزراعة منذ القدم وقد أنشأوا القنوات الضخمة، ومنها قناة عيسى التي تربط الفرات عند الانبار بدجلة عند بغداد، وكان من فروعها نهر الصراة. والقناة الثانية عُرفت بنهر صرصر وتنتهي عند المدائن، وإلى الجنوب شُقّت قناة عرفت باسم نهر الصراة، ومنها تتفرّع أقنية صغيرة للريّ.

ومن إنتاج العراق، القمح والشعير والأرز والتمر والسمسم والقطن والقنب. ولقد أحبّ العبّاسيون الزهور لذلك وُجدت الحدائق الغنّاء بالقرب من القصور الفخمة، ودور الأغنياء، واستخرجت من الزهور الروائح العطريّة. ومن أهمّ الأزهار المحبّبة إلى العرب الورد والبنفسج والريحان والنرجس والياسمين والأقحوان.

الحياة الفكرية

العلوم

شهد العصر العبّاسي حركة علميّة ناشطة في مختلف المجالات، وهذه النهضة جاءت نتيجة المؤثرات الأجنبيّة، من هندية وفارسيّة وسريانية ويونانيّة، فلقد تمّ نقل العلوم المتنوعة من لغّاتها الأصلية إلى اللغة العربيّة.

وكانت بغداد هي عاصمة هذه النهضة الفكرية والعلميّة، فلم يمضِ على تأسيسها زمن طويل عندما أتيح للعالم العربي أن يقف على أهمّ ما كتبَ أرسطو وأفلاطون وجالينوس. وبذلك سهّلت بغداد على طلاب العلم الإطلاع على ما انتجه العالم وما وصل إليه من تطور علمي وفكري.

ولقد كان للثقافة اليونانيّة التأثير الكبير على تطوّر الحركة العلميّة. فقد أنشأ المأمون بيت الحكمة في بغداد وهو خزانة كتب ودار علم ومكان للترجمة. فكان أعظم المؤسسات العلميّة في العصر العبّاسي.

وانفتح العبّاسيون على العالم الذي وصلوا إليه بالفتوحات خاصة، فنشطت حركة النقل من الفارسيّة والسنسكريتيّة والسريانيّة واليونانيّة إلى العربية، ولقد نقلت إلى العربيّة كتب متنوّعة، في علم النجوم والفلك، وعلم الطبّ والفلسفة والرياضيات، وأيضاً في الأدب والسياسة.

ولكن بعد مرحلة النقل في أيّام الخلفاء الراشدين، انتقل العرب إلى مرحلة الابتكار. فقد استوعبوا ما وصلهم من تراث وحوّلوه إلى حاجاتهم الخاصة وأضافوا إليه من أعمالهم الجديدة في الطبّ والكيمياء والفلك والرياضيّات والجغرافيا، وكانت لهم مذاهب في ميادين الشريعة وعلوم الدين وفقه اللغة وعلومها.

ـ **علم الفلك**: في سنة ٧٧١م قدم رحّالة هندي إلى بغداد ومعه رسالة في الفلك. ونقلت إلى العربيّة بأمر من الخليفة المنصور في العصر العبّاسي الأوّل، على يد محمد بن إبراهيم الفزاري الذي أصبح أوّل فلكي. وقد يعود اهتمام العرب بالنجوم إلى العصر الجاهلي ولكنه برز خاصة في العصر العبّاسي. واستناداً إلى مصنّف الفزاري وضع الخوارزمي قوائمه الفلكيّة المعروفة بالزيج، فجمع ما وصل إليه علم الفلك عند الهنود والإغريق. ثمّ نقل الفضل بن نوبخت الفارسي، علوم الفلك من اللغة الفارسيّة إلى العربيّة أيّام هارون الرشيد.

كما اهتم أهل حرّان بالنجوم ونقلوا المعلومات عن اليونانيّة ولمع اسم ثابت بن قرّة في هذا المجال وهو من الصابئة الذين تتعلّق عقيدتهم وعباداتهم بالنجوم.

ـ **الطبّ**: استفاد العرب من كتب جالينوس وأبقراط في مجال الطبّ، أخذوا عنها، ونقّحوها ثمّ أضافوا إليها. ويعتبر يوحنا بن ماسويه أوّل طبيب عمد إلى جثث الحيوانات لتشريحها ودرسها، ولقد بنى العبّاسيّون عشرات المستشفيات في بغداد ودمشق والفسطاط، وكانوا يدرسون الشروط المناسبة لبناء تلك المستشفيات مثلما فعل الرازي حين أشار على الخليفة عضد الدولة ببناء مستشفى ببغداد في مكانٍ ملائم مناخياً. وكانت المستشفيات على نوعين: منها ما هو خاص ببعض الأمراض ومنها ما هو لسائر الأمراض. وكانت تقسم إلى جناحين: جناح للرجال وجناح للنساء، كما كانت هناك المستشفيات النقّالة وفقاً للحاجات والظروف وانتشار الأوبئة.

ولقد تطوّر العرب في العصر العبّاسي في تحضير العقاقير فأنشأوا حوانيت خاصة لبيع الأدوية.

واشتهر من الأطبّاء في العصر العبّاسي، أبو بكر محمد بن زكريا الرازي وابن سينا.

ـ **الرياضيات**: كان التأثير اليوناني هو الأهمّ في علم الفلك والرياضيات، ولا سيما بعد نقل كتاب المجسطي لبطليموس. وإنّ أهم ما

توصل إليه العرب في علم الرياضيّات هو نقلهم الحساب الهندي والأرقام الهندية إلى العالم. والذي قام بهذا العمل هو أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي الذي اشتقّ الإفرنج من اسمه لفظ «لوغاريتم» والخوارزمي (٧٨٠م ـ ٨٥٠م) وهو أهمّ شخصيّة رياضيّة في العصر العبّاسي، فلقد وضع أوّل كتاب في الحساب وأقدم كتاب عربي في الجبر والمقابلة، وهذا الكتاب اعتمدته جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر.

ـ **الجغرافية**: إنَّ أهمَّ جغرافيّ عرفه العصر العبّاسي هو ياقوت بن عبدالله الحموي (١١٧٩ ـ ١٢٢٩م) صاحب كتاب «معجم البلدان»، وهو من مواليد آسيا الصغرى، وأسر صغيراً إلى بغداد فابتاعه تاجر من حماه ثمّ أعتقه فبدأ في الكتابة، ووضع كتابه في الموصل، كما ألّف معجماً يعتبر موسوعة جغرافيّة فيها أخبار تاريخيّة وعلم السلالات البشريّة وعلم الطبيعة.

ومن الأسماء البارزة أيضاً في مجال الجغرافيا، في العصر العبّاسي، نذكر الاصطخري واضع كتاب «مسالك الممالك» المزيّن بالخرائط الملوّنة لكل بلد ولكنّه لم يهتم بالمناطق الخارجة عن نطاق الإسلام. وابن حوقل وهو الرحّالة الذي وصل في أسفاره إلى الأندلس. ونذكر أيضاً المقدسي الذي زار بلدان الإسلام ثمّ وضع كتاباً عن أسفاره التي دامت عشرين سنة بعنوان «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم».

ـ **التاريخ**: لقد ظهرت الكتابات التاريخيّة على أساس إسلامي، رغبةً في حفظ أخبار الدولة الإسلاميّة منذ نشأتها. وأولى المؤلفات هي «سيرة رسول الله» لمحمّد بن إسحق المدني سنة ٧٦٧م. ثمّ ظهرت أخبار الفتوحات ومنها كتب «المغازي» لموسى بن عقبة والواقدي. كما وضع البلاذري كتاب «فتوح البلدان».

ومن أشهر مؤرخي العصر العبّاسي، الطبري (٨٣٨م ـ ٩٢٣م) الذي كتب «أخبار الرسل والملوك» الذي يعتبر أوّل عمل كامل ويبدأ تاريخه بخلق العالم وينتهي عند سنة ٩١٥م. وقد تأثر بأسفاره وبمشايخ بغداد.

مع الطبري، يُعدّ أيضاً المسعودي من المؤرخين الكبار في العصر

العبّاسي، فلقد دوّن التاريخ بحسب المواضيع، أي تبعاً لظهور الدول والملوك والشعوب، وهذه الطريقة اتبعها ابن خلدون فيما بعد. ولقد عاش في بغداد ولكنه أمضى القسم الأخير من حياته في مصر، حيث اختصر آراءه في فلسفة التاريخ والطبيعة في كتاب: «التنبيه والشراف».

وبعد الطبري والمسعودي، وضع ابن الأثير (١١٦٠ ـ ١٢٣٤م) كتابه «الكامل في التاريخ»، وقد خصّص قسماً كبيراً منه «للحروب الصليبيّة» وهو جزء في غاية الأهميّة.

الفلسفة

لقد نشطت الحركة الفلسفيّة في العصر العبّاسي، بسبب نقل قسم كبير من التراث الفكري الهندي والفارسي واليوناني إلى العربيّة. والفلسفة عند العرب لم تكن في الأساس إلاّ فلسفة يونانيّة قد وُضعت بشكل يوافق العقليّة الإسلاميّة. ومن أهمّ فلاسفة العصر العبّاسي: ابن سينا، الكندي، الفارابي، أخوان الصفاء، والغزالي.

الشعر

الثقافة العبّاسيّة هي ثقافة مركبة من عدّة حضارات امتزجت فيها عناصر مختلفة فلها من العربيّة الدين وعلومه واللغة وآدابها، ولها من اليونانيّة الفلسفة والمنطق ومن الفرس آدابهم وأخبارهم. وإنّ الحرية الفكرية البعيدة عن السياسة كانت مأمونة في العصر العبّاسي، أفسحت في المجال أمام ظهور بدع كفريّة وتيّارات إلحاديّة وشجّعت الميول الشاذة. . . .

والمناخ الاجتماعي تمثّل بمظهرين متناقضين: الترف والغنى عند طبقة تجمعّت حول الخليفة والفقر والحرمان عند الطبقة الشعبيّة، وهذا ما ذكره الشعراء في قصائدهم (أبو العتاهية، ابن الرومي) وفي مقامات الهمذاني والحريري.

ومن الأغراض الشعرية:

ـ **المدح**: مع ازدهار الحياة الاقتصاديّة وميل الخلفاء إلى البذخ، غدت

بغداد قبلة الشعراء، وقد أتوا يمجّدون أسياد القصور وقد أغدق عليهم الخلفاء والأمراء بالهدايا والمال، أمثال المتنبي.

ـ **الغزل**: شعراء العصر العبّاسي مالوا إلى الإباحيّة والفحش والتعبير الصريح عن اللذة أمثال أبو النواس. . . ومنهم من مال إلى الغزل العفيف: أبو تمام والبحتري وابن الرومي وأبو فراس الحمداني والشريف الرضي.

ـ **الخمريات**: وهي تصوّر أدقّ التصوير، الحياة الاجتماعيّة اللاهيّة في عصر بني العبّاس والشعر الخمري بلغ غاية الجمال في هذا العصر ولا يعيبه إلاّ ما فيه من فحش. وقد تفنّن الشعراء في استنباط الصور والمعاني الماديّة والتجريديّة، وفي التدقيق في وصف الخمارات ومجالس الشراب، وغدا الشعر الخمري مسرحاً لطرح كل قضايا العصر السياسيّة والعرقيّة والدينيّة والفلسفيّة.

ومن أشهر شعراء الخمرة: أبو النواس، ابن المعتزّ.

ـ **الهجاء**: لقد خفّ الهجاء القبلي في العصر العبّاسي وحلّ مكانه هجاء بعض الخلفاء، من هؤلاء الشعراء: بشّار بن برد، ابن الرومي، وأبو تمّام.

ـ **الزهد**: وقد نبغ عدد من شعراء في العصر العبّاسي بالشعر الزهدي ومنهم أبو العتاهيّة وأبو النوّاس وابن الرومي. ويقوم شعر الزهد على احتقار الدنيا وما فيها من ملاذ مشوبة بالألم ويكثر فيه ذكر الموت ومصير الإنسان في الآخرة.

ـ **الرثاء**: وقد جاء إمّا عاطفياً صادقاً وإمّا متكلفاً وقد عمد عدد من الشعراء إلى وضع مقدّمات في الزهد وذمّ الدنيا والشكوى من تقلبات الدهر واشتهر بهذا الفنّ أبو تمام والبحتري وابن الرومي.

ـ **الشعر الحكمي**: وقد ارتقى واتّسعت آفاقه متأثراً بما نقل إلى العربيّة من حكم هندية وفلسفة يونانيّة وأشهر الشعر من هذا المجال: بشّار وأبو النوّاس وأبو تمّام وابن الرومي.

في العهد العثماني

عرف العراق عهده الذهبي أيّام العبّاسيين فعندما أسّس الخليفة المنصور بغداد الحديثة شهد هذا البلد تطوّراً علمياً واقتصادياً وثقافياً. وأصبح العراق ملتقى التجارات بين آسيا ومصر والأراضي البيزنطيّة.

ولكن في سنة ١٠٥٥ استولى السلاجقة الأتراك على بغداد وأبقوا على الخلافة بدورها الديني فقط، حتى سنة ١٢٥٨ حين دمّر هولاكو بغداد، وقضى على آخر خليفة.

وفي سنة ١٥٣٤، استولى الأتراك على العاصمة بغداد، وسيطروا على البلد فقسّموا العراق إلى ثلاث ولايات، هي الموصل وبغداد والبصرة. عندئذٍ ضعفت لا بل غابت السلطة المركزية، وقوي نفوذ الوجهاء المحليين، فسنّوا قوانينهم، وتكاثرت الكوارث والفيضانات والأوبئة، وتراجعت النهضة الزراعية وكذلك التجارة أصبحت محدودة.

نتيجة لهذا الوضع، انغلقت كل مجموعة على نفسها وراحت تفتّش عن مرجع يدافع عن حقوقها وامتيازاتها. وهكذا أقام المسيحيون العلاقات الوطيدة مع روما لكي يحصلوا على حماية ملوك فرنسا.

بقي العراق تحت الاحتلال العثماني مدّة خمسة قرون، ولم يعرف النهضة إلاّ في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حين بذل الأتراك جهدهم لإقامة التجهيزات الاجتماعية وسكك الحديد وبناء السدود، فانتعش البلد من جديد.

قيام المملكة العراقيّة

الاحتلال البريطاني للعراق

شكّل العراق حتى بداية الحرب العالميّة الأولى جزءاً هاماً من الدولة العثمانية المترامية الأطراف لذلك حاول الحلفاء كسب عطف العرب وجميع أقليات الأمبراطورية العثمانية، وقد وعدوهم بممالك مستقلّة. وتقاسم الإنكليز والفرنسيون النفوذ في هذه المنطقة. ووسط هذه الأجواء وُلد العراق مكوناً من الولايات الثلاث الموصل وبغداد والبصرة، وقد سُلخت عنه الكويت.

وعندما نشبت الحرب العالمية، نزلت القوّات البريطانيّة في ولاية البصرة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٤ واحتلّت المدينة، ميناء العراق الوحيد ثم تقدّمت لتحتلّ مدينة العمارة على نهر دجلة، ومدينة الناصريّة على نهر الفرات. وهكذا أصبح جنوب العراق ميدان الحرب ما بين القوات البريطانية والقوات العثمانية. وبعد مدٍّ وجزر احتلَّ الجيش البريطاني بقيادة الجنرال مود، العاصمة بغداد في ١١ آذار (مارس) سنة ١٩١٧، ومن ثمّ لم توقف القوات البريطانية زحفها حتّى تمّ احتلال معظم مدن العراق على جانبي دجلة والفرات، إلى أن استطاعت الوصول إلى مدينة الموصل سنة ١٩١٨ واحتلتها بالرغم من احتجاج القائد العثماني الذي اعتبر ذلك خرقاً للهدنة.

إنّ العمليات العسكريّة التي جرت بين العثمانيين والبريطانيين على أرض العراق أدّت إلى إضعاف الاقتصاد. لقد تجنّد آلاف العراقيين في الجيش العثماني كما أجبرت القوات البريطانية آلاف الفلاّحين العراقيين على الانخراط في صفوفها، فنقصت الأيدي العاملة، وضعفت الزراعة خاصة بعد

أن تعطلت عدّة مشاريع للريّ، كما تراجع الإنتاج الصناعي بعد قطع العلاقات التجاريّة بين العراق وعدّة بلدان مجاورة لها.

وارتفعت الضرائب في مناطق الاحتلال البريطاني، أثناء الحرب العالميّة الأولى، فنقصت المواد الغذائية والسلع الاستهلاكيّة، كما انتشر الفقر والجوع، وتفشّت الأمراض.

ومن الناحية الإداريّة، أقامت السلطات البريطانيّة نظاماً شبه إقطاعي في العراق، فقد عيّنت كبار الاستقراطيين حكاماً للمناطق التي تخضع لها، كما تساهلت في معاملتها لرؤساء العشائر.

الثورة العراقية (١٩٢٠)

حلم العراقيون بالحريّة والاستقلال بعد أن تخلّصوا من الحكم العثماني ولكن سرعان ما تلاشت هذه الأحلام فلقد أخلَّ الحلفاء بوعودهم واقتسموا العالم العربي فأدرك الوطنيون ذلك وبدأوا يخطّطون للثورة من أجل الاستقلال.

وكانت قد نشأت في العقدين الأوّل والثاني من القرن العشرين جمعيات تضمّ العديد من الطلاّب والشخصيات، وانتشرت بين العرب في الآستانة، وفي عدّة مدن عربية مثل بيروت، دمشق، بغداد والبصرة ومن الجمعيات نذكر «تركيا الفتاة» «الاتحاد والترتقي»، انتظم فيهما الأتراك القوميون، وقد نظروا إلى دول الغرب مثلما فعل العرب القوميون لكي تساعدهم وتساندهم في سعيهم إلى الإصلاح والتحرير. ولقد عقد القوميون العرب أول مؤتمر لهم في باريس سنة ١٩١٣.

ولكن عندما احتلّ الإنكليز البصرة ثم عدّة مدن عراقية، حاولوا إخضاع العراق لسلطتهم، محاولين فرض نظمهم وقوانينهم، فاستاء العراقيون من ذلك، وفي ٨ آذار (مارس) ١٩٢٠ عقد الزعماء العراقيون اجتماعاً مهماً شارك فيه العديد من الذين قاموا بالثورة العربيّة الكبرى في دمشق ونادوا بالأمير عبدالله بن الحسين ملكاً على العراق بعد أن أعلنوا استقلال بلدهم.

وفي ٥ أيّار (مايو) من سنة ١٩٢٠ عقد مجلس الحلفاء الاعلى مؤتمرا في سان ريمو، لدرس قضيّة الانتدابات في المنطقة وصدر من مقرّراته: وضع العراق تحت الانتداب البريطاني. ومنذ ذلك الحين بدأت تتصاعد النقمة الشعبية فحاول الحاكم البريطاني العام السير ولسون أن يعيد الأوضاع إلى نصابها فأعلن في ١٧ آب (أغسطس) ١٩٢٠ أنّ بريطانيا توافق على إنشاء مجلس تأسيسي لوضع دستور البلاد وتقوم حكومة مستقلة لإدارة العراق في ظلّ الانتداب البريطاني. لم يقتنع جميع العراقيين بهذه الخطوات بالرغم من تطمينات الحاكم العام.

فتاريخ العراق حافلٌ بالنضال من أجل الاستقلال ففي سنة ١٩١٨ قامت انتفاضة النجف وعدد من مدن الفرات الأوسط. وفي حزيران (يونيو) ١٩١٩ قامت انتفاضة السليمانيّة وطرح بعض زعمائها فكرة تأسيس دولة كريدّة. كما عارض الشعب العراقي قرار المجلس الأعلى للحفاء في سان ريمو، بمنح الحكومة البريطانيّة حقّ الانتداب على العراق.

في ٣٠ حزيران (يونيو) عام ١٩٢٠، قامت الثورة العراقية في جميع أنحاء البلاد، فبعد أن أمر حاكم منطقة الرميثة بإلقاء القبض على أحد شيوخ القبائل، اقتحم رجال هذا الشيخ السراي وأخرجوه بعد أن قتلوا الحرس، فهبّ الشعب معلناً الثورة ضدّ الاحتلال، فسرعان ما امتدّت نيران الغضب إلى النجف وكربلاء وأخذت صفة الجهاد المقدّس بعد أن انضمّ إليها الزعماء الدينيون، وخاصة بعد احتلال الفرنسيين مدينة دمشق، عمّت الثورة مختلف أرجاء البلاد، في حوضي الفرات الأوسط والأدنى، فأنشأ بعض الزعماء حكومات مؤقتة في مناطقهم التي فقد الإنكليز السيطرة عليها ولكن بقيت المدن الثلاث بغداد والبصرة والموصل بعيدة عن أجواء الثورة قليلاً بعد أن أخمدت منذ البداية في المدن الرئيسية تلك.

وفي أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٠، عيّنت الحكومة البريطانيّة، السير بيرسي كوكس، مندوباً سامياً لها في بغداد، وفي تشرين الأوّل (اكتوبر) وصل هذا الأخير إلى البصرة، فأخذ يفاوض الزعماء العراقيين لإخماد الثورة، وشكّل في ٢٧ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٢٠ الحكومة العراقية المؤقتة

برئاسة عبد الرحمن الكيلاني وأُلحق بكل وزارة من وزاراتها مستشار بريطاني. وهكذا استتبّ الأمن في البلاد.

مؤتمر القاهرة

اجتمع وزير المستعمرات الإنكليزيّة ونستون تشرشل مع كبار ممثلي المملكة من مدنيين وعسكريين في الشرق الأوسط في مؤتمر عُقد من القاهرة في ١٢ آذار (مارس) ١٩٢١، ومن بين الذين شاركوا في هذا الاجتماع بيرسي كوكس المندوب السامي في العراق والسير هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين. من القضايا التي بحثها المؤتمرون هي إيجاد الوسائل التي تحافظ بها الحكومة البريطانيّة على نفوذها في العراق ومن ناحية أخرى تحسّن علاقاتها مع المواطنين المطالبين بالحرّية والاستقلال. لذلك وجد الإنكليز أنّه بات من الضروري إبدال الانتداب بمعاهدة تحالف بين العراق المستقلّ وإنكلترا. وبالنتيجة، تمَّ تنصيب فيصل ملكاً على العراق في ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٢١.

إعلان النظام الملكي في العراق

في ٢٣ آب (أغسطس) عام ١٩٢١، تمّ تتويج فيصل الأوّل ملكاً على العراق وأصبح العراق مملكة بعد أن انضمت إليه عدّة مناطق بعد أن كانت تعتبر ملكاً للدول المجاورة. وفي عام ١٩٢٢، رسمت الحدود العراقية، بينه وبين إيران، ثمّ بينه وبين الحجاز ووقع الخلاف بين العراق وتركيا بخصوص ولاية الموصل. حتى عام ١٩٢٦ حين تخلّت تركيا عنها.

ولقد حاول البريطانيون إثبات سيطرتهم على البلاد، فاحتلّوا الموصل لأنها منطقة غنيّة بالنفط، فأقامت بذلك امتداداً لتواجدها من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي مروراً بفلسطين وشرقي الأردن.

إضافة إلى الموقع الجغرافي، شكّل العراق مركزاً مهماً للمصالح البريطانيّة، فعلى صعيد المواصلات سهّلت الحكومة البريطانيّة كل المشاريع التي تربط العراق مع الغرب والشرق الأقصى والهند.

كما مثّل العراق مصدّراً للنفط وبلداً منتجاً تستطيع أن تستفيد منه بريطانيا بحال ساءت أوضاعها ولم يعد باستطاعتها الحصول على النفط الأميركي، فأثناء تواجدها في المنطقة اهتمت السلطات البريطانيّة بحقول النفط في إيران والعراق.

حكم الفيصل والمعاهدات مع البريطانيين

ومن الناحية السياسيّة، ظلَّ للإنكليز نفوذهم في العراق بوجود المندوب السامي فيه. ولقد عقد الملك فيصل الأوّل أربع معاهدات مع بريطانيا، خلال مدّة حكمه الذي دام اثني عشر عاماً.

المعاهدة الأولى من تشرين الأوّل (اكتوبر) عام ١٩٢٢، والثانية في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٦ والثالثة في كانون الأوّل (ديسمبر) من عام ١٩٢٧ والأخيرة في حزيران (يونيو) ١٩٣٠، في المعاهدة الأولى، طُلب من العراق أن تأخذ حكومته بنصائح المندوب السامي البريطاني في القضايا الدولية والمالية، واحتفظت بريطانيا بقوّاتها في العراق. فغضب الوطنيّون في العراق من هذه الخطوات، وفي الذكرى الأولى لتتويج الملك، في ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٢٢ قامت المظاهرات بقيادة زعماء الحزبين السياسيين «حزب النهضة العراقيّة» و «الحزب الوطني العراقي» اللذين اجتمعا تحت اسم «حرس الاستقلال».

وفي عام ١٩٢٤، اجتمع المجلس التأسيسي وقد حضره النواب بغالبيتهم وصادقوا على القانون الأساسي للعراق.

في عام ١٩٢٥، حصلت «شركة النفط التركية» على امتياز«التنقيب عن النفط واستخراجه في كافة أراضي العراق ما عدا في لواء البصرة. وفي سنة ١٩٢٧، سمح لبعض الشركات الأميركيّة والفرنسيّة بالمساهمة في «شركة النفط التركيّة» وفي عام ١٩٢٩ صارت تصرف باسم «شركة نفط العراق».

وتعتبر **معاهدة سنة ١٩٣٠** بين العراق وبريطانيا من أهمّ المعاهدات بين البلدين إذ تضمنت في مقرراتها:

١ ـ التعهد من قبل بريطانيا بإدخال العراق في عضوية عصبة الأمم المتحدة، وحصل ذلك عام ١٩٣٢، واعتبر العراق دولة مستقلّة ذات سيادة.

٢ ـ يتعهّد العراق لبريطانيا، بتقديم جميع المساعدات لها في حال نشوب حرب فيسمح لها باستخدام السكك الحديديّة والمطارات... كما تحتفظ بريطانيا بقاعدتين جويتين في العراق، واحدة قرب البصرة والثانية في الحبّانيّة.

٣ ـ تساعد بريطانيا العراق من الناحية العسكريّة.

وعندما قُبل العراق كعضو في عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ أصبحت المعاهدة نافذة. وبالتالي اعتبر العراق دولة مستقلّة.

الإصلاحات

بعد قيام الدولة في العراق وانضمامه إلى عصبة الأمم كبلدٍ مستقل، بدأت تتحقّق عدّة إنجازات على جميع الأصعدة، فلقد اهتمّ الملك فيصل بإنشاء جيش وطني وتجهيزه، وتطويره فارتفع عدد القوات المسلحة في العراق كما أسّس سلاح الجوّ العراقي سنة ١٩٣٠، واقتنى الأسلحة المتطوّرة الحديثة.

ومن ناحية المواصلات، فلقد تطوّر مرفأ البصرة واتسعت الطرق البريّة وتحسنت طريق عمان ـ بغداد وأيضاً طريق بغداد ـ دمشق. وتطوّرت شبكة المواصلات البريدية كذلك، المواصلات الجويّة.

وفي التربية والتعليم، تحسّنت أوضاع المدارس فارتفع عدد الطلاب وأسست كليات للصحّة والحقوق والزراعة....

أمّا الوضع الاقتصادي في شكل عام، فلقد بقي متأثراً بالوضع الاقتصادي العالمي الذي خرج من الحرب العالميّة الأولى منهوك القوى، فلم يعرف إلاّ تقدماً محدوداً فحاولت الدولة العراقيّة تحسين ما استطاعت من ناحية الخدمات الصحيّة، والخدمات العامة (في دور المجالس والهيئات البلديّة).

وتقدّمت الزراعة بفضل استخدام آلات الريّ الحديثة، كما حققت التجارة ازدياداً في أرباحها. وأهم إنجاز هو استخراج النفط الذي سيمول أوّل خطة خمسيّة للتنمية عام ١٩٣٢.

في الحرب العالمية الثانية

ما قبل الحرب

إنّ حكومة رشيد عالي الكيلاني التي شكّلها في آذار (مارس) ١٩٣٣، احترمت التزامات العراق الدوليّة. ولكنّها اضطرت إلى الاستقالة بعد وفاة الملك فيصل الأوّل.

وبعد وزارتي جميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي، استلمت السلطة من جديد حكومة «الإخاء الوطني» برئاسة ياسين الهاشمي وفي نيسان (أبريل) ١٩٣٥ حُلّ المجلس النيابي، وبعد شهر من ذلك، قامت انتفاضة في منطقة الرميثة، ثم تبعتها انتفاضة العشائر العربيّة امتدّت إلى العديد من المناطق البعيدة عن المدن فأخذت طابع الحركة العمّالية والفلاّحية ضدّ أهل الحكم.

وفي أول الثلاثينات ظهر اليساريون على مسرح النشاط السياسي فكبرت المعارضة واتسعت حتى قامت القوات العراقية المسلحة بقيادة بكر صدقي وسيطرت على العاصمة بغداد وطلب صدقي من الملك إقالة الهاشمي. وهكذا شكّل حكمة سليمان الوزارة الجديدة. وأعلن فيما بعد برنامجه الإصلاحي، من العفو عن المعتقلين السياسيين، وتطوير الصناعة والحركة النقابيّة، والنظام الصحّي، والزراعة. . . .

بعد مقتل بكر صدقي عام ١٩٣٧، سقطت الحكومة وعاد إلى السلطة جميل المدفعي الذي شكّل الوزارة، وفي كانون الأوّل (ديسمبر) عام ١٩٣٨ تشكّلت حكومة نوري السعيد.

العراق في سنوات الحرب العالميّة الثانية

في ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٣، توفي الملك فيصل الأوّل فأصبح ابنه غازي ملكاً على العراق، واستطاع أن يخمد ثورة الأشوريين. ولكن في ٤ نيسان (أبريل) ١٩٣٩ توفي الملك غازي وكان ابنه فيصل الثاني لا يزال طفلاً فتولّى الوصاية على العرش خاله الأمير عبدالله. وكان لهذا الأخير علاقات حسنة مع الحكومة البريطانيّة، وقبل اندلاع الحرب العالمية الثانية استدعى إلى العراق، بعض المستشارين البريطانيين.

وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩، أي بعد دخول بريطانيا الحرب، قطعت الحكومة العراقية علاقاتها الدبلوماسيّة مع ألمانيا وفي ١٢ أيلول (سبتمبر) أعلنت حكومة نوري السعيد حالة الطوارىء في البلاد كما فرضت الرقابة في جميع أنحاء البلاد فأصبحت التجارة الخارجيّة والداخلية مراقبة، كما عزّزت الحكومة البريطانية الحاميتين البريطانيتين العسكريتين في العراق وفي سنة ١٩٤١ جرت مفاوضات بين الإنكليز والعراق بخصوص تقديم قواعد عسكرية جديدة ولكي تستطيع القوات البريطانيّة المرابطة على طول خطوط السكّة الحديديّة بين الموصل والبصرة.

وفي نيسان (أبريل) سنة ١٩٤١ جرى انقلاب حكومي في العراق وتشكّلت الحكومة الجديدة برئاسة رشيد عالي الكيلاني التي أعلنت عن تمسكها بالتزامات العراق الدوليّة. وفي حزيران (يونيو) ١٩٤١، سيطرت القوّات البريطانية على العاصمة بغداد، وعلى كافة المراكز الستراتيجيّة المهمّة وسكك الحديد وميناء البصرة كما رابط مائة ألف جندي بريطاني على أرض العراق وبعد هذه التطورات، ترأس نوري السعيد الحكومة العراقيّة في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤١.

وسيبقى الوجود البريطاني في العراق حتى عام ١٩٤٧. وفي سنة ١٩٤٣، جرت تعديلات في الدستور العراقي، فأقرّت حقوق مجلس النواب وأعطت صلاحيات كبيرة للملك الوصي عبدالله.

أعلنت الحكومة العراقيّة الحرب ضدّ ألمانيا وإيطاليا ولكنها لم تشارك

في العمليات العسكرية ضد دول «المحور» وإنّما سمحت للقيادة البريطانيّة باستخدام أراضي العراق للإتصال بالبلدان المجاورة ولمرور المعدّات الحربيّة والأغذية.

في آب (أغسطس) ١٩٤٤، تبادل العراق مع الاتحاد السوفياتي العلاقات الدبلوماسيّة. وفي نفس السنة بدأت الحكومة العراقية المفاوضات مع الأكراد، قبل أن يضطر الجيش إلى إخماد ثورتهم التي تزعمها شيخ قبيلة بارزان مصطفى البارازاني.

العراق في السنوات الأولى بعد الحرب

في شباط (فبراير) سنة ١٩٤٦، شكّل توفيق السويدي، الوزارة، فألغت الأحكام العرفيّة في البلاد ورفعت الرقابة عن الصحف وصدّق مجلس النواب على تعديلات قانون الانتخابات وزاد عدد النواب من ١١٥ إلى ١٣٥ نائباً كما برزت عدّة أحزاب سياسيّة، من بينها الحزب الشيوعي، ولكن ما إن عادت حكومة نوري السعيد وتلتها حكومة صالح جبر حتى وُضعَ حدٌّ لنشاطات تلك الأحزاب.

وفي عام ١٩٤٨ وُقعت معاهدة جديدة بين العراق وبريطانيا تتيح للقوّات البريطانية بالتمركز في العراق خلال الحرب أو حتى في حالة خطر الحرب كما بقيت قاعدتا الحبّانيّة والشعيبة الجويتان تحت سلطة الحكومة البريطانية.

ولكن هذه المعاهدة أثارت غضب الشعب، فاضطرت الحكومة العراقيّة إلى التخلّي عنها.

العراق في الخمسينات

في سنة ١٩٥١، وقع أصحاب «شركة نفط العراق» اتفاقيّة مع الحكومة العراقية التزمت فيه الشركة بتقسيم أرباح النفط مناصفة وتحسين ظروف العمل فيها.

أمّا سنة ١٩٥٢، فقد شهدت نضالات كبيرة ضد الحكومة وقامت المظاهرات في بغداد، تندّد بالاستعمار وبالمعاهدة العراقيّة ـ البريطانية. . ، فلجأت الحكومة إلى إعلان الأحكام العرفيّة، وترأس الحكومة رئيس أركان الجيش الفريق نور الدين محمود ودخل الجيش العراقي بغداد والمدن الكبرى وحُلّت كافة الأحزاب المعارضة ونقابات العمّال وتمّ اعتقال المئات من المناضلين.

بعد هذه الأحداث شكّل فاضل الجمالي الوزارة في ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٣ فألغت الأحكام العرفيّة وسمحت للأحزاب بالقيام بنشاطها. ولكن حركة ونضال الفلاّحين والعمّال لم تتوقف وقد لجأوا إلى الإضرابات أحياناً.

في بداية ١٩٥٤ ساءت العلاقات بين العراق والإتحاد السوفياتي وكانت قد بدأت في واشنطن المفاوضات الأميركيّة ـ العراقية بهدف حصول العراق على مساعدات عسكرية من أميركا ـ وكانت قد نشطت الاتصالات بغية قيام الحلف الدفاعي الإقليمي من تركيا وباكستان وإيران. وبعد أن توتّرت الأجواء السياسيّة في العراق، قدّمت الحكومة العراقية استقالتها وشكّل أرشد العمري الوزارة الجديدة. وحَلَّ الملك فيصل الثاني المجلس النيابي ودعا إلى انتخابات جديدة. وتألف المجلس النيابي من تحالف سياسي ضمّ نواباً يمثلون بعض الأحزاب. ولكن في ١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٤، أجرت حكومة نوري السعيد انتخابات نيابيّة جديدة.

حلف بغداد

في الخمسينات، توسعت علاقات العراق بالدول الغربيّة، وتركيا وإيران. ولقد تمّ توقيع معاهدة التعاون بين تركيا والعراق في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٥٥ وانضمّ إلى هذا الحلف كل من بريطانيا (في شهر نيسان) وباكستان (أيلول) وإيران (تشرين الثاني).

ولقد توقفت العلاقات الدبلوماسيّة بين العراق والإتحاد السوفياتي سنة ١٩٥٥. وبالمقابل وقعّت بريطانيا مع العراق معاهدة التعاون، من أجل الدفاع المشترك عن العراق من كل عدوان خارجي. ووضعت بريطانيا جيشها تحت تصرّف العراق متى دعت الحاجة، وقدّمت المساعدات العسكريّة له من تدريبٍ للقوات المسلحة وتنظيم، وتخطيط. واحتفظت بريطانيا بحقّ استخدام مطاريْ الحبّانيّة والشعيبة اللذين تشرف عليهما السلطات العراقيّة.

جبهة الإتحاد الوطني

أثار العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦، موجة عارمة من الغضب وأعلنت حكومة العراق عن استعدادها لتقديم العون إلى مصر.

ولقد قامت تظاهرة كبيرة ضدّ الحكومة وقد رفض بشدّة حلف بغداد، فأخمدت القوات المسلحة العراقيّة فتيل هذه النقمة، فحاول المناضلين توحيد جهودهم ضمن جبهة واسعة ضمّت ممثلي الحزب الشيوعي العراقي والحزب الوطني الديمقراطي وحزب البعث وحزب الإستقلال وانتخبت اللجنة الوطنية العليا للجبهة في شباط (فبراير) ١٩٥٧ ومن مطالب هذه اللجنة: ـ حلّ المجلس النيابي وإنهاء حلف بغداد، ومنح الشعب الحرية الديمقراطيّة.

وفي شباط (فبراير) ١٩٥٨ بعد أن تمّ تشكيل الجمهوريّة العربيّة المتحدة من مصر وسوريا، شُكِّل الإتحاد العربي بين الأردن والعراق.

ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨

بعد حلف بغداد وانضمام العراق إلى المعسكر الغربي، وأحداث لبنان في ١٩٥٨، وارتباط الحكومة العربية بالقرارات الدولية العربية، بدأ «الضبّاط

الأحرار» الإتصالات مع اللجنة الوطنية العليا لجبهة الإتحاد الوطني وذلك للإطاحة بحكومة نوري السعيد.

وفي فجر ١٤ تمّوز سنة (يوليو) ١٩٥٨، دخل لوائين من الفرقة التالية من الجيش العراقي إلى بغداد، وسيطرا على المراكز الاستراتيجيّة في العاصمة وبعد محاصرة القصر الملكي، قتل الملك فيصل الثاني والأمير عبدالله ورئيس الوزراء نوري السعيد. وهكذا تمّ القضاء على النظام الملكي في العراق. وممّا يذكر أنَّ اللوائين كانا تحت إمرة العقيد عبدالكريم قاسم والعقيد عبدالسلام عارف.

وهكذا تأسّست الجمهوريّة العراقيّة الديمقراطيّة وشكّل أوّل حكومة فيها عبدالكريم قاسم وكان عبدالسلام عارف نائباً له ووزيراً للداخليّة.

اعترفت بريطانيا والولايات المتحدة بالجمهوريّة العراقيّة الجديدة وكانتا قد سحبتا قواتهما من لبنان والأردن.

الجمهوريّة العراقيّة

حكومة عبدالكريم قاسم [تمّوز (يوليو) ١٩٥٨ ـ شباط (فبراير) ١٩٦٣]

في السياسة الداخليّة، صدر الدستور المؤقت للجمهوريّة العراقيّة في أواخر تمّوز (يوليو) ١٩٥٨، وأعطى المساواة لجميع المواطنين أمام القانون، وقد سُمِح للأحزاب السياسيّة بمزاولة نشاطاتها، وأحيلت الوظائف التشريعيّة إلى مجلس رئاسة الجمهوريّة. وأعطت هذه الوزارة حقوقاً للمرأة تتساوى فيها مع الرجل.

أمّا في السياسية الخارجيّة، فقد انسحب العراق من حلف بغداد كما أوقف مفعول المعاهدة البريطانيّة ـ العراقيّة لسنة ١٩٥٥ كما غادرت القوّات البريطانيّة الباقية الأراضي العراقيّة، كذلك فسخت الإتفاقيات الثلاث المفروضة على العراق من الولايات المتحدة الأميركيّة على أساس «مبدأ ايزنهور».

وأيضاً في سنة ١٩٥٨ بدأت الإصلاحات الزراعيّة وكان للجمعيات الفلاّحيّة دورها في الإنماء إذ أعادت الحكومة بعض الأراضي إلى أهل الريف.

كما أعلنت الحكومة برنامج التنمية الصناعيّة بعد أن عادت لعلاقات الدبلوماسيّة والتجاريّة والإقتصاديّة مع الإتحاد السوفياتي كما عقد العراق اتفاقات مع عدّة بلدان اشتراكيّة.

أمّا بالنسبة للأكراد الذين شكلوا ربع سكّان العراق، فقد نص الدستور المؤقت الذي وضع سنة ١٩٥٨ على مساواة العرب والأكراد في الحقوق. ولكن لم تتحقق فعلياً هذه المساواة وبقيت تتوتر الأجواء بين الدولة والأكراد في الشمال حتى جرت عمليات حربية بين وحدات الجيش وبين الأكراد في ٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١. وستدوم الحرب طويلاً.

وبدأت تدهور الأحوال الاقتصاديّة في البلد لعدّة أسباب منها بعض الصعوبات في الزراعة والصناعة وازدياد نفقات الجيش والشرطة، حتى قامت التظاهرات والإضطرابات ساهم فيها العمّال والمستخدمين عام ١٩٦٢ واحتجّ الوطنيون على الحرب في كردستان.

وفي شباط (فبراير) ١٩٦٣، جرى انقلاب على حكم عبدالكريم قاسم، فسقطت الحومة وقتل قاسم.

حكم حزب البعث [٨ شباط (فبراير) ـ ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ٦٣]

هذه الحركة الانقلابيّة بدأها حزب البعث العربي الإشتراكي وانضمّ إليها القوميون والإشتراكيّون. عُين لمنصب رئيس الجمهوريّة عبدالسلام عارف وترأس مجلس الوزراء أحمد حسن البكر. وعندما حكم البعثيون في سوريا [٨ آذار (مارس) ١٩٦٣] بدأت المفاوضات مع العراق من أجل تشكيل إتحاد فيدرالي بين سوريا ومصر والعراق.

حركة ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣

بعد أن اشتدّ الصراع بين أجنحة حزب البعث في العراق، قامت كتلة عبدالسلام عارف بانقلاب عسكري مدعوماً من الجيش وذلك في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣. وأصبح عارف رئيساً للجمهوريّة ولمجلس قيادة الثورة. وكان برنامج الحكومة بناء «الإشتراكيّة العربيّة»، والإصلاح الزراعي، وتمّ تأميم البنوك، وسنة ١٩٦٥ ترأس مجلس الوزراء عبدالرحمن البزّاز، فعزّز العلاقات مع الغرب.

ولكن بعد وفاة عارف، جرى خلاف على السلطة وخلف عبدالرحمن عارف أخاه في رئاسة الجمهوريّة. وفي عهده حُلّت قضيّة الأكراد جزئياً.

في سنوات العدوان الإسرائيلي، شارك العراق في صدّ هجمات العدو إذ أرسل قوّاته المسلّحة إلى الجبهة الأردنيّة، وقطع العراق علاقاته الدبلوماسيّة مع الولايات المتحدة وبريطانيا كما أوقف شحن النفط إلى تلك الدول.

حكم أحمد حسن البكر

في ١٧ تمّوز (يوليو) جرى انقلاب بقيادة زعماء حزب البعث الجدد وعُيّن أحمد حسن البكر رئيساً للجمهوريّة، وكان النظام الجديد تقدمياً ثورياً. وأقرّ الدستور الجديد في ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨ بدلاً من دستور ١٩٦٤. ولقد تحسّنت ظروف العمل إذ وضع قانون التقاعد والضمان الاجتماعي، كما وضعت خطة خماسية للتنمية (١٩٧٠ إلى ١٩٧٤) تهدف إلى تطوير الصناعة وتحسين ظروف الزراعة.

وفي آذار (مارس) ١٩٧٠ وقّعت حكومة البكر اتفاقيّة حول وقف الإقتتال بين عرب العراق وأكراده، بعد عشرة سنين من الحروب، التي أوقعت الخسائر الماديّة والمعنويّة للطرفين.

وفي سنتي ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠، وسّع العراق علاقاته مع عدّة دول عربية وغربيّة وكان أوّل من اعترف بجمهوريّة ألمانيا الديمقراطيّة وبالحكومة الثوريّة للفيتنام كما تطوّرت العلاقات الاقتصاديّة والتجاريّة بين العراق والدول الإشتراكيّة.

وبقي أحمد حسن البكر رئيساً للجمهوريّة إلى سنة ١٩٧٩ حين قدّم استقالته وخلفه صدّام حسين.

ومن إنجازات هذه الفترة من الحكم، على الصعيد التربوي، محو الأميّة الذي أقرّه القانون سنة ١٩٧٨ وتخصيص الموازنات الكبيرة لهذا القطاع.

ولقد ارتفع إنتاج النفط بعد أن تطوّرت شبكات الأنابيب.

ولقد اهتمّت الدولة بإقامة بنية تحتية كبيرة (طرق، مواصلات، توزيع طاقة، سيطرة على المياه) ولقد أُنجز بناء سدّين على دجلة والفرات، ومنذ عام ١٩٧٩، بدأ بناء أربعة سدود وهكذا يصبح العراق قادراً على السيطرة على ٧٠٪ من موارده المائية.

كما خصّصت رساميل كبيرة للتجهيز الاجتماعي في الأرياف من كهرباء ومستوصفات ومدارس، وتعاونيّات خاصة للمشاريع الزراعيّة.

الحرب العراقيّة ــ الإيرانيّة

الأسباب

إنَّ الحرب بين إيران والعراق التي انفجرت في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠ ودامت ثماني سنوات تعود بأسبابها إلى فترة ما بعد الحرب العالميّة الثانية، بعد جلاء القوات البريطانيّة عن الأراضي العراقيّة والإيرانيّة وبقاء الحدود غير واضحة بين هذين البلدين في عدّة نقاط على كل المساحة الواقعة بينهما، خاصة في الخليج الفارسي وبالتحديد شطّ العرب وجزر الطنب. وتشكّل هذه المنطقة موقعاً استراتيجياً مهماً لمراقبة مضيق هرمز الواقع بين الخليج الفارسي وخليج عمان والذي يمرّ عبره النفط العربي إلى العالم الغربي بنسبة الـ ٣٥٪.

ومن الأسباب التي أججّت نار الحرب بين العراق وإيران أيضاً وصول آية الله الخميني إلى الحكم بعد طرد الشاه سنة ١٩٧٩ وقيام الدولة الشيعيّة ممّا أقلق الدولة العراقيّة، التي تشكل الطائفة الشيعيّة فيها نسبة مهمة من عدد المواطنين خاصة في جنوبي العراق قرب البصرة.

الأحداث

عرفت هذه الحرب مراحل مختلفة. فلقد بدأت في أيّار (مايو) ١٩٧٩ بالمواجهة بين الطرفين وحصول اشتباكات متقطعة في كردستان وخوزستان. وفي خلال سنة ١٩٨٠ تتابعت الإعتداءات والإتهامات من الجانبين واستطاع العراق أن يتقدّم في حرب المواقع في أواخر سنة ١٩٨١ إلى نحو ١٠ كيلومتر داخل أيران. وتراجع عنها سنة ١٩٨٢، فتقدّمت إيران في الأراضي العراقيّة في آب (أغسطس) ١٩٨٢ وذلك بفضل المدّ البشري الذي تجنّد للحرب، بأعداد لم يشهد التاريخ مثلها، وقد فاقت المئة ألف رجل وشاب.

وبفضل هذه الحرب المباشرة وغير المنتظرة، استطاع الإيرانيون التقدّم على عدّة نقاط ومواقع في صيف ١٩٨٣.

وفي نيسان (أبريل) ١٩٨٤، استعمل العراق السلاح الكيميائي، كذلك بدأت حرب المستنقعات في سنة ١٩٨٤.

بعد ذلك بدأت ما سمّيت «بحرب المدن» فتبادل العراق وإيران الصواريخ منذ سنة ١٩٨٥ على بغداد وطهران وقم... وعدّة مدن أخرى بشكل جنوني وتصاعدي...

في آذار (مارس) ١٩٨٦: إيران تستولي على الفاو وتسترده العراق في سنة ١٩٨٨. وفي نفس السنة، يستعمل العراق السلاح الكيمائي ضدّ الأكراد.

بعد عدّة محاولات واتفاقيات للسلام، قامت بها الأمم المتّحدة، قبلت إيران وقف إطلاق النار (قرار الأمم المتحدة رقم ٥٩٨) في ١٨ تمّوز (يوليو) ١٩٨٨، وبدوره قبل العراق بهذا القرار في ٦ آب (أغسطس) ١٩٨٨ وفي ٢٠ آب (أغسطس) .١٩٨٨ بدأت الأمم المتحدة بالإشراف والمراقبة.

كانت خسائر الحرب هائلة بالنسبة للطرفية المتقاتلين، فعدا عن الخسائر المادية الجسيمة كان هناك ما يقارب ٤٠٠ ألف قتيل إيراني وما يقارب ٣٠٠ ألف قتيل عراقي.

ميزان القوى العسكري

	إيران	العراق
المساحة:	١,٦٤٨,٠٠٠كلم²	٤٣٤,٠٠٠كلم²
السكّان:	٤٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة	١٦,٠٠٠,٠٠٠ نسمة
القوّات المسلّحة:	٢,٥٠٠,٠٠٠ رجل	١٠٠,٠٠٠ رجل
المدفعية:	١٠٠٠ مدفع	٣٥٠٠ مدفع
الطيران:	١٠٠ طائرة	٦٠٠ طائرة
السفن الحربيّة:	١٧ سفينة	١٠ سفينة

القسم الثاني

الأردن

لمحة جغرافية

● **الموقع**: يقع الأردن في منطقة الشرق الأوسط بين خطي الطول ٣٤ و٣٩ درجة شرقاً، وخطّي العرض ٢٩ و٢٣ درجة شمالاً. يحدّه من الغرب فلسطين ومصر، ومن الشرق العراق، ومن الشمال سوريا، ومن الجنوب الجزيرة العربيّة (السعودية حالياً).

● **المساحة**: حوالي ٩٨,٠٠٠ كلم٢ بما في ذلك مساحة الضفة الغربيّة (٥٥٧٠ كلم٢).

● **العاصمة**: عمان. أهم المدن في شرق الأردن: الزرقاء، إربد، السلط، جرش، معان، الكرك، العقبة.

● **اللغة**: العربيّة.

● **عدد السكان**: ٣,٩٠٠,٠٠٠ نسمة (تقديرات ١٩٩٤) أغلبهم مسلمون وهناك أقليّة مسيحيّة (١٥٪).

● **الحكم**: ملكي وراثي من سلالة الملك عبد الله بن الحسين الهاشمي. تناط السلطة التشريعيّة بمجلس الأمّة والملك، أمّا السلطة التنفيذيّة فتناط بالملك الذي يتولاّها بواسطة وزرائه. والأردن عضو في هيئة الأمم المتحدّة وفي جامعة الدول العربيّة منذ تأسيسها.

● **الوحدة النقديّة**: الدينار الأردني.

● **المناخ**: هو حار جاف صيفاً، ومعتدل ماطر في الشتاء. وترتفع درجة الحرارة وتقلّ كميّة الأمطار كلّما اتجهنا نحو الجنوب، لذلك نقسّم الأردن إلى ثلاث مناطق تختلف عن بعضها بمناخها وطبيعتها:

١ ـ الغور: هي المنطقة الممتدّة بين بحيرة طبريا ونهر اليرموك شمالاً حتى خليج العقبة. وتحيط به من الشرق سفوح الجبال الشرقيّة، ومن الغرب نهر الأردن والبحر الميت، وأيضاً وادي عربة. وهذه المنطقة هي الأكثر انخفاضاً عن سطح البحر في العالم كلّه (الطرف الشمالي ٢٠٩ أمتار والطرف الجنوبي ٣٩٤ متراً). غور الأردن هو من أخصب المناطق في البلاد العربيّة، ينتج معظم أنواع الخضار والفواكه للاستهلاك المحلّي وبعضه يصدّر إلى الخارج.

٢ ـ سلسلة الجبال الشرقية: تمتدّ من الشمال إلى الجنوب منحدرة بشدّة نحو الغور وتدريجياً نحو الشرق. وأهمّ جبالها: عجلون (١٢٥٠م)، جبال البلقاء (٩٠٦م)، وجبال الكرك (نحو ٩٠٠م)، وجبال الشراة، وجبال الطفيلة، وفيها أعلى القمم (بين ١١٠٠ و ١٥٠٠م)، وتقع عليها أهمّ مدن الأردن التاريخيّة. وجبال الأردن كثيرة الأمطار إجمالاً.

٣ ـ السهول الشرقية والصحراء: هضاب وسهول تمتدّ من نهاية سلسلة الجبال الشرقيّة حتى تنتهي شرقاً بالصحراء، وتقع فيها مدن الأردن الرئيسيّة كالعاصمة عمان والمفرق والزرقاء. وإنّ أراضي هذه المنطقة معرّضة للشمس وللرياح القويّة الآتية من الصحراء أو من البحر.

● **الاقتصاد**: الإنتاج الزراعي في الأردن، خاصة في منطقة الغور، مهمّ جداً ولكنّه متقلّب حسب المناخ.

ومن أهم المزروعات: القمح والشعير، والعدس والكرمة... والثروة الحيوانيّة تتألف من الأغنام والماعز والجمال. وأهمّ مصادر الدخل الأخرى هي: السياحة، الفوسفات، الأقمشة، الصيد، الإسمنت، والتبغ.

مدن ومعالم

١ ـ عمان: بعد الحرب العالميّة الأولى عادت عمان عاصمة للأردن، وذلك على عهد الأمير عبد الله بن الحسين. فلقد لعبت هذا الدور المهم كمركز إشعاع وحضارة أيّام العمّونيين، ودُعيت في القرن الثالث، في عهد

اليونان، باسم فيلادلفيا، أيّ «المحبّة الأخوية». كما عُرفت أيضاً باسم «أستارتي».

تقع عمان في شمال غرب الأردن. تَعُدُّ نحو مليون نسمة وهي مركز مهمّ للثقافة والتجارة والصناعة. يوجدُ فيها الكثير من الآثار الرومانيّة، والبيزنطيّة والعربيّة، جامعُها الكبير بُني على الأرجح في العصر العبّاسي.

٢ ـ مدينة إربد: تقع على بُعد ٨٨ كلم من عمان و ٦٠ كلم من طبريا، وهي عاصمة محافظة إربد (في الشمال). ترتفع ٦٠٠م عن سطح البحر وهي إحدى المدن العشر (ديكابوليس)، وقد عُرِفَت باسم إربيلاّ قديماً. وهي تَعُدُّ ١٠٠,٠٠٠ نسمة، ومشهورة بمناخها المعتدل وبسهولها الخصبة.

٣ ـ مدينة الزرقاء: تقع على بعد ٢٢ كلم شمالي عمان، وترتفع ٦١٠ أمتار عن سطح البحر. وتعدُّ ٢٠٠ ألف نسمة. إزدهرت تجارياً في عصر الأمبراطور الروماني نيرون (٥٤ ـ ٦٨م).

٤ ـ مدينة جرش: تقع في شمال الأردن على مسافة ٢٥ كلم إلى الجنوب الشرقي من عجلون، وترتفع ٦٠٠م عن سطح البحر، بناها اليونانيّون في القرن الثاني ق.م على عهد الإسكندر المقدوني. إزدهرت في العهد السلوقي واحتلّها الرومان سنة ٦٣ق.م. وسيطر عليها الأنباط فترة من الزمن. وفي القرن الرابع تركّز فيها الكرسي الأسقفي. ودخلت جرش في حوزة العرب المسلمين في عهد الفتوحات العربيّة. ولكثرة آثارها التاريخيّة التي تعود إلى أيّام اليونان والرومان والبيزنطيين أصبحت موقعاً سياسياً مهماً ومعروفاً يقصدها السوّاح من مختلف بلدان العالم.

٥ ـ مدينة عجلون: تقع في شمال شرق الأردن، في محافظة إربد. ترتفع ٧٦٠م عن سطح البحر. وهي تقع على قمّة جبل عوف الواقع في جنوب عجلون الغربي. فيها قلعة الربض التي بناها عزّ الدين عثمان، أحد قوّاد صلاح الدين الأيّوبي سنة ١١٨٤. وفي سنة ١٢٦٠ هَدَمها المغول. تكثر في عجلون الغابات والمراعي وينسب إليها علماء وأدباء عديدون.

٦ ـ **مدينة السلط**: تقع على بعد ٢٩ كلم من عمان، وهي جبالٌ صخرية تمتدُّ بين وادي الموجب ونهر الزرقاء. وكلمة سلط في اللاتيني تعني الغابة، وباللغة السريانية تعني الصوّان والحجر القاسي. ومدينة السلط التي تعدُّ ٥٥,٠٠٠ نسمة هي قاعدة محافظة البلقاء. قلعتها الواقعة على قمة أكمة بنيت سنة ١٢٢٠، ثم أعاد بناءَها الظاهر بيبرس عام ١٢٦١، بعدما دمّرها المغول سنة ١٢٦٠. هذه المدينة مشهورة بعنبها وبرقانها.

٧ ـ **مدينة مأدبا**: تقع مدينة مأدبا جنوب عمّان على مسافة ٣٣كلم. وهي تعدُّ ٣٠ ألف نسمة. يعود تاريخها إلى العصر الحديدي الأوّل (١٢٠٠ ـ ١١١٠ق.م.). وسنة ١١٨٠ق.م. سيطر عليها المؤابيّون، ثمّ الأشوريون فالبابليون الذين أنزلوا بها الويلات. وهكذا تتالت عليها الأحداث حتى استولى عليها الأنباط في القرن الثاني ق.م. وأصبحت مأدبا مدينة نبطيّة سنة ١٦٠ق.م. وقد كتب الأنباط فيها لغتهم التي كانت تتألف في بادىء الأمر من حروف آرامية، ثمّ بدأت تستقلّ فتختلف نهائياً عنها. ومن تلك الحروف النبطيّة المستقلّة نشأت اللغة العربيّة (بعض النقوش موجودة الآن في متحف الڤاتيكان وفي متحف اللوڤر). وفي العهد الروماني ازدهرت مأدبا بانتشار الفسيفساء زينة للهياكل، فاكتسبت المدينة شهرة عالميّة. وأعظم وأروع أثر اكتشف داخل الكنيسة القديمة هو خارطة الأردن وفلسطين التي ترجع بعهدها إلى القرن الخامس أو السادس ميلادي. وهي حقاً تحفة نادرة. كان طول الخارطة الأصلي ٢٤م وعرضها ٦ أمتار، وهي مستوحاة من الكتاب المقدّس.

٨ ـ **مدينة الكرك**: هي أكبر مدينة في جنوب الأردن، وهي قاعدة محافظة الكرك. كانت تعرف قديماً باسم موآب نسبة إلى المؤابيين الذين نزلوا فيها من الجزيرة العربيّة. والكرك لفظة سريانيّة تعني الحصن، والأرجح أنّها كانت حصن المؤابيين. إحتلّها الصليبيّون سنة ١١٧٧ واستولى صلاح الدين الأيّوبي على حصنها سنة ١١٨٨. ومنذ أوائل العهد المسيحي كانت مقرّاً أسقفياً حتى أوائل القرن العشرين. وفي سنة ١٣٠٩ كانت عاصمة دولة

المماليك. قلعتها تشرف على طريق الحجّ والتجارة. وتمتدّ جبال الكرك بين الموجب وبين وادي الحسا. عدد سكّانها ١٥٠ ألف نسمة. ومن أشهر قرى الكرك، قرية مؤتة التي اشتهرت قبيل الإسلام بصناعة السيوف المشرفيّة، وفيها وقعت المعركة المعروفة باسمها بين العرب والبيزنطيين عام ٦٢٩، والتي قتل فيها زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة.

٩ ـ **مدينة المفرق**: تقع شمال شرقي العاصمة عمان، على بعد ٧٢كلم عنها. ترتفع ٧٠٠م عن سطح البحر. والمفرق هي «الغدّين» القديمة، وهي مدينة مهمّة بسبب موقعها كنقطة رئيسيّة بين الأردن والعراق.

١٠ ـ **مدينة معان**: تقع جنوب عمان على مسيرة ٢١٦كلم، وهي قاعدة محافظة معان. ترتفع ١٠٨٠م عن سطح البحر، وهي مدينة صحراويّة حارة، أهميتها في كونها مركزاً مهماً للتجارة والزراعة والإدارة. عدد سكّانها يبلغ نحو ٣٠,٠٠٠ نسمة.

١١ ـ **مدينة العقبة**: هي من المدن الجنوبيّة الرائعة، تقع على البحر الأحمر وفيها موانىء تجاريّة، وأماكن سياحيّة. تاريخها القديم يعود إلى القرن العاشر ق.م. حينما كانت تابعة لدولة الأنباط. موقعها المميّز جعلها تسترعي اهتمام الأدوميين والفينيقيين الذين اتخذوها قاعدة بحرية للتجارة مع أفريقيا. وقد كانت أيضاً محطّة وملتقى للقوافل بين مصر وفلسطين والشام والعراق، وحازت على اهتمام خاص من الأمبراطور الروماني عندما ضمَّ مملكة الأنباط إلى أمبراطوريته سنة ١٠٦م. وفي سنة ٦٦٤ كانت العقبة معبراً للجيوش الإسلاميّة المتوجهة من الجزيرة العربيّة نحو الشام لفتحها، ولقد ظلّت مزدهرة أيّام حكم الخلفاء الراشدين والأمويين حتى جاءت الدولة العبّاسيّة فقلَّ شأن مدينة العقبة... لعبت دوراً تاريخياً أيّام الصليبيين، وفي سنة ١١١٦ استولى عليها الملك الصليبي بلدوين الأوّل، وحصّنها ببناء قلعة كبيرة في جزيرة فرعون المجاورة لمينائها. ولكن، لم يرَ فيها العثمانيّون أيّة أهمية استراتيجيّة، خاصة أنَّ الحجّاج من مصر إلى الحجاز كانوا يسافرون بحراً عن طريق قناة السويس، فأهملوها. آثار العقبة مهمّة: موقع «تل الخليفة» الذي اكتشف فيه

علماء الآثار أفراناً لصهر النحاس، والقلعة وغيرها كبقايا من حضارة الأنباط.

١٢ ـ **مدينة البتراء**: تقع في وادي موسى، تحيط بها الصخور كالسور المنيع. هي «سلع» القديمة، أي الحجر باللغة العبرية. ولقد دعاها اليونان البتراء أي «الصخرة». كانت ملتقى للقوافل بين تدمر وغزّة وخليج فارس والبحر الأحمر واليمن. وقد شُيدت أبّان دولة الأنباط فكثرت فيها الأبنية. ولمّا ذهبت الدولة تخرّب معظمها، ولكن بقي منها إلى الآن أطلال منها خزنة فرعون وهي بناء شامخ منقور في صخرورديّ اللون، على واجهته نقوش وكتابات بالقلم النبطي، وبجانبها مرسح منقور في الصخر أيضاً، ويستطرق من هناك إلى سهلٍ واسع فيه عشرات من الكهوف الطبيعيّة أو المنقورة. ومن آثارها أيضاً البّوّابة الأثرية وقبور بيترا وهيجرا. ولقد كُشف أخيراً في هذه المدينة الوثنيّة القديمة عن آثارٍ لكنيسةٍ بيزنطيّة مزخرفة بالفسيفساء.

١٣ ـ **جدارة**: إحدى المدن العشر، آثارها تعود إلى أيّام اليونانيين والرومان. المدن العشر أو Decopole هي المنطقة التي تحيط ببحيرة طبريا وعمان وتمتدّ حتى شمال اليرموك وفيها المدن الهلنستية العشر: دمشق، فيلادلفيا (عمان) سفيتوبوليس (بيسان)، بيلا، جرش، أبيلاّ، قناثا (قناة)، جدارة (أم قيس)، ديوان (تل الأشعري) هيبوس (قلعة الحصن).

في العهود القديمة

في العصور الحجريّة

ـ في العصر الحجري القديم (٥٠٠٠٠٠ ـ ١٤٠٠٠ق.م): لقد دلّت الاكتشافات الأثريّة على أنّ إنسان ذلك العصر كان يعيش على صيد الحيوانات وجمع النباتات البريّة، ولقد تمّ العثور على مخلّفات من فؤوس يدويّة من حجر الصوّان والبازلت متماثلة الوجهين وذلك في جميع أنحاء الأردن. أمّا في العصر الحجري الوسيط (١٤٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ق.م)، فقد اكتشفت المواقع التي تنتمي إلى هذا العصر في أجزاء مختلفة من الأردن، ومنها قاع الخان والخرافة في الصحراء الشرقيّة، والبيضة بالقرب من البتراء، ومحث في وادي الأردن بالقرب من نهر الزرقاء.

ـ وفي العصر الحجري الحديث الباكر (٨٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ق.م.): كانت مناطق الاستيطان في الصحراء الشرقيّة ووادي ضبي ومناطق الهضاب (البيضاء في الجنوب وأبو صوانة قرب جرش في شمال الأردن ووادي الأردن).

ـ وفي العصر الحجري الحديث المتأخر (٦٠٠٠ ـ ٤٥٠٠ ق.م.): هجر إنسان ذلك العصر الصحراء الشرقيّة بسبب ارتفاع الحرارة والجفاف، وتمركز في مجاري الأوديّة وبخاصة في وادي الأردن (ذراع الحصيني، وتليلات القسول، عزوبه).

ـ وفي العصر الحجري النحاسي (٤٥٠٠ ـ ٣٣٠٠ ق.م.): في غور الأردن، حيث عاش إنسان ذلك العصر، تمّ العثور على آثار عدد محدود من الأدوات النحاسيّة: البلطات والمشابك والمخارز....

العصور البرونزية والحديدية

ـ **العصور البرونزيّة**: عاش إنسان **العصر البرونزي الباكر** (٣٣٠٠ ـ ٢٣٠٠ق.م.) في أرجاء وادي الأردن وقرب وادي عربة. ولأسباب دفاعيّة بنيت المدن على قمم الجبال تحيط بها الأسوار الحصينة. والصناعة كانت شبيهة بالتي عرفت في مصر القديمة كصناعة أكواب المرمر ورؤوس العصي....

أمّا في **العصر البرونزي الوسيط (٢٣٠٠ ـ ١٩٥٠ق.م.)**، فقد ازدهرت الزراعة (القمح، الشعير، الزيتون، الكرامة) والتجارة (مع سوريا والعراق) وأحيطت المناطق السكنية بأسوار منيعة. كذلك عُرِفَ **العصر البرونزي المتأخّر (١٩٥٠ ـ ١٢٠٠ق.م.)** تبادلاً تجارياً واسعاً مع البلدان الغربيّة لمنطقة حوض البحر الأبيض المتوسط كاليونان وقبرص، ويدلّ على ذلك تنوّع المصنوعات والكتابات التي تعود إلى تلك الفترة.

العصور الحديديّة

ـ **في العصر الحديدي الأوّل (١٢٠٠ ـ ٩١٨ ق.م.)** سكن العمّونيّون في المنطقة الوسطى الشماليّة وكانت «ربّة عمّون» أي عُمان الحالية، عاصمتهم. وقد أقاموا حولها سوراً منيعاً، وقد عُثِرَ على تماثيل عديدة لشخصيات ملكيّة تعود إلى ذلك العصر. أمّا المؤابيّون فقد كانت مملكتهم في وسط الأردن، ومن مدنهم الرئيسيّة الكرك وذيبان. أمّا مملكة الأردوميّين فكانت في جنوب الأردن، ومن أهمّ مدنهم: بُصيرة، أمّ البيارة، طولان قرب البتراء وتلّ الخليفة القريبة من العقبة. إنتهت ممالك العمّونيّين والمؤابيين والأدوميّين في القرن السادس ق.م. أثناء الغزوات البابليّة.

وفي العصر الحديدي الثاني (٩١٨ ـ ٣٣٢ق.م.)، سيطر الأشوريون فالبابليون، وأخيراً الفرس على الأردن. ومعهم انتهت فترة الازدهار والحضارة التي عرفتها ممالك مؤاب وعمّون وأدوم.

الأردن في العصر اليوناني

سيطر اليونان على الأردن بعد الانتصار الذي حقّقه الإسكندر الكبير على الفرس في سنة ٣٣٢ق.م. ولكن، في جنوب الأردن، حافظت مملكة الأنباط على استقلالها كما فعلت عائلة طوبيا في عراق الأمير (نيروس). بقيت اللغة الآرامية لغة التخاطب بين الناس وأصبحت اللغة اليونانيّة هي اللغة الرسميّة. ومن المدن المهمّة التي شيّدها اليونان: جرش أم قيس، حسبان، أماتا. وهناك دلائل كثيرة تدلُّ على تأثير الحضارة اليونانيّة: صناعة الفخّار المطلي والمزركش، الجرار والمصابيح... والصحون... والفنّ المعماري، وأيضاً المنحوتات.

وبعد اليونان والحضارة التي نشروها في الأردن سيتمكنّ كل من بطالسة مصر وسلوقيي سوريا من السيطرة على الأردن.

دولـــة الأنبـــاط

أصـل الأنبـاط

إختلف المؤرخون في أصل هذه الأمّة. ذكرهم العرب وهم يعنون بالأنباط أهل العراق. ولكننا عرفنا أخبارهم من روايات اليونان البطالسة والسلوقيين والروم، أو من أسفار الكتاب المقدّس، أو ممّا توصل إليه علماء الآثار، أو ما عُرِف من أخبار البتراء وغيرها من المدن في حوران ومدائن صالح.

وأصبح من المؤكّد أنّهم ظهروا في القرن السادس قبل الميلاد في بادية شرق الأردن. ويشكل الأنباط الموجة العربيّة السامية الرابطة التي قدمت إلى الجزيرة العربيّة، لغتهم المحَلية هي اللغة العربيّة أمّا اللغة المكتوبة فهي اللغة الآراميّة.

مملكـة أدوم

هي مملكة الأنباط نفسها في ما بعد. كانت تقع في الجنوب الشرقي من فلسطين، وتمتدّ من حدود فلسطين إلى رأس خليج العقبة، ويحدّها من الغرب وادي العرابة، ومن الجنوب بادية الحجاز، ومن الشرق بادية الشام، ومن الشمال فلسطين. هذه المملكة كانت تتوسّع حسب العصور، أرضها جبلية تتعالى فيها الصخور، لذلك سميت قديماً «ببلاد الجبال»، واليونان سمّوها بلاد العرب الصخرية Arabia Pêtraia نسبة إلى عاصمتها Pêtra، أي الحجر. وهذه هي الترجمة لاسمها في اللغة العبرانيّة «سلاع»، أي الحجر. ومملكة آدوم عُرفت عند اليهود باسم «سعير»، وعند اليونان باسم أيدومايا.

إنّ أقدم من سكن هذه البلاد الصخريّة هم أكوريون، أي سكّان

الكهوف القدماء، يشهد على ذلك وجود كهوف طبيعيّة أو منحوتة عدّة، وبينها المدافن والهياكل وبعد زمن غلبهم الأدوميّون وسكنوا في منطقتهم. وفي التوراة، في سفر التكوين، أخبار عن علائق الأدوميين بالاسرائيليين. وقد حاول شاول السيطرة على أدوم في القرن العاشر ق.م. فلم يستطع حتى حلّ داود مكانه فتغلّب عليهم وصارت طريقه من أورشليم إلى البحر الأحمر عبر هذه الدولة. وفي زمن ابنه سليمان، أصبحت السفن والمراكب تنطلق من خليج العقبة نحو اليمن والحبشة وإلى الهند أيضاً. وبعد فترة ضعف حكم الإسرائيليين، استعاد الأدوميّون استقلالهم. وفي حملة نبوخذ نصّر على أورشليم، ساعده الأدوميّون كثيراً واشتركوا في نهب المدينة وقتل وتشريد أهلها. ومكافأةً لهم على مساعدته، أيّد نبوخذ نصّر سلطة الأدوميين وساعدهم على توسيع دولتهم إلى حدود مصر وشواطىء البحر المتوسط.

ولكن الأنباط داهموهم من الشرق، وتغلغلوا في أدوم حتى سيطروا عليها، فزالت دولة الأدوميين واندمج أهلها مع الفاتحين. وأنشأ الأنباط دولتهم قبل القرن الرابع ق.م. وبقيت موجودة حتى أوائل القرن الثاني بعد الميلاد، أي حتى سيطر عليها الرومان سنة ١٠٦.

مدينة بترا عاصمة الأنباط

تقع البتراء في وادي موسى، عند ملتقى طرق القوافل بين تدمر وغزّة وخليج فارس والبحر الأحمر واليمن. تحيط بها الصخور كالأسوار المنيعة. وهي أساساً مدينة أدوميّة كانت حصناً منيعاً في أيّام الملك أمعيا سنة ٨٣٨ق.م. ولقد شاهد العرب آثارها بعد الإسلام وسمّوها «الرقيم». وازدهر هذا المكان في ظلّ الدولة الأمويّة وكان يقصده الخلفاء، كما المماليك. وقد اختلط الخيال بالواقع في وصفها؛ فإنها مدينة فريدة من نوعها، أبوابها من الرخام الأخضر، نُحتت في الصخر الزهري اللون، وأشهر ما بقي من آثارها: خزنة فرعون والمرسح المنقور في الصخر والنقوش والكتابات في القلم النبطي، وجميع بيوتها وجدرانها منحوتة في الصخر مؤلفة «وحدة» متكاملة رائعة المنظر.

ملـوك الأنبـاط

إن تاريخ الأنباط يعود إلى القرن الرابع ق.م. عندما فتح الإسكندر الشرق. ففي سنة ٣١٢ق.م أغار أنطيغونس خليفة الفاتح الكبير، على بتراء ومني بالفشل. فعلّل السبب بقوله أنهم عشرة آلاف مقاتل أشدّاء وهم يتمتعون بالحرّية والاستقلال في هذه المنطقة القاحلة الوعرة، إذ إنّ باستطاعتهم تأمين المياه والأكل بواسطة صهاريج منقورة في الصخور، تمتلىء بماء المطر في الشتاء ويؤمنّون سدّها لاستعمالها في الصيف ويعيشون في الجبال، ومن الصعب أن يسيطر عليهم طامع أو فاتح.

بعد عقدين من الزمن انتظم الأنباط، فأنشأوا دولتهم، وحكمهم الملوك النبطيّون وضربوا النقود وعيّنوا الوزراء. وملوك الأنباط تكنّوا باسم الحارث، ويعني باليونانية أرتياس، أي المالك. توالى بضعة عشر ملكاً على الحكم وجدت أسماؤهم منقوشة على النقود. أوّلهم الملك الحارث الأوّل سنة ١٦٩ق.م. وأشهرهم الملك الحارث الثالث الذي استطاع أن يتغلّب على البقاع. فطلب منه أهل دمشق أن يتولّى أمرهم فحكمهم سنة ٨٥ ق.م. وهو أوّل من ضرب النقود من الأنباط، وقد نقل ذلك عن ملوك اليونان.

توسّـع الأنبـاط

في عهد الملوك، ازدهرت الدولة واتسعت فشملت جزيرة سيناء من الغرب، وحوران إلى حدود العراق من الشرق، وبلغت إلى وادي القرى في الجنوب، فدخلت الحجر، مدينة الثموديين، في حوزتهم. وطمع فيهم الرومان وحاربوهم عدّة مرات بدون أيّة نتيجة. وظلّت بترا العاصمة، مركزاً تجارياً مهماً.

ومن طور البداوة وعدم الاستقرار انتقلوا إلى الاهتمام بالزراعة، وبنوا المنازل وعرفوا الحياة الهانئة. ولقد ضمّت مملكة الأنباط عندما اتسعت على المدن التالية: بترا، بصرى، أذرع، عمان، جرش، الكرك، الشوبك، وايلة، والحجر (مدائن صالح). منطقتهم كانت نقطة التقاء بين الشرق والغرب، فلا تمرّ تجارة إلاّ على طرقهم. ولكن، عندما حكم الرومان الأمبراطور تراجان،

استعان بالمصريين وتغلّب على النبطيين سنة ١٠٦ق.م. فتقهقروا واختلطوا بأهل البلد من السريان أو الآراميين منتشرين على حدود سوريا وفلسطين.

لغة الأنباط

اللغة المحكيّة كانت طبعاً اللغة العربيّة. أمّا في ما يتعلّق باللغة الرسمية المكتوبة فكانت اللغة الآراميّة. وأساساً، كانت اللغة البابليّة هي لغة الساميين في العراق والمناطق المجاورة، وكانت تكتب بالحرف المسماري الذي نقل عن السومريين. وبقيت هي اللغة الرسميّة طوال أكثر من ألفي سنة، وبعدها تفرّعت إلى عدّة لغات منها اللغة الآراميّة. وبعد انقضاء العصر البابلي والأشوري، أصبحت الآرامية هي اللغة المتداولة في السياسة والتجارة، في مناطق بابل وأشور وفارس ومصر وفلسطين، وفي بترا. فتعلّم العرب هذه اللغة الآراميّة وبدورها تفرّعت إلى عدّة فروع ومنها النبطي في البتراء.

في العصر الروماني

إحتلَّ الرومان سوريا وفلسطين بين عامي ٦٤ و٦٣ق.م. في بداية العصر الروماني ألّفت المدن التي أسست أيّام اليونان اتحاداً صار معروفاً باتحاد المدن العشر، ومنها: جرش، أم قيس، عمان واسمها القديم ڤيلادلفيا... وغيرها... ولكن، بقي الأنباط في الجنوب مستقلّين حتى استلم الأمبراطور «تراجان» الحكم فضمّهم وخضعوا لسلطته وأصبح الأردن بكامله تحت حكم الرومان، ما عدا الصحراء الشرقيّة التي استقرّت فيها القبائل العربيّة الثموديّة والصفوية...

وفي سنة ١١١ بعد الميلاد، أقام الرومان العديد من الحصون والمعسكرات وأبراج الحماية للمدن المحيطة بالطريق الجديدة «فياتوفا» التي أنشؤوها بين العقبة جنوباً وبصرى شمالاً.

في هذا العهد، أصبحت اللغة اللاتينيّة هي اللغة الرسميّة. ومن المواقع الأثريّة التابعة لهذا العصر، المقابر في حسبان وجبل نبُو Nebo، والمسارح في المدن العشر ذات الملامح الرومانيّة. ومن الآثارات أيضاً، المعابد الرومانيّة: معبد لارتميس ومعبد ليزيوس في مدينة جرش، ومعبد هركوليس في عمان. ويوجد أيضاً ملعب لسباق الخيول في جرش، ونوافير للمياه في جرش وعمان. ومن مدينة عمان إلى مدينة السلط، تشاهد الحصون الرومانية، والقصور والمعابد، وأشهرها قصر البشير. وقد بنى الرومان المخافر للسيطرة على القبائل الصحراوية، خاصة على الطريق التي تصل الكرك بالطريق الصحراوي الجديد...

في العصر البيزنطي

أسست القسطنطينية في سنة ٣٢٤ بعد اعتناق الأمبراطور قسطنطين الدين المسيحي، وأصبحت تضاهي روما، عاصمة الأمبراطوريّة الرومانيّة في الغرب. وبعد صراع مرير ما بين الوثنية والمسيحيّة، انتصر الدين المسيحي في عهد الأمبراطور ثيودوسيوس الأوّل سنة ٣٩٥، فدمّرت المعابد الوثنية في أنحاء البلاد أو تحوّلت إلى كنائس. وظلّ الأردن ينعم بالازدهار كما في العهد الروماني السابق. ولكنّ أطماع الفرس هدّدت المنطقة حتى استطاعوا احتلال سوريا وفلسطين والأردن من سنة ٦١٤ إلى سنة ٦٢٩، فهدموا العديد من الكنائس. وأعاد البيزنطيون سيطرتهم على هذه المنطقة سنة ٦٢٩ عندما استلم الأمبراطور هيروكليس الحكم. وفي سنة ٦٣٦ جرت عدّة معارك بين العرب المسلمين والروم كان من أهمّها معركة مؤته، وآخرها معركة اليرموك في شمال الأردن سنة ٦٣٦م.

في ظلّ دولة الغساسنة

ينتسب الغساسنة إلى القبائل اليمينة التي هجّرت من بلاد اليمن في أواخر القرن الثالث للميلاد. إستقرّوا في حوران وشمال الأردن والبلقاء، وكانت عاصمتهم «الجابية»، ثمّ البصرى في حوران. إعتنقوا المسيحيّة ودخلوا النفوذ البيزنطي وحارب ملكهم الخارث الثاني بن جبلة إلى جانب البيزنطيين، واستطاع أن يخمد ثورة السامريين في فلسطين سنة ٥٢٩. فعينه الأمبراطور «يوستينيانوس» رئيساً على جميع القبائل العربيّة في سوريا، وهو الذي بنى مدينة الزرقاء، ومدينة معان وشيّد قصر المشتى. وقد توسّع الغساسنة فأصبحت مملكتهم من حوران إلى خليج العقبة. وقد بقي لهم بعض الآثار في البلقاء واليرموك وفي مدينة حمص. وترجع بعض الأسر المسيحيّة في الأردن، وسوريا ولبنان إلى نسب الغساسنة.

تحت النفوذ الإسلامي

ظلّ الأردن تحت سيطرة البيزنطيين حتى معركة اليرموك سنة ٦٣٦. ومنذ ذلك التاريخ بدأ الحكم الإسلامي المتواصل (ما عدا فترة سيطرة الصليبيين)، وقد أصبحت كل البلاد العربيّة تأتمر من الخلفاء المسلمين. وأوّل ما انتشرت العقيدة الإسلاميّة كانت في بلاد الشام، التي ضمت العديد من مناطق الأردن في ذلك الزمن، فقد كانت تتألف من إقليمين: إقليم سوريا، وهو يمتدُّ من أنطاكية وحلب في الشمال حتى الجزء الأعلى من البحر الميت. وأقليم فلسطين، وهو يقع غرب البحر الميت وجنوبه. وأمّا أقليم الأردن، فكان يقع بين سوريا وفلسطين.

وألّفت هذه الأقاليم جزءاً من الأمبراطوريّة البيزنطيّة. وتمّ فتح ديار الشام بكاملها في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب الذي نظّمها، وقد قسّمها إلى مقاطعات دعيت بالأجناد ومنها كان جند الأردن. وفي عهد الخلفاء الراشدين نعم الأردن بالاستقرار. ولمّا انتقلت الخلافة إلى بني أميّة، بعد مبايعة معاوية بن أبي سفيان، أصبح الأردن بحكم موقعه، على طريق الحجّ للقوافل المتّجهة نحو الحجاز، وأصبحت اللغة العربيّة اللغة الرسمية بدل اليونانيّة، وأصبحت الديانة الإسلاميّة هي الديانة الرئيسيّة. وبسبب قرب الأردن من دمشق، عاصمة الدولة الأمويّة، ازدهرت المدن، وشُيّدت القصور والمنتزهات، وانتعشت التجارة، وبخاصة مدن أربد ومعان والعقبة وحسبان وعمان. وفي البادية الأردنيّة بنيت القصور الفاخرة التي كان يقصدها الحكام والمقرّبون منهم للاستجمام والراحة. ومن أهم هذه القصور:

- **قصر الحلابّات**: في الشمال الشرقي من عمان على ارتفاع ٦٣٦م عن سطح البحر، وقد كان في القديم حصناً بناه الأنباط، ورمّمه الأمبراطور السوري الروماني كاركلا.

● **قصر الخرّانة**: هو على مسافة ٦٤ كلم شرق عمان، وعلى ارتفاع ٦٥٩م عن سطح البحر، منظره عظيم مع أبراجه العالية.

● **قصر السّراج**: بناه الخليفة هشام عبد الملك.

● **قصر الطوبة**: يقع في وادي غدّان، وقد بناه الخليفة وليد الثاني.

● **قصر المشتى**: بني في عهد الوليد الثاني، وهو أكثر القصور الأمويّة أبهةً وفخامة بسبب أبراجه العالية وواجهته المزينة بالنقوش والأشكال الهندسيّة المتنوعّة، وفي داخله قاعة للعرش تحيط بها الأعمدة الرخاميّة الأنيقة.

● **قصر عمره**: في وادي البطم، شرق عمان، بني على عهد الوليد بن عبدالملك عام ٧١٢. زيّنت أراضيه بالفسيفساء وتصاميمه مستوحاة من الأسلوب الروماني في البناء.

ولقد نشطت مدن عدّةً في العصر الأموي، ومنها عمان، جرش، إربد، أمّ الجمال، وأمّ الرصاص. وألغيت جميع المخافر على الطرق الصحراويّة لأنّها أصبحت جميعها تابعة للنفوذ الأموي. وحصل زلزال عنيف في نهاية العصر الأموي سنة ٧٤٧ أحدث كوارث عديدة.

وعندما انتقلت الخلافة إلى العبّاسيين (٧٥٠ ـ ٨٧٨م)، أصبحت العاصمة بغداد، فضعف عندئذٍ مركز الأردن في مجالات عدّة: الصناعة والتجارة والفنون... وكان الشعب الأردني يعاني من نتائج الزلزال على حياته اليوميّة من انتشار الأمراض، وتدمير البيوت. وبالرغم من ازدهار الثقافة العربيّة في العهد العبّاسي في معظم أنحاء البلاد العربيّة، إلاّ أنّ الأردن بقي مهملاً، خاصة من ناحية البناء والعمران. فلقد اهتمّ الخلفاء خاصة ببغداد وما يحيط بها من مدن، وهناك بنوا المساجد والمستشفيات والمدارس. وفي سنة ٨٧٨ انتهت السيطرة العبّاسيّة على الأردن، عندما احتلّ الطولونيّون والأخشيديّون مصر. ثمّ انتقلت السيطرة إلى الفاطميين عام ١٠٧١.

وفي أواخر القرن الحادي عشر غزا الصليبيّون الأردن وفلسطين، وأسسّوا مملكة صليبيّة في القدس. وأهمّ إنجازاتهم كان بناء حصنين، الأوّل في الكرك والثاني في الشوبك.

في عصر المماليك

إشتملت أمبراطوريّة المماليك على مصر وبلاد الشام وأرمينيا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسّط، بعدما قضوا على المغول وحدّوا من غزواتهم سنة ١٢٦٠ وسنة ١٤٠١، ما عدا الغزوة الأخيرة التي قادها تيمورلنك، فإنها دمّرت الأردن. وفي بداية القرن السادس عشر، ضعفت الدولة المملوكيّة، وبالتحديد سنة ١٥١٦، واستطاع العثمانيّون أن يهزموا المماليك فيصبح الأردن جزءاً من أمبراطوريتهم الواسعة. ولقد عرف الأردن الازدهار الكبير في عهد المماليك الذين بنوا المساجد والمدن والقلاع والمستشفيات واستخرجوا النحاس والحديد، ولكن معركة مرج دابق كانت حاسمة لمصلحة العثمانيين، فوقع الأردن كغيره من الأقاليم العربيّة تحت حكم العثمانيين الأتراك.

في العهد العثماني

إنتهى العهد المملوكي بعد قرنين ونصف القرن تقريباً عندما سقطت منطقة بلاد الشام سنة ١٥١٦ في أيدي العثمانيين. وكانت الدولة العثمانية قد سيطرت على بلاد البلقان، وآسيا الصغرى، والبلاد العربيّة بكاملها تقريباً. فأصبحت بلاد الشام، ومنها الأردن، ولاية عثمانية، عاصمتها دمشق وتضمّ متصرفيات حماة وحوران وشمال الأردن والكرك (١٨٨٧). وفي سنة ١٩١٨، فُصلت متصرفيّة الكرك عن ولاية سوريا، كما فُصل قضاء عجلون والرمثا عن متصرفيّة حوران. وأصبحت هذه المنطقة تعرف باسم شرق الأردن. وفي أوائل القرن السادس عشر، كان قد ضعف مركز الشام بالنسبة للتجارة العالميّة؛ إذ بعد الاكتشافات الأوروبيّة لأميركا ولطرق الملاحة حول أفريقيا عزلت بلاد الشام وقضت الإدارة العثمانية على نشاطها الفكري والتجاري والاقتصادي بكل أوجهه، خاصةً أن همَّ الولاة الأوّل كان فرض الضرائب على الشعب واستيفائها بأقل وقت ممكن، ليستفيدوا منها قبل غيرهم، إذ انّ عدد الولاة العثمانيين قارب المئتين خلال فترة سيطرتهم على المنطقة. وكانت علاقات الولاة تسوء في ما بينهم فتؤثر سلباً على أوضاع البلاد، ناهيك عن أعمال النهب والفوضى...

ولكن، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، بدأت البلدان العربيّة تطلّع على الحضارة الغربيّة الأوروبيّة، خاصة عندما وصل نابليوت بونابرت سنة ١٧٩٨ إلى مصر وواصل تقدّمه نحو جنوب الشام سنة ١٧٩٩. ثم احتلّ محمّد علي وجيشه المصري هذه المنطقة، فطرد منها العثمانيين لفترة من الزمن (١٨٣٨ ـ ١٨٤٠). كما بدأ الغرب يرى في هذه المنطقة من الشرق مركزاً مهماً لتسويق المواد الأوليّة، باعتبارها منطقة التقاء بين الشرق والغرب، ممّا غذى فكرة الاستعمار لدى الدول الأجنبيّة للاستفادة من هذا الموقع الستراتيجي.

وبينما كانت الدولة العثمانيّة تعاني من الفوضى في نظامها، وقد ضعفت هيبتها في سوريا والأردن، بدأ الوعي واليقظة الوطنيّة يدبّان في نفوس المواطنين، وقد انتشرت المطابع والكتب والمدارس، وازدهرت بعض الصناعات، وأحدثت طرق المواصلات في بعض المناطق. وتفتّح أيضاً الوعي الاجتماعي والسياسي بانتشار أفكار الاستقلال والتحرّر والقوميّة.. وتعمّقت هذه الأفكار خاصةً عندما استلم السلطان عبد الحميد الثاني زمام العرش (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩)، وسيطر على المنطقة فارضاً ظلمه واستبداده على الشعب. فهاجر العديد من المواطنين طلباً للرزق، أو هرباً من التعسّف والظلم. وأسس الشباب المناضل عدّة جمعيات سرّية، بهدف تحرير العرب من سيطرة السلطنة العثمانيّة وشاركت هذه الجمعيات في التحرّكات المناهضة للأتراك. ففي مؤتمر باريس ١٩١٣، وفي ثورة الشريف حسين، كانت غالبية المشاركين من بلاد الشام، أبناء سوريا والأردن.

لم تبذل الدولة العثمانية أي اهتمام لمصلحة أهل البلد في شرق الأردن من تأمين مستلزمات الحياة اليوميّة المعيشيّة، بل أثقلت كاهلهم بدفع الضرائب وانتشار الفوضى. ولكن، بالمقابل، اهتمّت بهذا البلد كونه طريق الحجّاج القادمين من بلاد الشام نحو الأماكن المقدّسة، فبنت القلاع، وحفرت الآبار لتأمين المياه، ثمّ اتفقت مع مشايخ البدو ليتعهدوا بتأمين ذلك مكانها.

وكانت الدولة العثمانيّة توجّه الحملات العسكريّة إلى المناطق التي تحصل فيها اضطرابات أو احتجاجات، فتضرب المواطنين وتفرض عليهم الخوّة وهي عبارة عن ضريبة ابتزازيّة. كل ذلك أدّى إلى تدهور الوضع في البلاد العربيّة، وأحسّ الشعب بالذلّ والقهر، إذ انتقلت عاصمتهم إلى خارج بلادهم. وأصبحت لغة الدولة الرسميّة اللغة التركية بدل لغتهم العربيّة. وقد عُزلت البلاد العربيّة عن أوروبا. تضافرت كل هذه الأسباب، فاشعلت الثورة في نفوس المواطنين. فعمل العرب على إنشاء جمعيات تصدر المنشورات الداعية إلى الحرّية والاستقلال وتندّد بالاحتلال التركي، وبدأت تظهر فكرة القوميّة العربيّة. وهذه النشاطات قامت في دمشق وبيروت وإربد والسلط وحلب وصيدا والعقبة.

وفرض الأتراك في الأردن جمع الأموال وتجنيد الرجال في الجيش العثماني. وقد تمرّد عليهم مشايخ البدو في بادىء الأمر، بينما لم يجرؤ على ذلك أهل المدن والريف، فلم تستطع الدولة العثمانيّة أن تفرض سلطتها كاملةً عليهم. وأوّل حركات العصيان بدأت في منطقة الشوبك حيث قام رجال القرية سنة ١٩٠٥، بتمرّد ضد مأموري الدولة. وبعد فشل المفاوضات بين أهل الشوبك والأتراك، أرسل هؤلاء الجنود لتأديب أهل المنطقة.

وبعد خمس سنوات على هذه الحوادث، أتى دور أهل الكرك الذين انتفضوا ضدّ حكم الأتراك. وهذه الثورة كانت مهمّة جداً في تاريخ الأردن. فقد رفض فيها الأهلون دفع الضرائب التي أثقلت كاهلهم (ضريبة الأغنام، الضريبة العسكريّة، ضريبة الدور والمسقفات، ضريبة العشر...). وقد تجرأ أهل الكرك على مهاجمة دار الحكومة واحتلوها وقتلوا من فيها.. ودارت معركة بينهم وبين القوات المتمركزة في القلعة، فاضطرّ الأتراك إلى استعمال كل الوسائل لصدّ الهجوم... وهذه الثورة امتدّت إلى الجنوب الأردني كلّه، إلى الطفيلة ومعان... ولكنّ ردّ الأتراك كان قاسياً، كما في كل مرّة كان ينتفض فيها الشعب ضدّهم.

مؤتمر باريس العربي

هذا المؤتمر هو أوّل مؤتمر عربي إسلامي على الصعيد الدولي في القرن العشرين. انعقد في باريس من ١٧ إلى ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩١٣، وكان الهدف منه الاعتراف بأنَّ البلدان العربيّة مميّزة عن غيرها من البلدان الواقعة تحت النفوذ العثماني. وخرج هذا المؤتمر بعدّة مطالب لم يقبل بها الجانب العثماني.

ثـورة الحسـين

من الأعمال المشينة التي قام بها جمال باشا السفّاح، وزير الحربية العثمانية، هو تنفيذ حكم الإعدام في أحرار الشام في السادس من أيّار (مايو) سنة ١٩١٥، ممّا دفع بالشريف حسين، شريف مكة، إلى العمل فوراً من أجل الحريّة، فأطلق الثورة على الأتراك من الحجاز. وكان من المنتظر أن

تشارك بلاد الشام فيها ولكنّ الحلفاء تخلّفوا عن مساندة العرب فلم ينزلوا قواتهم هناك. وفي بداية سنة ١٩١٧، بدأت استعدادات الأمير فيصل بن الحسين لمعركة تحرير بلاد الشام، وعقد عدّة لقاءات مع زعماء من الأردن وسوريا. وبعد زحفٍ طويل في الصحراء، من الشرق نحو الغرب، توصّل العرب إلى احتلال العقبة، وأصبحت مركزاً لقيادة الأمير فيصل. ومنها انتقل العرب إلى الطفيلة لتحريرها في سنة ١٩١٨. ولكن سرعان ما استعادها الأتراك بدعم ألماني. ثم عادت، بمساندة الإنكليز، إلى العرب. أمّا هجوم العرب علىّ مدينة معن فقد بدأ في ١١ نيسان (أبريل) ١٩١٨، وأثبتت القوات العربيّة مقدرتها فتابعت سيرها حتّى حرّرت الجنوب الأردني بكامله.

وتحرير الأردن كان مرتبطاً بتحرير فلسطين. ففي هذا الوقت، كان قد عُيّن قائد جديد للقوات البريطانيّة. وإذ كانت عمليات الجيش البريطاني الزاحف على فلسطين تسير على مهل في سيناء وجنوب فلسطين، رأى الجنرال اللنبي ضرورة التنسيق مع الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل ومساعدته لطرد الأتراك من البلاد العربيّة. وفي سنة ١٩١٨ تتالت الحملات الإنكليزيّة ـ العربيّة من غزّة إلى بئر السبع، فمدينة الخليل وبيت لحم. وفي الربيع من سنة ١٩١٨ طاردت القوات التركيّة حتى أراضيها، وعبرت دمشق فحلب حتى الحدود التركيّة. وبذلك تحرّرت فلسطين والأردن من حكم عثماني ظالم دام أربعة قرون. وتخلّص الشعب العربي من نير الاحتلال الغاشم الذي تضاعفت أضراره على الشعب الأردني، خاصة خلال الحرب العالميّة الأولى. ففي تشرين الثاني عام ١٩١٤، دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، فضرب «الحلفاء» الحصار على سواحلها ومنعوا دخول البضائع إلى بلدانها، ومنها الدول العربيّة. فتأثّرت الساحة الأردنيّة من تلاحق المصائب عليها؛ إذ فقدت مواد السكر والكاز والأرز من الأسواق، وارتفعت أسعار بعض السلع وانتشرت الأوبئة. كما استعمل الأتراك الأحراج بأشجارها كوقود للقاطرات وغيرها. وقلّت المؤن، وقد صادرها الأتراك ووزّعوها على أفراد جيشهم. كما وصل إلى الأردن العديد من المهاجرين الأرمن...

كان من الطبيعي أن يكون العرب في الخندق المقابل لخندق

الألمان، أي أن يؤيدوا «الحلفاء» في الحرب، فاتجهوا نحو الإنكليز. وهذا ما دفع بشريف مكّة إلى إقامة اتصالات مع الحكومة البريطانية منذ سنة ١٩١٢. وقد عرفت هذه الاتصالات الخطيّة «برسائل حسين ـ مكماهون». ولقد توصّلت هذه المحادثات بين الشريف حسين ونائب الملك البريطاني المقيم في القاهرة، السير مكماهون، إلى عدّة مفاهيم، أهمّها الحرص البريطاني على مساعدة العرب لتحرير أرضهم من الحكم التركي، وموافقة الشريف حسين على أن تتخّذ بريطانيا إجراءات خاصة في بغداد والبصرة، وأن يكون لها بالتالي حق السيطرة على منطقة شرق الأردن وبعض المنطقة البدويّة، وأن يكون لفرنسا إدارة مباشرة في لبنان وفي سوريا. أمّا في فلسطين، فالإدارة تكون دولية... إن مضامين هذه الرسائل هي ذاتها أهداف اتفاقات سايكس ـ بيكو بين بريطانيا وفرنسا وروسيا. وقد أدركت هذه الدول رغبة العرب في التخلّص من الأتراك وتوقهم إلى الاستقلال. ففي سنة ١٩١٦، بدأت المفاوضات بين السير مارك سايكس عن الإنكليز وشارل بيكو عن الجانب الفرنسي. وقد وافقت الحكومة الروسية على المقترحات الإنكليزيّة ـ الفرنسية مقابل موافقة هذين البلدين على مطالبها في الأناضول الشمالي الشرقي. ولقد قام التفاهم بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية حول هذه النقاط:

١ ـ إستعداد الدولتين للإعتراف بدولة عربيّة أو اتحاد لدول عربيّة ولحمايته أو حمايتها تحت سلطة رئيس عربي.

٢ ـ إعطاء الحق لفرنسا ولبريطانيا بإقامة الإدارات أو القيادات المباشرة أو غير المباشرة في البلدان التي ستكون تحت سيطرتها.

٣ ـ إقامة إدارة دولية في منطقة فلسطين.

٤ ـ حصول بريطانيا على ميناءي حيفا وعكا، وتموين محدّد من المياه من دجلة والفرات...

٥ ـ تعتبر الإسكندرونة مرفأً حراً لتجارة الأمبراطوريّة الإنكليزيّة... وكذلك لبريطانيا حريّة العبور (ترانزيت) بالسكّة الحديد وبالمقابل تكون حيفا مرفأً

حرًّا بالنسبة للتجارة الفرنسيّة ولمحميات فرنسا، ويكون لفرنسا أيضاً حقّ العبور (ترانزيت) بالسكّة الحديد. . .

٦ ـ إنّ سكة حديد بغداد تمتدّ فقط جنوباً إلى الموصل وشمالاً إلى سامرّاء، وذلك إلى أن يتمّ بناء سكّة حديد تصل بغداد بحلب عن طريق وادي الفرات.

٧ ـ إنّ لبريطانيا الحقّ في بناء سكة حديد تصل حيفا بمناطق إدارتها وهذه السكّة تربط بغداد بحيفا.

٨ ـ يسري مفعول التعرفات الجمركيّة الراهنة لمدّة عشرين سنة ولن تحدث زيادة في نسبة الرسوم على القيمة المخمّنة للرسوم العينيّة إلاّ باتفاق بين الدولتين. . .

٩ ـ لن تتنازل الحكومة الفرنسيّة عن حقوقها لأي طرف ثالث ما عدا الدولة العربيّة بدون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانيّة. . .

١٠ ـإتفقت الحكومتان الفرنسيّة والإنكليزيّة على منع أيّة قوة ثالثة من إقامة قاعدة بحرية على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ولا على جزره كما لن تحصل أيّة قوة ثالثة أو حتى فرنسيّة أو إنكليزيّة على ممتلكات إقليميّة في شبه الجزيرة العربيّة.

١١ ـ تقوم الحكومتان الفرنسية والإنكليزية بالمفاوضات مع العرب بما يختص الأمور السياسيّة والعسكريّة. . .

وفي الثالث والعشرين من شهر أيّار (مايو) ١٩١٦، وضعت الحكومة الروسية اتفاقية «بيترغراد» نتيجة لرسائل متبادلة بين الروس والفرنسيين واطّلعت عليها الحكومة البريطانيّة لاحقاً، وهي تقوم على النقاط التالية:

١ ـ تضمّ روسيا مناطق أرضروم وطرابزون ووان. . .

٢ ـ تبدأ حدود الدولة العربيّة من منطقة مرج وار وتتبع خط قمم الجبال التي تفصل المناطق العثمانيّة عن المناطق الفارسيّة.

٣ ـ تلتزم الحكومة الروسية بكل الامتيازات التي قدّمتها الدولة العثمانيّة للإنكليز والحفاظ على الحقوق البريطانيّة في الملاحة.

أمّا الوثيقة الثالثة التي صدرت في تلك الأيام فهي وعد «بلفور» في الأوّل من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، وقد بقيت سريّة نسبة لخطورتها. والذي أصدرها يدعى آرثر جيمس بلفور، وهو إنكليزي الجنسيّة، يهودي العقيدة. ولد سنة ١٨٤٨ وتوفي عام ١٩٣٠، قبل أن يشهد تحقيق حلمه. وقد انتسب إلى حزب المحافظين في إنكلترا وأصبح عضواً في البرلمان، واستلم مناصب عدّة، أهمّها رئاسة الوزراء ورئاسة الحزب. وكانت له علاقات واسعة مع الصهيونيّة العالمية. ووعده المشبوه هذا لا يستند إلى أيّ قانون دولي، ويهدف إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين مع احترام الحقوق المدنيّة والدينيّة للطوائف غير اليهوديّة الموجودة في فلسطين... وقد نال هذا الوعد رضى الإنكليز بشكل سرّي حتى لا يوقظوا غضب العرب الذين كانوا يخضعون لسلطتهم في البلدان العربيّة.

في هذه الأثناء، وبعدما أخلى العثمانيون دمشق وسائر بلاد الشام، رفع العلم العربي فوق الأبنية الرسمية، وبايع الإنكليز الشريف حسين في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦ ملكاً على العرب في مكة، واعترف به الفرنسيّون أيضاً.

تأسيس شرق الأردن

بعد الحرب العالميّة الأولى، تحرّرت البلاد العربيّة من حكم الأتراك، ولكنها وقعت تحت هيمنة الحلفاء الذين اتفقوا على تقاسمها. فلقد كانت الحرب العالميّة الأولى خطاً فاصلاً ونقطة تحوّل في تاريخ الشرق الحديث، وإن تكاثر الأحداث التي أدّت إلى سقوط الأمبراطوريّة العثمانية، لم تفسح المجال الكافي للبلدان العربيّة لتحقيق ما تصبو إليه من حريّة واستقلال. والرغبات الأوروبيّة الاستعماريّة دفعت بالولايات المتحدة إلى التخليّ عن سياستها المقرّرة، وهي عدم التدخل في شؤون الشرق الأوسط. وعرضت ذلك على الكونغرس فرفض التدخل. ولكن، عندما شارك الرئيس «ويلسن» في مؤتمر السلام في باريس طلب دراسة الوثائق والتقارير، فرفض مشروع الدول الأوروبيّة الذي يقضي بضمّ الأراضي المعطاة لها انطلاقاً من معاهدات الحرب، ورأى أنّ ذلك سيعرقل قيام هيئة الأمم المتحدّة. وفي ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩، تمت موافقة الدول الكبرى على فصل أرمينيا وسوريا والأردن وما بين النهرين والجزيرة العربيّة عن الأمبراطوريّة العثمانية ووضعها تحت الانتداب. وفي ربيع عام ١٩١٩ اقترح «هوارد بليس»، رئيس الجامعة الأميركيّة في بيروت، إجراء استقصاء لرغبات الأهالي في سوريا ولبنان والأردن. فقامت لجنة أميركيّة بذلك وأوصت بما يلي:

- فرض الإنتداب البريطاني أو الأميركي على سوريا.
- ضمّ فلسطين إلى دولة عربيّة تحت حكم الأمير فيصل.
- فرض الإنتداب البريطاني على العراق.
- إقامة دولة أرمينيّة جديدة.

- وضع القسطنطينيّة ودول الأناضول التركيّة تحت انتداب دول مختلفة (التدويل).
- رفض طلب اليونان بقسم من الأناضول.
- وضع الأجزاء غير العربية من الأمبراطوريّة العثمانيّة تحت الإنتداب الأميركي.

لم توافق فرنسا على هذه المقترحات لأنّها كانت ترى حقوقها في لبنان وسوريا حقوقاً تاريخية... والجانب الصهيوني رأى فيها مخالفة لوعد بلفور. وبدأ جلاء القوات البريطانيّة عن سوريا. وفي نيسان (أبريل) ١٩٢٠، عقد مؤتمر «سان ريمو» في إيطاليا شارك فيه رؤساء حكومات الحلفاء، وجاءت مقرراته متوافقة مع اتفاقيّة سايكس بيكو، ومنها:

- منح الجزيرة العربيّة استقلالها التام.
- خضوع سوريا للإنتداب الفرنسي.
- خضوع لبنان أيضاً للإنتداب الفرنسي.
- فرض الإنتداب البريطاني على العراق والأردن وفلسطين.

وهذه المقترحات صادق عليها مجلس عصبة الأمم في ٢٤ تمّوز (يوليو) ١٩٢٢ وأصبح الإنتداب حكماً واقعاً في هذه المنطقة.

كانت منطقة شرق الأردن حتى عام ١٩١٨ جزءاً من ولاية، دمشق أيّام السلطنة العثمانيّة ودخلت مع أراضي سوريا الحالية تحت حكم الأمير فيصل، وهو ابن شريف مكّة ملك الحجاز في ما بعد. وقد عُيّن فيصل قائد فصائل الثوّار العرب. وفي أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩١٩، اتخذت الحكومتان الإنكليزيّة والفرنسيّة قرارات، منها:

أ - جلاء القوات البريطانية عن سوريا واستبدالها بقوّات فرنسيّة في غرب خط سايكس - بيكو.

ب - ضم ولاية الموصل إلى المنطقة البريطانيّة في العراق.

ج ـ إطلاق يد بريطانيا في فلسطين.

د ـ إبقاء منطقة شرق الأردن تحت الاحتلال البريطاني.

وكانت منطقة شرق الأردن قد أصبحت تابعة للإدارة البريطانيّة، منذ ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٨، أي قبل عام تقريباً من اتفاق الحكومتين الفرنسيّة والإنكليزيّة، بعدما وضعها الجنرال الإنكليزي اللنبي تحت إمرته.

وفي دمشق، قرّر ديوان الشورى الحربي إعادة تنظيم الجيش العربي على الأصول العسكريّة الحديثة بقيادة ضبّاط وصلوا إلى رتبهم العسكرية بالتدريج، لا بواسطة التكريم والمنح. وفي ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩١٩، أحدثت تشكيلات جديدة في البلاد، فألغيت التشكيلات التركية. وصادق الأمير فيصل على هذا التغيير وأصبحت سوريا مقسّمة إلى ثمانية ألوية تشمل ثلاثة منها على ما سميّ في ما بعد بشرق الأردن:

١ ـ لواء الكرك، ومركزه الكرك، وتتبعه أقضية الطفيلة ومعان والعقبة ونواحي الشوبك ـ ذبيان ـ تبوك.

٢ ـ لواء البلقاء، ومركزه السلط، وتتبعه الجيزة وعمان وناحية مأدبا.

٣ ـ لواء حوران، ومركزه درعا، وتتبعه أقضية أذرع، بصرى، المسميّة، عجلون، وجرش...

كما أنشأ الأمير فيصل في الأردن «مجلس العشائر» يرأسه الشريف محمد علي بديوي. وأقرّت حكومة الفيصل نظام التجنيد الإجباري وشكّلت لجنة وطنيّة في عجلون لمساعدة العساكر في النواحي المعيشيّة. وفي شرق الأردن نشطت الحركة الوطنية المناهضة للاستعمار الغربي ولوعد بلفور خاصة، فلقد شارك العديد من أبناء شرق الأردن في المؤتمرات الوطنيّة. وفي أوّل اجتماع لهم في الأردن في قرية، «قسم» قرّروا القيام بهجوم على الإنكليز واليهود؛ فكان أن أغاروا على سمخ وبيسان وغيرهما من القرى اليهوديّة. فانقطع سير القطارات بين حيفا ودمشق، وتعطّلت المواصلات السلكيّة واللاسلكيّة، فقصفت الطائرات الإنكليزيّة حشودات المهاجمين، وكانوا قد قطعوا نهر اليرموك للوصول إلى سمخ ونهر الأردن للوصول إلى

بيسان. وقبل ذلك سجّلت عدّة هجومات قام بها العرب ضدّ اليهود والإنكليز، حيث هاجم بدو شرق الأردن مستعمرات المطلّة، وتل حي والحرّاء وكفر جلعاد...

إذاً، لقد أصبحت منطقة شرق الأردن خاضعة للنفوذ البريطاني بموجب الاتفاقيات المعقودة بين بريطانيا وفرنسا. وعندما انهارت حكومة الأمير فيصل في دمشق، قرّرت بريطانيا إقامة حكومات محليّة لملء الفراغ الذي أحدثه سقوط الفيصل، وهذه الحكومات عملت تحت إمرة الضبّاط الإنكليز. ولهذا الغرض دعا المفوّض السامي البريطاني في فلسطين «هربرت صموئيل» أعيان الأردن للتفاوض معه. وتمّ الاجتماع في مدينة السلط في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٢١، وكانت الأهداف البريطانية كانت تأسيس إدارة منفردة في شرق الأردن بدل إلحاقها بإدارة فلسطين، وتنفيذ العدالة، وتنظيم جباية الضرائب، وتحسين الطرق، وبناء المدارس، وتأمين الطبابة... أمّا مطالب أهل شرق الأردن فكانت التالية:

١ - تشكيل حكومة عربيّة تدعمها بريطانيا.

٢ - إحترام الأماكن المقدّسة الإسلاميّة والمسيحيّة في القدس.

٣ - عدم السماح بالهجرة اليهوديّة إلى فلسطين.

٤ - تحديد الوضع الإداري والسياسي لمنطقتي العقبة ومعان.

لم يوافق الإنكليز على إنشاء حكومة مركزيّة قوية، بل عملوا على إنشاء حكومات محليّة لإضعاف الإرادة الأردنية الوطنيّة المناهضة للإنتداب ولقوى النفوذ البريطانيّة التي تهيمن على كل المناطق بواسطة ضبّاطها. وبالتالي، ونتيجة لهذه المقرّرات، تألفت في كلّ من السلط والكرك وإربد حكومة محليّة يديرها رجل من أعيان المنطقة ويمثل بريطانيا فيها مندوب غير محدود الصلاحيّة.

إنّ الحالة الاجتماعيّة والسياسيّة والمالية التي عاشتها الحكومات المحليّة وقفت حائلاً بينها وبين تشكيل قوات عسكريّة وأمنية تضبط الوضع، وتخفف من حدّة الانقسامات التي أضعفت هيبة الدولة وأفقدتها ثقة الشعب بها.

وكانت الأسلحة التي بأيدي المواطنين أكثر عدداً من الأسلحة التي بحوزة السلطة، فكان من الصعب جداً ملاحقة المخلّين بالأمن والعابثين بالنظام. ولقد توقّع الإنكليز، ذلك فهم كانوا يعرفون جيّداً وضع البلاد وقدرات الحكومات المحليّة على إدارته. وقد فشلت في جبي الضرائب من الأهلين بصورة منتظمة، ممّا أفقر الخزينة. كما واجهت هذه الحكومات أيضاً مشكلة السيطرة على القبائل البدويّة المنتشرة في المناطق الأردنية؛ ، فكل قبيلة لها جذورها في بلدٍ من البلدان العربيّة المجاورة، ولها من يدعمها ومن تعود إليه في الأزمات. وفروع هذه القبائل توزّعت في فلسطين وسوريا والجزيرة العربيّة؛ وحتى في مصر...

إذاً، لم يرغب الإنكليز في إقامة حكومة مركزية قويّة حتى تبقى هذه البلاد تحت قبضتهم، وبقيت الحال هكذا حتى اضطروا إلى إنشاء حكومتين عربيتين في العراق وفي الأردن، واحدة لفيصل والثانية لعبد الله، وهذا القرار كان قد اتخذ في مؤتمر القاهرة.

وبعدما كانت شرق الأردن تابعة لولاية دمشق، اعتبرها البريطانيّون منطقة مهمة جداً بالنسبة لسياستهم في الشرق الأوسط من الناحية الاستراتيجيّة خاصة، فهي الممر بين مصر والعراق. وضبط الأمن في شرق الأردن يعني للبريطانيين ضبط الأمن في فلسطين بعد اتفاقيّة سايكس - بيكو.

فقد العرب ثقتهم العمياء بالإنكليز الذين مدّوا لهم يد العون للتخلص من الأتراك وحكمهم الاستبدادي الذي طال أربعة قرون، وخافوا من أطماعهم الاستعماريّة. لذلك قام الوطنيّون بعدّة انتفاضات ضد الإنكليز في عام ١٩١٨، نذكر منها انتفاضة النجف، ثم انتفاضة السليمانية. وسنة ١٩٢٠، قامت ثورة الشعب العراقي، إضافة إلى نضال الشعب العربي في البحرين وعمان.. وفي ظلّ هذه الأحوال، وانهيار الحكومات المحليّة في الأردن، وسقوط مملكة فيصل في سوريا، وعدم استقرار سياسة الإنكليز في بلدان الشرق الأوسط، كان قد وصل إلى معان الأمير عبدالله، وهو ناقمٌ على الفرنسيين، معلناً نيته في طردهم لإعادة أخيه الملك فيصل إلى الحكم. وقد واصل حملته عندما وصل إلى عمان، فعرض عليه الإنكليز إمارة شرق

الأردن حتى يثنوه عن عزمه على طرد الفرنسيين لأنَّ ذلك يشكّل خطراً على تنفيذ اتفاقيّة سايكس ـ بيكو. وهكذا تمّ إنشاء حكومتين عربيتين في العراق والأردن، ترأس الأولى الملك فيصل بن الحسين والثانية ترأسها الأمير عبدالله، وهو الابن الثاني لحسين، شريف مكّة وأخو الملك فيصل. وكانت الحكومة البريطانيّة قد فرزت شرق الأردن في نيسان (أبريل) ١٩٢١ واعتبرتها أرضاً متميزة تشملها شروط الإنتداب على فلسطين. وتعهّد الأمير عبدالله للبريطانيين بالحفاظ على أمن الحدود بين الأردن وفلسطين والأردن وسوريا. وقد وافقت عصبة الأمم على هذا المشروع (أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢).

ففي كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢١، عيّن ونستون تشرشل وزيراً للمستعمرات واختار مشرفاً على قسم الشرقين الأدنى والأوسط. ورأى تشرشل أنّه من الضروري عقد مؤتمر يجمع كل الأطراف وذلك بهدف وضع سياسة استعماريّة جديدة خاصة بالوطن العربي، وإعداد أساليب جديدة لإدارة البلاد العربيّة. وعُقد هذا المؤتمر في القاهرة، لأنّ تشرشل كان يرى أنّه من الضروري تعزيز جميع اقتراحاته من القاهرة ولندن لكي يثبّت سياسته في الشرق. وكان يرى أهميّة الدعم البريطاني للأردن لأنّه يتمتّع بموقع استراتيجي لا يجب إهماله، ورغب في إبعاد الأردن عن التيّارات المعادية لليهود من فلسطين.

مؤتمر القاهرة (١٩٢١)

شارك فيه أربعون دبلوماسياً بريطانياً من الموظفين الاستعماريين والإداريين في مختلف البلدان العربيّة. وحضره أيضاً لورنس وكوكس وهيرثرود أبيل والمستشرق يونغ والجنرالات روكليف وأيرونسايد وجميع الممثلين السياسيين في هذه المنطقة. وتوزّع العمل على ثلاث لجان: ١ ـ اللجنة السياسيّة. ٢ ـ اللجنة العسكرية. ٣ ـ اللجنة الماليّة. وترأس ونستون تشرشل اللجنة السياسيّة يعاونه لورنس، وتمّ الاعتراف بضرورة حصول تغيير جذري للسياسة البريطانية في البلاد العربيّة، خاصة بعد حركات النضال المعادية لبريطانيا التي بدأت تظهر في عدّة مناطق من هذه البلاد. واعتبر المؤتمرون أن مشكلة شرق الأردن هي مشكلة خاصة من الناحية السياسيّة

نظراً لالتزام بريطانيا في فلسطين ولقرارها بالقضاء على كل مصدر شغب يأتي من بلدٍ مجاور، ويؤثر سلباً على الأمن.

لذلك، رأى تشرشل ومعاونوه أنَّ أفضل طريق لتأمين الاستقرار في شرق الأردن هو دعم الأمير عبدالله في الحكم ومعاونته للتخلّص من الزعامات العشائريّة التي بدأت تضعف منذ قدوم الأمير عبدالله إلى معان، ومن ثمّ نزوله إلى عمان وتمركزه فيها وتأييد الشعب له ولسياسته. ولكن وجود الأمير عبدالله يخيف المستعمرين نظراً لعدائه للفرنسيين وإثارته بعض الحركات ضدّهم، ممّا يهدّد الأمن والاستقرار في المنطقة. فما كان من لورنس إلاّ أن عرض ثلاث بدائل:

١ ـ تعيين الشريف عبدالله بن الحسين حاكماً مطلقاً على مناطق شرق الأردن، وبذلك تنتهي الحكومات المحليّة.

٢ ـ دمج الحكومات المحلية لخلق حكومة واحدة مركزيّة قويّة برئاسة أردني.

٣ ـ تنظيم حملة عسكريّة لطرد عبد الله من الأردن.

ونظراً للنفوذ الواسع الذي تمتع به الأمير عبدالله في شرق الأردن، ألغى ونستون تشرشل الاحتمال الثالث، بل وجد أنه يجب الاستفادة من شعبيته لإقامة حكومة مركزية تستطيع السيطرة على الأهالي وفرض النظام. وكان همَّ الإنكليز الأكبر هو كيفية منع الأعمال المناهضة لهم أو للفرنسيين في المنطقة. لذلك، ظهر تفكير جديد وهو السيطرة البريطانية العسكرية على شرق الأردن لمنع كل تحرّك ضد الاستعمار. ووُضعت الحكومة البريطانية في هذه الأجواء مع التأكيد على أنَّ هذه الإجراءات تمكّن الحجاج من عبور شرق الأردن بسلام وأمان، وهكذا يتوطّد أيضاً الإنتداب الإنكليزي في فلسطين. ولكن، بعد الاتصالات التي أجراها ونستون تشرشل مع الأمير عبدالله وتوصلا خلالها إلى حلول مرضية للطرفين، لأن سياسة تشرشل كانت العصا والدبلوماسية في آنٍ واحد، تراجع هذا الأخير عن الأسلوب العسكري. ومن قرارات المؤتمر:

- تأسيس دولة عراقيّة تضمّ الموصل وعقد معاهدة مع هذه الدولة لتأمين

السيطرة البريطانية عليها، ومن ثمّ تنصيب فيصل ملكاً على العراق.

- تشكيل جهاز يرأسه المندوب السامي لإدارة شؤون فلسطين الواقعة تحت الانتداب الإنكليزي.
- تأسيس دولة جديدة في المنطقة الواقعة بين الضفّة الشرقيّة لنهر الأردن وبين حدود الحجاز وسوريا...

وتعهّد الأمير عبدالله بالتخلّي نهائياً عن مطامعه بسورية...

وفي مؤتمر القدس، الذي عُقد أيضاً في سنة ١٩٢١، توضّحت عدّة نقاط من الجانبين سهّلت الأمور، ومنها: بقاء الأمير عبدالله في شرق الأردن مع تعيين ضابط بريطاني كمستشار سياسي له. وتقدّم له بريطانيا بالمقابل المساعدات العسكرية والاقتصاديّة، وتنشىء مركزين للطيران في عمان وزيزياء، وتقوم بدور الوسيط بين الأمير عبدالله والسلطات الفرنسيّة في سوريا. ويتعهّد الأمير بعدم القيام بأعمالٍ مناوئة لهم، ويؤمن أيضاً فتح الطريق الصحراوي إلى العراق. ومن أهمّ نتائج مؤتمري القاهرة والقدس، ترتيب الانتداب البريطاني في البلدان العربيّة، وتأسيس شرق الأردن، وبداية تاريخ العلاقات بين الأردن وبريطانيا.

هكذا تأسست دولة شرق الأردن، وكانت تمثّل موقعاً استراتيجياً عسكرياً مهماً بالنسبة للإنكليز. وقد سعت بريطانيا إلى إنشاء حزام أمني متواصل من الأراضي التابعة لسيطرتها، يمتدّ من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي. وهكذا يتحوّل شرق الأردن إلى قاعدة حربيّة ضخمة وثكنة عسكريّة للقوّات البريطانيّة في الشرق الأدنى لأجل مراقبة البلدان المجاروة، واستخدامها «حاجزاً» يحول دون تغلغل النفوذ الفرنسي من سوريا إلى الجزيرة العربيّة والعراق.

وسعت بريطانيا جاهدة إلى توطيد مواقعها في شرق الأردن. لذلك، أنشأت قوات بوليسيّة مهمتها، بالتعاون مع القوّات البريطانيّة، قمع كلّ محاولات النضال ضدّ الإنكليز في أيّة منطقة من شرق الأردن. وكانت القبائل انتفضت رافضةً الخضوع لحكم البريطانيين بجميع أشكاله، ولجأت إلى

الكفاح المسلّح وحاولت الاقتراب من العاصمة عمان في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣، فصدّتها السلطات الرسميّة وباءت محاولتها بالفشل.

وإلى جانب الإجراءات العسكريّة، حاولت السلطات البريطانيّة مع الأمير عبدالله، إرضاء الشعب بوضع بعض الإصلاحات الإداريّة والتنظيميّة، فخفّفت من الضرائب الباهظة، وأقامت نظاماً جديداً للضرائب. ولكن، بالمقابل، خفّفت هذه السلطات رواتب المستخدمين، كما خفضّت ملاكات العديد من الدوائر. وبالرغم من كل ذلك، لم تتحسّن أحوال جميع السكّان (خاصة البدو). ولم يتوقّف نهائياً نضال الثوّار، فسعى البريطانيّون إلى وضع القوّات المسلّحة المحلّية تحت سلطتهم، وخططوا لتحقيق ذلك، فاستغلّوا غياب الأمير عبدالله عن الأردن (كان في مكّة) واستفزّوا بعض القبائل للقيام بأعمال عدوانيّة ومهاجمة سورية الخاضعة للانتداب الفرنسي. وعند عودة الأمير عبدالله في آب (أغسطس) ١٩٢٤، طلب منه المفوّض السامي السماح للسلطات البريطانيّة بمراقبة مالية الإمارة وقوّاتها المسلّحة مراقبة مطلقة. وبعد قبول الأمير عبدالله هذا الطلب، راح البريطانيّون يراقبون الميزانية الأردنيّة ويحدّدون حسب مشيئتهم مصادر الإيرادات ومبالغها، وكذلك النفقات. وأخيراً، أصبحت القوّات المسلحة الأردنية كلّها تحت نفوذ الضبّاط البريطانيين.

كانت السلطات البريطانيّة تطمح إلى ضمّ منطقتي معان ومرفأ العقبة إلى إمارة شرق الأردن. وهاتان المنطقتان كانتا تابعتين لحكم الشريف حسين ملك الحجاز، بعدما انتهى الحكم العثماني واستولت عليها القوّات البريطانيّة والعربيّة سنة ١٩١٨: معان هي النقطة النهائيّة للقطاع العامل من سكّة حديد الحجاز، ومرفأ الحجاز يؤمن لشرق الأردن منفذاً على البحر. ولتحقيق هذه الأمنية، طلب الأمير عبدالله من والده الشريف حسين، لدى زيارة هذا الأخير عمّان سنة ١٩٢٤، أن يوافق على ضمّ منطقتي معان والعقبة إلى شرق الأردن. وبالرغم من إلحاح البريطانيين وابنه الأمير عبد الله، لم يؤكّد الشريف حسين موافقته خطياً حتى حصلت الحرب الحجازية ـ النجديّة في سنة ١٩٢٤، ومُني الحسين بالهزيمة. فاضطرّ للتنازل عن العرش لابنه البكر

علي في ٥ تشرين الأوّل (اكتوبر) ١٩٢٤. وواصل الشريف علي القتال ضدّ قوات نجد التابعة لابن سعود وانتقل الحسين إلى العقبة، فما كان من البريطانيين إلاّ أن أبعدوه إلى جزيرة قبرص.

وأخيراً، ضمّت معان والعقبة إلى شرق الأردن بشكل قانوني ورسمي باتفاقيّة عُقدت بين شرق الأردن والحجاز في مدينة جدّة، في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٢٥. وفي ١٦ تمّوز (يوليو) ١٩٢٥، ذهب الأمير عبدالله إلى معان حيث جرت حفلة رفع العلم الأردني بعدما اضطرّ ابن سعود، ملك نجد والحجاز، للاعتراف الفعلي بسيادة شرق الأردن على معان والعقبة.

المعاهدة البريطانية ــ الأردنية

بهدف مساعدة الأمير عبدالله لأداء مهمّته (كان عليه أن يفرض سلطته على منطقة لم يكن يعرفها من ذي قبل)، عهدت الحكومة البريطانيّة إلى ضابط بريطاني، هو الكولونيل فريديرك بيك، مهمّة تأليف قوّة كافية لفرض سلطة الدولة، ونجحت إمارة شرق الأردن في القضاء على تمرّد سلطان باشا العدوان سنة ١٩٢٢، وردّت الغزوة الوهّابيّة التي وصلت إلى مسافة أميال من عمان سنة ١٩٢٤، كما استطاعت أن تقضي في الثلاثينات على الغارات القبليّة.

لقد نالت السلطات البريطانيّة على امتيازات عديدة في شرق الأردن، ولكنها رغبت في توطيد علاقتها بمعاهدة خطيّة تفرضها فرضاً على الأمير عبدالله. وقد بدأت تخطّط لهذا المشروع منذ سنة ١٩٢٢، ولكنّه لم يصبح قانونياً إدلاّ بعد ست سنوات، في شباط (فبراير) من سنة ١٩٢٨. ومن أسباب هذا التأجيل، استمرار حدوث ثورات للقبائل في مناطق عديدة من شرق الأردن، تندّد بالاستعمار الإنكليزي وبالضرائب الباهظة التي يفرضها الإنكليز على السكّان. وكذلك، شكت السلطات المحلية من مضايقات البريطانيّين لها في كل أنحاء البلاد. وحتّى ذلك الحين لم تكن القوّات المسلّحة المحليّة مستعدة بما فيه الكفاية لتقوم بدورها على أكمل وجه تحت قيادة الضابط البريطاني بيك.

إنّ هذه المعاهدة البريطانية ـ الأردنيّة أعطت الإنكليز حق مراقبة مالية شرق الأردن ومراقبة سياستها بشأن الامتيازات، وحقّ بريطانيا في مراقبة سنّ القوانين والقوّات المسلحة، وحماية حقوق الأجانب. وأعطت هذه المعاهدة السلطات البريطانيّة الحق في إصدار الأحكام العرفيّة، وحدّدت السياسية الخارجيّة لشرق الأردن ضمن إطار السياسة البريطانيّة في الشرق الأوسط،

وذلك بواسطة المفوّض السامي البريطاني في القدس وموفده في عمان. أمّا في ما يتعلّق بالشقّ العسكري، فالامتيازات التي نالتها بريطانيا كثيرة، ومنها الحقّ الكامل في إبقاء قوّاتها المسلّحة على أراضي شرق الأردن، والحقّ في إنشاء ومراقبة التشكيلات العسكريّة المحليّة، ونقل القوّات البحريّة عبر أراضي المملكة. كما لها الحقّ في نقل وحفظ الوقود والأعتدة والذخائر الحربية... والحق في استعمال الخطوط الهاتفيّة والبرقيّة، ومدّ الخطوط الجديدة بلا أيّ اعتراض. وفوق كل ذلك، تنصّ هذه المعاهدة على أن تتحمّل إمارة شرق الأردن نفقات مرابطة القوات البريطانيّة على أرضها. ولكن سرعان ما وعدت السلطات البريطانيّة الأمير عبدالله بمساعدته مالياً لكي يستطيع تغطية نفقات القوّات المسلحة البريطانيّة والمحليّة.

وبهذه المعاهدة توطّدت العلاقات بين السلطات البريطانية وإمارة شرق الأردن، ودخلت هذه المنطقة في النظام البريطاني الاستعماري، ممّا أثار غضب الأردنيين الوطنيين الذين رأوا في هذه المعاهدة انتقاصاً من حريتهم. وقد قاد حملات الاحتجاج، حزب الشعب، الذي أسّسه سنة ١٩٢٧ مشايخ البدو وبعض المقرّبين من الأمير برئاسة ناجي باشا العظم. وممّا يُذكر أنّه في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر، وبعد الثورة الفرنسيّة وخاصة بعد انتهاء الحكم العثماني في البلاد العربيّة، نشأت عدّة أحزاب بدأت عملها بشكل جمعيّات، وما لبثت أن تطوّرت إلى أحزاب سياسيّة. وقد لعبت دوراً وطنياً في قيادة الجماهير، وطالبت بالاستقلال وبالوحدة العربيّة، وبمقاومة كل أشكال الاستعمار والانتداب. ونذكر من هذه الأحزاب والجمعيات: جمعيّة العهد السوري، اللجنة الوطنية العليا، الحزب الديمقراطي، الحزب الوطني السوري، حزب الاتحاد السوري وجمعيّة الفتاة.

إذاً، ترأس حزب الشعب الثورة ضدّ الإنكليز، وقد أذاع بياناً اعتبر فيه المعاهدة عملاً إجرامياً، واتهم الأمير عبدالله بخيانة الشعب. وقد شارك الشعب بجميع فئاته في الحركة النظامية التي قامت في جميع أنحاء شرق الأردن، وهبّ التجار والحرفيون والمستخدمون والتلامذة يطالبون بالاستقلال ويندّدون بالمعاهدة.

ولوضع حدٍ لهذه الحركة المناهضة للإنكليز وللأمير معاً، سنّت السلطات في ١٦ نيسان (أبريل) ١٩٢٨ أوّل دستور لشرق الأردن «القانون الأساسي» والذي عزّز سيادة الإقطاعيين ورؤساء القبائل الذين يشكلون السند الاجتماعي والغطاء للبريطانيين وسياستهم ولبلاط الأمير عبدالله. لم يوضح هذا الدستور ماهية الحريات البورجوازيّة في ظلّ النفوذ البريطاني. وبالمقابل أعطى امتيازات عديدة للأمير عبدالله، وقد عهد إليه بالسلطة التشريعيّة وبالمجلس التشريعي المؤلف من ١٦ عضواً منتخباً (٩ عن العرب المسلمين، ٣ عن العرب المسيحيين، ٢ عن الشركس، ٢ عن البدو)، وأعضاء المجلس التنفيذي الستّة برئاسة رئيس الوزراء. أمّا رئيس الدولة، أي الأمير، فلم يكن مسؤولاً أمام المجلس ولكنّه يصادق على القوانين ويتمتّع بحق عقد وحلّ المجلس التشريعي، وإصدار المراسيم.

إنَّ الدستور الجديد والقانون الانتخابي أثارا رفض الشعب لهما وقرّر المواطنون عدم العمل بهما. لذلك، انعقد المؤتمر القومي في ٢٣ حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٨، بدعوة من حزب الشعب، واتخذ القرار بالعهد القومي الذي بدوره لم يطرح برنامجاً جذرياً بخصوص تشريع العمل والقضيّة الزراعيّة، ولم يُشر بوضوح إلى طرق النضال من أجل الاستقلال الوطني الحقيقي، معترفاً بحكم البريطانيين وبالملك عبدالله، ولكن، بالرغم من النقص في نص ومضمون هذا العهد، استطاع أن يحظى بتأييد الجماهير على نطاقٍ واسع شامل. ومن أسباب ذلك أنّه نادى بالعداء للإمبرياليّة وللاستعمار، وقد رفض أيضاً مسؤوليّة تحمل نفقات القوّات البريطانيّة المسلّحة، ولم يعتبر المساعدات المالية التي تقدّمها بريطانيا لشرق الأردن إلاّ وسيلة من وسائلها لتأمين مصالحها الستراتيجيّة في الشرق الأوسط.

أمّا من الناحية التنظيميّة، فلقد انتخب المؤتمر لجنة تنفيذيّة مؤلفة من ٢٦ شخصاً برئاسة الملاّك العقاري الكبير حسين باشا الطرونة، وأجرت هذه اللجنة مفاوضات مع الأمير عبدالله دون الحصول على أيّة نتيجة مِمّا جعل الأوضاع تزداد سوءاً، فحصلت اضطرابات أمنية في أنحاء كثيرة من الإمارة، وواجهتها السلطات البريطانيّة بوحدات كبيرة من المشاة والقوّات المدرّعة.

ولم تُحسن هذه اللجنة قيادة الجماهير، فتستغلّ الوقت المناسب للعمل. فأدرك البريطانيّون ذلك، وقد رأوا الميوعة في قرارات هذه اللجنة، وضعف عزيمتها، فبادروا إلى إجراء انتخابات للمجلس التشريعي في كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٢٩، بالتنسيق مع الأمير عبدالله. وضمَّ المجلس التشريعي الأوّل ممثلين عن كبار ملاّكي الأراضي وكبار موظفي الدولة. وكان من الطبيعي أن يؤيّد هذا المجلس المعاهدة البريطانية ـ الأردنيّة، ويصادق عليها في صيف ١٩٢٩. فأصبحت السيادة الاستعماريّة البريطانية «شرعية».

كان همّ البريطانيين الأوّل هو ضمان مصالحهم الستراتيجيّة في المنطقة، لذلك أهملوا عدّة نواحي حيويّة بالنسبة للمواطن الأردني، ومن أهمّها الاقتصاد الوطني بما يشمل من اهتمام بالزراعة والصناعة. وعاد الشعب يرزح تحت أثقال الضرائب التي راحت تتزايد سنة عن سنة. ففي أواخر سنة ١٩٣٩ وبداية ١٩٤٠ بلغت الضرائب المباشرة وغير المباشرة ٧٥,٥٪ من مداخيل شرق الأردن ـ وكانت اعتمادات الميزانيّة تخصّص بغالبيتها لبناء الطرق الستراتيجيّة وغيرها من الأهداف الحربيّة، وتمويل الجهاز العسكري البوليسي. وقد بُني نحو ١٢٠٠ كيلومتر من الطرق من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٥، ولقد نالت شركة نفط العراق الحقّ في مدّ خطّ لأنابيب البترول من كركوك في العراق إلى حيفا في فلسطين، مروراً بأراضي شرق الأردن، وبوشر في بنائه في ربيع ١٩٣٢ وانتهى في أواخر ١٩٣٤. وبين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤١، بنيت طريق استراتيجيّة مهمة جداً، هي طريق السيّارات بين بغداد وحيفا، مروراً بشرق الأردن.

هذا الأسلوب العسكري في الحكم والوضع المعيشي الصعب أثارا غضب واستياء الشعب. ولكنّ السلطات البريطانيّة كانت تقمع كل محاولة تظاهر وتعبير. وكانت بالمقابل تعير مناطق البدو اهتماماً شديداً، واستطاعت أن تنتزع هذه المناطق من صلاحيّة حكومة عمّان ووضعتها تحت إشراف الأمير عبدالله مباشرة، يؤازره مجلس رقابة مؤلّف من رؤساء البدو. وكان الإنكليز قد أوكلوا الضابط البريطاني «غلوب» حقّ إدارة مناطق البدو سنة ١٩٣٠. ونظراً لأهميّة دوره، عُيِّن حاكماً على هذه المناطق، وهذا ما خوّله

مراقبة تنقلات القبائل وتحركاتها، معيّناً أماكن وجودها. وقد سمح لنفسه مصادرة أموالها كما أجاز لنفسه ولمعاونيه عدّة أعمال بغية ضبط الأوضاع. وأخيراً أنشأ «غلوب» دركاً خاصاً هو «حرس الصحراء» مؤلف من بدو البلدان العربيّة المجاورة، وكانت فصائل هذا الحرس تكثر من حملاتها التأديبيّة في جميع مناطق البدو، وتسوق المواشي، وترشو شيوخ القبائل وتراقب مصادر المياه وطرق القوافل. وبهذه الطريقة القاسية استطاع «حرس الصحراء»، بقيادة وتوجيه «غلوب»، أن يسيطر على مناطق البدو. ولكنّ هذا الأمن لم يستتبّ طويلاً، فلقد عادت الاضطرابات تهزّ الأوضاع ابتداءً من النصف الثاني من سنة ١٩٣٣.

بقي شرق الأردن أكثر من عقدين من الزمن تحت الانتداب الإنكليزي، وكان المقيم البريطاني، السير هنري كوكس، يتصرّف بطريقة متسلّطة ودكتاتوريّة مع الشعب الأردني. أضف إلى ذلك الحالة الاقتصاديّة المتدهورة. كل هذه الأسباب أدّت إلى تضامن الشعب الأردني مع باقي الشعوب العربيّة في النضال ضدّ الانتداب وجميع أشكاله ومساهمته في حركات التحرّر. وهذا التضامن في القضايا المصيريّة بلغ أوجه في التأييد الواسع الذي لقيه عرب فلسطين من جهة المواطنين في شرق الأردن سنة ١٩٣٣، ثم من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩. وقد برهن المناضلون عن حماسهم ضدّ الاستعمار البريطاني عندما اجتازوا الحدود الأردنيّة الفلسطينيّة ليشاركوا عرب فلسطين في مواجهتهم الإنكليز، وكانت فصائل الثوّار المتمركزة في جبال عجلون، تهاجم النقليات البريطانيّة، وتقطع المواصلات التلفونيّة، وتقوم بهجمات على خطّ أنابيب البترول التابع لشركة نفط العراق. وأيّد جميع سكّان شرق الأردن أعمال الثورة النضاليّة.

في سنة ١٩٣٩، حلّ ألك كيراكبرايد مكان كوكس، وفي هذه السنة شكّل أبو الهدى أوّل وزارة أردنيّة. وتوفيق أبو الهدى هو من مواليد عكا، خدم في الجيش العثماني، ثمّ ما لبث أن عمل في الإدارة العربيّة في دمشق في عهد الأمير فيصل في السنتين ١٩١٩ و ١٩٢٠. ثمّ التحق بخدمة إمارة شرق الأردن. وفي هذه الأوضاع خاف الإنكليز من امتداد الثورة الفلسطينية

الكبرى التي ما زالت تتفاعل تأثيراتها في جميع أنحاء البلاد العربيّة، فقررت السلطات البريطانيّة زيادة عدد أفراد الجيش الأردني، وخاصة قوّات البادية، لكي تستطيع مواجهة كل الاحتمالات. وكانت المعونات المالية البريطانيّة تذهب للجيش الأردني، ولا يُصرفُ منها إلاّ القليل القليل على الإنماء الاقتصادي والأمور المعيشيّة المهمة بالنسبة للشعب الأردني والتي أهملها الإنكليز.

في الحرب العالميّة الثانية

ساعدت بريطانيا الفيلق العربي الأردني بشتّى الوسائل: المادّية والتنظيمية والتدريبيّة... ولكنها استفادت منه بالمقابل، واستغلته في سنة ١٩٤١ لقمع ثورة الكيلاني في العراق. وقد أدّى مهمّة القوّة العسكرية المعاونة والقوّة البوليسيّة الرئيسيّة في الشرقين الأدنى والأوسط. وفي سنة ١٩٤٢، اقتربت قوّات القائد الألماني رومل من العَلَمين، عندها أرسل البريطانيّون الفيلق العربي إلى شبه جزيرة سيناء ثمّ إلى إفريقيا الشماليّة. وعندما قرّر البريطانيّون فتح الجبهة الثانية في البلقان، خصّصت دوراً مهمّاً للفيلق الأردني. وبسبب الحرب، وقد أصبح لهذا الفيلق مهمّات عديدة، تزايدت المعونات البريطانيّة لتمويله ليتمكن من تحقيق الأهداف العسكرية المرجوّة. وقد بلغت هذه المعونات في سنتي ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ٢٨٪ من إيرادات شرق الأردن الداخليّة، وفي ١٩٣٩ - ١٩٤٠ بلغت ١٠٢٪، وفي ١٩٤٠ - ١٩٤١ وصلت إلى ٢٠٨٪. وأخيراً، في ١٩٤٣ - ١٩٤٤ بلغت المعونات الماليّة للفيلق الأردني ١٨٧٠ ألف ليرة فلسطينيّة. وبسبب هذه المصاريف الضخمة على الأمور الحربيّة، ساءت أحوال الشعب في شرق الأردن، بعد إهمال الزراعة والصناعة، فتدهور الاقتصاد وتفاقمت الأحوال من جرّاء تزايد الضرائب المفروضة على الأهالي بشكل مأساوي. فبينما كانت الضرائب المباشرة بقيمة ١٨٣ ألف ليرة فلسطينيّة لسنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩، أصبحت بقيمة ٢١٣ ألف في سنتي ١٩٤٣ - ١٩٤٤. ونتيجة لكل ذلك، بدأ الفلاّحون يفقدون أراضيهم بسرعة، وانتشر الفقر والجوع، وقلّت مساحة الأراضي المحروثة، وهبط المردود الزراعي، وانخفض عدد رؤوس المواشي.

في المقابل، توسّعت مشاريع التجارة والوساطة، وسبب ذلك أنّ الرقابة

على الأسعار لم تكن قائمة فعلاً، وكانت العمليات التجاريّة معفاة من ضريبة الدخل، وكان التجّار ملزمين فقط بدفع رسم إجازة الاستيراد وقدرها مبلغ بسيط جداً. ولقد نشطت في هذه الأثناء تجارة الترانزيت وتطوّرت عمليات إعادة التصدير. هذا الازدهار التجاري في قطاعي التجارة والوساطة (الترانزيت) كان مؤقتاً، لأنّ ظروف الحرب العالمية الثانية كانت قاسية جداً وأثّرت على جميع البلدان التي دخلت بشكل أو بآخر فيها، واقتصرت الاستفادة على نسبة ضئيلة من التجّار، وبقي الوضع الاقتصادي سيئاً جداً في شرق الأردن.

هذا ما كانت عليه الأوضاع الاقتصاديّة في منطقة شرق الأردن عند توقيع المعاهدة البريطانيّة ـ الأردنيّة (في ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤٦). وعندما نال شرق الأردن الاستقلال الشكلي.

تأسيس المملكة الأردنيّة الهاشمية

بعد التحركات النضالية التي قام بها الشعب الأردني في عدّة مناطق، وبعدما اشتدّت الحركة الشعبيّة المناهضة للانتداب الإنكليزي في جميع أنحاء البلدان العربيّة، خاصة في مصر وسوريا ولبنان، سارع البريطانيّون إلى إعادة النظر في سياستهم الاستعماريّة في الشرق الأوسط، وخاصة في شرق الأردن. والسبب الثاني في ذلك التغيير أن بريطانيا خشيت أن يُبدَل انتدابها على شرق الأردن بوصاية جماعيّة من هيئة الأمم المتحدة. والسبب الثالث كان دعم بريطانيا لمشروع سوريا الكبرى الذي يدعو إلى توحيد عدد من الدول المستقلّة بزعامة شرق الأردن، فكان من الضروري للبريطانيين توطيد مركزهم في الشرق.

في سنة ١٩٤٦، أعلنت المعاهدة البريطانيّة ـ الأردنيّة أنَّ انتداب عصبة الأمم فقد مفعوله، وتمّ إعلان شرق الأردن مملكة مستقلّة يتولّى حكمها الأمير عبدالله الذي أصبح ملكاً عليها. وقد استبدل اسم شرق الأردن باسم المملكة الهاشميّة الأردنيّة (الأردن)، وسُنَّ دستور جديد يصون سلطة الملك عبدالله المطلقة. وكانت الحكومة مسؤولة أمام الملك، وهو أيضاً يملك حقَّ النقص المطلق والحقوق التشريعيّة في حقل الميزانيّة، ويتمتّع بحقٍ مطلق تقريباً في إصدار المراسيم، وحق إعلان الحرب وإطلاق الأحكام العرفيّة...

لم تترك القوّات المسلّحة البريطانيّة شرق الأردن، وقد ضمنت لها كلّ المساعدات لأجل إقامة المستودعات الحربيّة، وتأمين نقل المواد الحربيّة... وكانت بريطانيا تستمرّ في مدّ الأمير عبدالله بالمعونات المالية، وبقي الفيلق العربي الأردني تحت قيادة الضبّاط البريطانيين، وظلّ يعيش بأموال الخزينة البريطانيّة.

كان الأمير عبد الله قد قدّم الدعم الكامل لبريطانيا أثناء الحرب العالميّة الثانية، فلقد خاض الجيش الأردني الحرب ضدّ حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وضدّ حكومة ڤيشي الفرنسية في سوريا. وعند انتهاء هذه الحرب القاسية توجّه الأمير عبدالله إلى لندن مع رئيس وزرائه إبراهيم باشا هاشم، وذلك للتفاوض مع المسؤولين البريطانيين حول الاستقلال. وفي ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤٦، تمّ توقيع المعاهدة التي تنصّ على استقلال شرق الأردن مع إقامة ترتيبات للدفاع المشترك مع بريطانيا.

ولكن، بالرغم من هذه المعاهدة التي أعطت الأردن وضعاً حقوقياً جديداً، لم يحصل أي تغيير جوهري في حقل السياسية الداخلية وبنيان الدولة، ولا على صعيد السياسة الخارجيّة، ممّا حمل الملك عبدالله على أن يطلب في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧، من الحكومة البريطانية إعادة النظر في معاهدة ١٩٤٦. لهذه الأسباب، استوجب عقد معاهدة جديدة بين الأردن وبريطانيا في ١٥ آذار (مارس) ١٩٤٨، وهذه المعاهدة تحدّد نقاطاً معينة (عمان والمغرق) من حق بريطانيا أن توزّع قواتها المسلّحة فيها. كما أنّها تحدّد الوضع الحقوقي لأفراد القوّات المسلّحة بمزيد من التفاصيل والدقّة. وكان الهدف الأوّل الذي سعت إلى أن تحقّقه بريطانيا من عقد هذه المعاهدة الجديدة هو رفع مكانة الملك عبدالله في عيون عرب فلسطين. أمّا الهدف الثاني، فكان توفير الشروط والظروف المناسبة لتوحيد الأردن وفلسطين. وعملت بريطانيا جاهدة للوصول إلى أهدافها في المنطقة.

في سنة ١٩٤٨، وقعت الحرب العربيّة ـ الإسرائيليّة الأولى، فاحتلّت القوّات الأردنيّة المسلّحة قسماً كبيراً من منطقة فلسطين الوسطى، وبقيت فيها حتى توقيع الهدنة مع إسرائيل. في الفترة الزمنية الأولى، خضعت هذه المنطقة لسلطة الحاكم العسكري العام، والذي بدوره كان يخضع للملك عبدالله شخصياً. وكما ذكرنا سابقاً، هدفت سياسة الملك عبدالله، بمباركة السلطات البريطانية، إلى ضمّ المناطق المحتلّة إلى الأردن بشكل نهائي، وهذا ما رفضته حكومات البلدان العربيّة، كما ندّد به زعماء الأحزاب القوميّة في فلسطين. وبدأت الأحداث تتسارع ويتسع الخلاف؛ فمن جهة، تألّفت

حكومة فلسطينيّة في مدينة غزّة واعترف بها أعضاء جامعة الدول العربيّة بأغلبيتهم تقريباً، ما عدا الملك عبدالله الذي رفض التعاون مع الحكومة الجديدة. ومن جهة أخرى، اجتمع بعض أعيان الضفّة الغربيّة في أريحا واتخذوا قراراً يدعو شرق الأردن إلى ضمّ المنطقة وتسميتها «المملكة الأردنيّة الهاشمية»، كما نادوا بحليفهم عبدالله ملكاً عليها. وصادق البرلمان الأردني على قرار مؤتمر أريحا في ١٣ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٨. وفي هذا التاريخ أيضاً انضمّ ممثلو الإقطاعيين الفلسطينيين إلى الوزارة الأردنية وإلى مجلس الأعيان. وعندما جرت الانتخابات البرلمانية في ١٣ نيسان (أبريل) ١٩٥٠، شارك فيها سكّان فلسطين الشرقيّة. وفي جلسة البرلمان في ٢٣ نيسان (أبريل) سنة ١٩٥٠، اتخذ القرار بدمج الأردن وفلسطين الشرقيّة في دولة واحدة، هي المملكة الأردنية الهاشميّة.

كان ضمّ الضفّة الغربيّة إلى الأردن قد عزّز موقع الملك عبدالله بما تمثله هذه المنطقة من غنى بالموارد الكثيرة، ومنها: السياحة لوجود الأماكن المقدّسة في هذه المنطقة، والزراعة لكون أراضيها خصيبة. ولكن الشعب الفلسطيني كان يشكّل جالية مميزة مختلفة تماماً عن شخصيّة القبائل البدوية؛ فإن الفلسطينيين مثقفون ومتحضرون وكانوا يجيدون الزراعة والتجارة، وقد وعوا حقوقهم وواجباتهم المدنية، وهم لم يتكيفوا مع حياة المملكة الأردنية الهاشمية آنذاك.

ولقد ساءت العلاقات بين المملكة الأردنية الهاشمية والبلدان العربيّة المجاورة بسبب ما جرى من تطورات، بعد ضمّ فلسطين الشرقية إلى الأردن، الذي قاطعت حكومته مشاريع وقرارات جامعة الدول العربيّة، فلم ترسل وفداً للمشاركة في جلساتها. ورفض الأردن توقيع «ميثاق الأمن الجماعي» الذي عقدته البلدان أعضاء الجامعة العربية سنة ١٩٥٠.

والجدير بالذكر أنه كان للحرب العربية ـ الإسرائيلية وما عقبها من أحداث تأثير خطير في حياة الأردن الاقتصاديّة والسياسيّة، أوّلها مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. فقد أفادت إحصاءات هيئة الأمم المتحدة في حزيران (يونيو) ١٩٥٠ بوجود نصف مليون لاجىء فلسطيني، هذا عدا عن ١٠٠ إلى

٢٠٠ ألف لاجىء اقتصادي من سكّان المناطق الحدوديّة الذين أصبحت أراضيهم ملكاً لإسرائيل حسب شروط الهدنة. وكانت المملكة الأردنية عاجزة عن حلّ هذه المشكلة الاقتصادية، فالإنتاج الزراعي لا يكفي حاجات السكّان الذين كانوا يفتقرون إلى أهمّ المواد الغذائية. كذلك عجزت الصناعة عن تشغيل مئات الآلاف من الناس الذين تركوا أماكن عملهم الطبيعي قسراً بسبب الأحداث، فعمّت البطالة في أنحاء البلاد. أضِف إلى كلّ ذلك عجز الميزان التجاري الخارجي وعجز الميزانيّة السنويّة للحكومة...

إنّ الضفة الغربيّة التي ضمّت إلى شرق الأردن، هي منطقة متطوّرة نسبياً من الناحية الاقتصادية، بسكّانها الذين يبلغ عددهم نصف مليون من المثقفين والحرفيين والفلاّحين وممثلي البورجوازيّة الوطنيّة الفلسطينيّة. لذلك، كان من الصعب دمجها مع شرق الأردن وسكانه الـ ٤٠٠ ألف نسمة من الفلاّحين والبدو الخاضعين لحكم الإقطاع. وهذا الواقع سبّب تطورات سياسية مهمّة وشاقّة في المملكة.

وشكل المواطنون الجدد جبهة معادية للإمبرياليّة المتمثلة بالبريطانيين وأتباعهم. وندّد الفلسطينيون سنة ١٩٤٩، بسياسة الملك عبدالله، واتهموه بخنق الحريّات السياسيّة وبتوظيف أبناء العائلات الاقطاعيّة في إدارة فلسطين، وبتنصيبهم في أعلى المراكز في الدول. ورفضوا سياسة التبعيّة للإمبرياليّة الإنكليزيّة، ونشطوا في تنظيم التحركات ضدّ الملك عبدالله وحلفائه البريطانديين، وشاركهم في بعضها السكّان الأصليون في شرق الأردن. ولكن كل محاولاتهم للتظاهر والاحتجاج باءت بالفشل بسبب قمع الحكومة لها.

أمّا من ناحية السياسة الخارجيّة، فقد تبعت حكومة الملك عبد الله نهج الحكومة البريطانيّة بانفتاحها على الغرب، فعقدت معاهدة مع الولايات المتحدة الأميركيّة في ٢٧ شباط (فبراير) من سنة ١٩٥١ حول «المساعدة» حسب النقطة الرابعة من «برنامج ترومان»، وأيّدت الحكومة الأردنية أيضاً التدخل العسكري الأميركي في كوريا.

إستاء الشعب بجميع فئاته تقريباً من حكومة الأردن في الحقلين الداخلي والخارجي، فتنظم النضال ضدّ سياسة قمع الحريات السياسيّة وقيود

الرقابة على الصحافة، وضدّ المعاهدة الأردنيّة ـ الأميركيّة. وتشكلت تنظيمات معارضة، فانشئت أوّل كتلة معارضة علنيّة رئيسها سليمان النابلسي، وذلك في خريف سنة ١٩٥٠، وأصدرت جريدة باسمها هي «الميثاق». وفي ربيع ١٩٥١، تأسّس الحزب الشيوعي الأردني الموحّد.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٠، تحرّك نواب الشعب، وكبرت المعارضة داخل المجلس ضد سياسة الملك عبدالله؛ فلقد طالب عدد من النوّاب بتطبيق الإصلاحات الدستوريّة وبتوسيع الحريّات السياسية. وتعرّض غلوب باشا، آمر الفيلق العربي، لاتهامات شديدة، منها ما يتعلّق بتدخله في الأمور السياسية كافة. وطالب النوّاب الحكومة بوضع حدّ للتدخل البريطاني في سياسة البلد، كما دعوها للمشاركة في أعمال جامعة الدول العربيّة. وعبّر النواب عن معارضتهم لسياسة الملك عبدالله برفضهم مشروع الموازنة الذي قدّمته الحكومة، فما كان أن استغلّ الملك هذا الأمر فحلّ البرلمان في ٣ أيّار (مايو) ١٩٥١.

وفي ٢٠ تموز (يوليو) من سنة ١٩٥١، اغتال أحد أعضاء منظمّة إرهابيّة الملك عبدالله عند مدخل الجامع الكبير في القدس. فبالرغم من الرقابة الحديديّة الذي فرضها الفيلق العربي في شرق الأردن والضفّة الغربيّة، استطاع القاتل اختراقها والنيل من حياة الملك. وخلف الملك عبدالله ابنه طلال الذي لم يملك إلاّ سنة واحدة، وقد حاول التخلي عن المظاهر التي أثارت غضب الشعب ضدّ والده. وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٢، أعلنت الحكومة نيتها في الانضمام إلى «ميثاق الأمن الجماعي» الذي عقدته البلدان العربيّة. وبدأ الملك طلال تطبيق سياسة موجّهة ضد النفوذ الإنكليزي في البلد، محاولاً أيضاً الحصول على تأييد الولايات المتحدة له.

ولكن، من جهة أخرى، حاربت الحكومة الأردنية بعض النشاطات الحزبية، فاعتقلت عدداً من قادة الحزب الشيوعي الأردني في كانون الأوّل (يسمبر) سنة ١٩٥١، ومن بينهم الأمين العام فؤاد نصّار. كما منعت السلطات الأمنيّة نشاطات منظمة أنصار السلام واعتقلت عدداً من أعضائها. ولكن، في ٨ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٥٢، صدر دستور جديد،

جعل مجلس الوزراء مسؤولاً أمام البرلمان ممّا أضعف قليلاً امتيازات الملك.

لم يعجب نشاط الملك الجديد، طلال بن عبدالله، الحكومة البريطانية، إذ رأته يتجه نحو الولايات الأميركية المتحدة ممّا يهدد نفوذها في المملكة الأردنية الهاشمية. فراحت الصحف البريطانيّة تتحدّث عن حالة الملك الأردني العقلية. وبعدما عقد مجلس الوزراء الأردني جلسة استثنائية في العاصمة عمان، خلع البرلمان الأردني الملك طلال، ونادى بابنه حسين ملكاً في ١١ آب (أغسطس) ١٩٥٢.

ولقد عُهد إلى فوزي الملقى مهمة تأليف حكومة، فضمّ إليها ممثلين عن المعارضة المعتدلة. وبعدها أفرجت هذه الحكومة عن عدد كبير من المعتقلين السياسيين. ورفض رئيس الحكومة تطبيق «قانون حماية البلد» الذي يمنح رئيس الوزارة حقّ إصدار الأوامر باعتقال وسجن أي شخص كان بدون أيّ مبرّر ولمدّة محدودة. ومع ذلك خفّف من القوانين الاستثنائيّة قليلاً، فرفضت المحاكم الأردنيّة إصدار الأحكام بحق المواطنين الذين يناضلون من أجل الحرية والسلام ولم يناقش البرلمان مشروع قانون جديد ضدّ الشيوعيّة.

أمّا في السياسة الخارجيّة، فقد عارض بعض أعضاء الوزارة كل مشاريع إدخال الأردن في الكتل الحربيّة أيًا كانت، ولأية أسباب. كما رفضت الحكومة إنشاء اتحاد بين العراق والأردن. ولم تسمح الحكومة أيضاً لرئيس البعثة الأميركية لدراسة القضايا المتعلّقة باستغلال مياه الأردن، بأن يدخل الأردن. ووجدت أنّه من الضروري إعادة النظر في معاهدة «المساعدة» الأميركية، أي النقطة الرابعة لمشروع ترومان. وجرت اتصالات مع الاتحاد السوڤياتي بواسطة المندوب السوڤياتي في هيئة الأمم، ممّا أثار غضب البريطانيّين والأميركيين. خاصة وأنّ الأردن حيّى الاتحاد السوڤياتي على موقفه من العمليات العدوانية التي قامت بها إسرائيل ضدّ البلدان العربيّة.

ولكن حكومة فوزي الملقى اضطرت إلى تقديم استقالتها في ٢ أيّار ١٩٥٤، بعدما هاجمتها الصحابة التابعة للنفوذ الغربي. وألّف الحكومة الجديدة أبو الهدى. ولكن تدخّل الأميركيين والإنكليز في الشؤون الأردنيّة الداخلية والخارجيّة أثار موجة من الغضب والاحتجاج في جميع أنحاء البلاد.

طالب أعضاء الجبهة الوطنية في أيّار (مايو) سنة ١٩٥٤، بإلغاء معاهدة ١٩٤٨ بين بريطانيا والأردن، وبإقالة غلوب باشا، قائد الفيلق العربي العام، وبفسخ المعاهدة المعقودة مع الولايات المتحدة بشأن «المساعدة» بموجب النقطة الرابعة من برنامج ترومان، وبحماية الاقتصادي الوطني بشقيّه الزراعي والتجاري، وبتخفيض الضرائب. ومن الأحزاب التي ظهرت في تلك الفترة: حزب البورجوازيّة الوطنيّة، والحزب الوطني الاشتراكي.

وقرّرت حكومة أبي الهدى حلَّ البرلمان في ٢٢ حزيران (يونيو) من سنة ١٩٥٤، وأغلقت جرائد الأحزاب المعارضة، وقامت بحملة من الاعتقالات. ثم أجريت الانتخابات في ١٦ تشرين الأوّل (اكتوبر) من سنة ١٩٥٤، فعمّت البلاد الاحتجاجات والتظاهرات وجرت الاجتماعات لتبادل الآراء حول مجريات الأمور. وفي العاصمة عمان، أقام العمّال والطلاّب والحرفيون والتجّار المتاريس وتسلّحوا بالحجارة. فاضطرت الحكومة إلى إعلان حالة الطوارىء في مناطق عديدة من البلاد. وتمّ اعتقال حوالي ألف شخص، بينهم بضعة وزراء سابقين وأعضاء في البرلمان وحقوقيّون بارزون وأطبّاء. وبنتيجة الانتخابات، نالت أحزاب المعارضة زهاء ربع المقاعد وانتخب نائبان عن الجبهة الوطنيّة.

إنَّ انتخابات سنة ١٩٥٤ كانت نقطة تحوّل مهمّة في الحياة السياسية في الأردن. وقد أنشئت للمرّة الأولى جبهة واسعة من الأحزاب الوطنيّة في جميع أنحاء البلاد. واضطرّت حكومة أبي الهدى وحكومة سعيد المفتي التي حلّت محلّها في أيّار (مايو) ١٩٥٥ إلى أخذ هذه التحرّكات بعين الاعتبار. وطرح ممثلو الأردن أمام بريطانيا مسألة إعادة النظر في معاهدة ١٩٤٨ بين الأردن وبريطانيا، ومسألة إقالة غلوب باشا من منصبه. وبالرغم من مقاومة الأميركيين والإنكليز، اشتركت حكومة الأردن في عمل مؤتمر بلدان آسيا وأفريقيا في باندونغ.

نهوض حركة التحرّر الوطني

بعد توقيع الاتفاقيّة البريطانية ـ المصرية حول قاعدة السويس في سنة ١٩٥٤، والتي قضت بأن تسحب بريطانيا معظم قوّاتها المسلحة في السويس، توجّهت أنظار السلطات البريطانيّة نحو الأردن ليكون يكون البديل عن منطقة السويس نظراً لموقعه الستراتيجي. فأصرّت الحكومة البريطانية على الحفاظ على معاهدة سنة ١٩٤٨ بين الأردن وبريطانيا، إلاّ إذا انضمت الأردن إلى منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط التي كان الأنكلو ـ أميركيون يخططون لإنشائها. وحاول البريطانيون والأميركيون ضم الأردن إلى حلف بغداد، خاصة وأن هناك علاقة قرابة تربط بين السلالتين الحاكمتين في هذين البلدين. وكان الهدف من ذلك خلق كتلتين في قلب الجامعة العربية، ممّا يؤدي حتماً إلى انشقاقها وإضعاف تأثيرها على القرارات السياسيّة التي تصدر عنها.

ومن أجل البحث في قضية انضمام الأردن إلى حلف بغداد، وصل إلى عمان رئيس تركيا جلال بايار في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥. وعرضت الحكومة العراقية على الأردن اقتراحاً بالانضمام إلى لجنة الحلف الاقتصاديّة مقابل تقديم المساعدة الاقتصادية في تطوير استخراج الفوسفوريات والأملاح القلوية، كثمن يدفع لها. وفي ٦ كانون الأوّل (ديسمير) من سنة ١٩٥٥، وصل رئيس هيئة الأركان العامة البريطانيّة الجنرال تمبلر إلى العاصمة عمان، بغيّة تعجيل المفاوضات بهذا الشأن. وعندما قبل رئيس الوزارة الأردنية، سعيد المفتي، شروط الانضمام إلى حلف بغداد، قدّم أربعة وزراء استقالتهم في ١٣ كانون الأوّل سنة ١٩٥٥، وسقطت الدحكومة. وكُلِّف هزاع المجالي تشكيل الحكومة الجديدة، وكان من أشدّ المتحمسين للانضمام إلى حلف بغداد، وكان يهدف، حسب خطابه البرنامجي، إلى توطيد علاقات الصداقة مع بريطانيا والعراق، وبالتالي ضمّ الأردن إلى حلف بغداد بأسرع وقت

ممكن. وانتظر الجنرال تمبلر تأليف الوزارة حتى يغادر البلاد واثقاً من النجاح في مهمته في الشرق.

ما كاد هزاع المجالي يؤلّف وزارته حتى بدأت مظاهرات شعبيّة في جميع أنحاء البلاد تطالب باستقالة الحكومة، فاضطرت حكومته إلى تقديم استقالتها بعد خمسة أيّام من تأليفها. وتلاها حلُّ البرلمان، في ٤ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٦. وفي ٩ كانون الثاني (يناير) تمّ تكليف سمير الرفاعي تأليف الوزارة. وكان الرفاعي من مواليد فلسطين، وقد خلف توفيق أبو الهدى كرئيس للوزراء في إمارة شرق الأردن سنة ١٩٤٤، وترأس الوفد الأردني للتوقيع على «ميثاق الزعفران» تمهيداً لقيام جامعة الدول العربيّة.

أثارت سياسة الحكومة الجديدة غضب الشعب، وعمّت في البلاد موجة من المظاهرات التي أدّت إلى تصادم المواطنين مع البوليس والفيلق العربي. ولضبط الوضع الأمني، تمّ تعيين غلوب باشا رئيساً للمحكمة العسكريّة الاستثنائيّة. وبدأت هذه المحكمة تنظر في قضايا جنود الفيلق العربي الذين رفضوا إطلاق النار على الناس المشاركين سلمياً في المظاهرات. وأرسلت الحكومة البريطانية وحدات من جيشها لدعم نظام غلوب باشا.

لم يستطع غلوب باشا أن يسيطر تماماً على الفيلق العربي ليسانده في تحقيق وتنفيذ أوامره. فلقد كانت منظمة «الضبّاط الأحرار» السريّة قد بسطت نفوذها على وحدات كثيرة من الفيلق، وطلبت هذه المنظمة، بتأييد من الفئات الوطنيّة، من الملك حسين إقالة غلوب باشا من منصبه. فاضطر الملك حسين لتلبية طلبهم. وبعد فترة، عُهِد بجميع الصلاحيّات إلى «الضبّاط الأحرار»، وقد صُرِف من الفيلق العربي جميع البريطانيين، وفي ٢٤ أيّار (مايو) ١٩٥٦، عُيِّن رئيس «الضبّاط الأحرار» علي أبو نوّار رئيساً لأركان الفيلق، كما شغل أعضاء منظمة «الضبّاط الأحرار» كثيراً من المناصب المسؤولة الأخرى. كلّ ذلك أدّى إلى تطورات وتغيرات خطيرة في الحياة السياسية، بعدما انتقلت قيادة الجيش إلى «الضبّاط الأحرار»، وهم القوى المعادية للاستعمار بجميع أشكاله.

وحافظ البلاط الملكي على علاقاته الجيّدة مع البريطانيين، وحاولت حكومة الرفاعي وحكومة سعيد المفتي (٢٠ أيّار (مايو) ١٩٥٦) وحكومة إبراهيم باشا (٢ تمّوز (يوليو) سنة ١٩٥٦) أن تحافظ على التحالف مع العراق، واشترطت قبول المساعدة الماليّة التي عرضتها مصر وسورية والعربيّة السعوديّة بشرط إكمالها بمساعدة من بريطانيا والعراق.

ولقد طرأت تغييرات في سياسة الحكومة الأردنية، فعقدت في أوائل أيّار (مايو) اتفاقيّة مع مصر بشأن القيادة الموحدة. ثمّ عقدت اتفاقيّة مماثلة مع سوريا. وفي ٥ آب (أغسطس) سنة ١٩٥٦، تمّ التوقيع بين سوريا والأردن على معاهدة إضافيّة بشأن الوحدة الاقتصاديّة. ودعم الأردن قرار مصر بتأميم قناة السويس. وأخلت الحكومة سبيل عدد كبير من المعتقلين السياسيين، ومن بينهم الأمين العام للحزب الشيوعي الأردني فؤاد نصّار، وفي ٢٦ حزيران (يونيو)، حُلَّ البرلمان وعينت مواعيد انتخابات جديدة.

وجرت الانتخابات في ٢١ تشرين الأوّل (اكتوبر)، وانتصرت فيها القوى الوطنيّة، وكُلِّف سليمان النابلسي زعيم الحزب الوطني الاشتراكي بتأليف الحكومة الجديدة. وما إن تشكلت هذه الحكومة حتى أعلنت عن عزمها على إلغاء المعاهدة البريطانية ـ الأردنيّة المعقودة سنة ١٩٤٨، وتصفية القواعد الحربية البريطانيّة وإجلاء القوات البريطانيّة من المملكة، ومعارضة حلف بغداد، والاستعاضة عن المعونات البريطانيّة بمعونات البلدان العربيّة، وتوطيد العلاقات مع سوريا ومصر، وإقامة علاقات مع الاتحاد السوفياتي. هذا من ناحية السياسة الخارجيّة، أمّا في ما يتعلّق بالسياسة الداخليّة، فقد قرّرت الحكومة الجديدة إلغاء القوانين السارية المفعول منذ عهد الانتداب والتي كانت تحدّ من حقوق المواطنين الأردنيين، وتطبيق إجراءات تهدف إلى تطوير الاقتصاد الوطني.

في تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٥٦، حصل العدوان الثلاثي على مصر، فأعلنت الحكومة الأردنيّة التعبئة العامة، نظراً لعلاقاتها الوديّة مع هذا البلد العربي، وفي ٣١ تشرين الأوّل (اكتوبر)، قطعت العلاقات الدبلوماسيّة مع فرنسا. وفي أوّل تشرين الثاني (نوفمبر)، منعت الطائرات البريطانيّة من

استعمال المطارات الأردنية، ووضعت القواعد الحربيّة البريطانيّة تحت رقابة القوّات المسلّحة الأردنيّة، وسمح بدخول وحدات من القوّات المسلّحة السورية والعراقيّة والسعوديّة إلى الأردن لأجل صدّ أي هجوم محتمل من جانب إسرائيل. وفي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٦، أنشئت منظمات الدفاع العام في جميع أنحاء البلد، ولقد انضمّ إليها جميع الذكور الذين بلغوا الثامنة عشرة من العمر.

وتدهورت العلاقات بين الحكومة الأردنية برئاسة سليمان النابلسي والحكومة العراقية، خاصة وأنّ القوّات العراقية في الأردن لم توضع تحت إمرة القيادة السوريّة ـ المصريّة ـ الأردنيّة المشتركة، فأبعدت من الأردن. وبالمقابل، تحسنّت وتوطّدت علاقات الأردن مع مصر وسوريا، وفي ١٩ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٥٧، عقد في القاهرة ميثاق التضامن العربي الذي نصّ على تقديم مساعدة سنوية للأردن من جانب مصر وسوريا والسعوديّة، قدرها ١٢,٥ مليون جنيه مصري. وفي ١٣ آذار (مارس) ١٩٥٧، فسخ الأردن المعاهدة البريطانيّة ـ الأردنيّة المعقودة سنة ١٩٤٨.

إنقلاب سنة ١٩٥٧

رفضت الأوساط الإقطاعيّة وأوساط البلاط سياسة الحكومة برئاسة النابلسي. وأوقفت البعثة الأميركيّة بموجب النقطة الرابعة من «برنامج ترومان» كل نشاطاتها في الأردن، ورفضت الحكومة البريطانيّة أن تستمرّ في دفع ما تبقى عليها من القرض الذي كان قد عقد بشأنه اتفاق في سنة ١٩٥٥. وفي ١١ نيسان (أبريل) سنة ١٩٥٧، أقال الملك الوزارة، وكلّف الحسين فخري الخالدي بتأليف الحكومة الجديدة، بعد مشاورات أجراها مع زعماء الأحزاب والتكتلات السياسيّة. وحسين فخري الخالدي هو رجل دولة فلسطيني الأصل. ولد في القدس ودرس فيها وتخصّص في الطبّ في الجامعة الأميركية في بيروت. بدأ حياته السياسية في سوريا حين شارك في الحركة العربيّة وغادرها أثناء الانتداب الفرنسي عليها. أصبح رئيساً لبلدية القدس عام ١٩٣٤، وهو الذي أسّس «حزب الإصلاح»، وكان عضواً في اللجنة العربيّة العليا بعد الثورة الكبرى في فلسطين ١٩٣٦. إعتقله الإنكليز ونفوه سنتين إلى

جزر السيشيل. وفي سنة ١٩٣٩، شارك في الوفد الفلسطيني، كما شارك في الهيئة العربيّة، وكان أمين سرّها وذلك بعد الحرب العالميّة الثانيّة. عيّنه الملك عبدالله حارساً للأماكن المقدّسة. وفي سنة ١٩٥٣، استلم حقيبة الخارجيّة الأردنيّة.

لم يكتب لهذه الوزارة النجاح، ولم يختلف برنامجها السياسي عن برنامج الحكومة السابقة؛ فقد سعت إلى توطيد العلاقات مع سوريا ومصر، ورفضت الاشتراك في الكتل الحربيّة.

ولم تكن الأوساط الملكيّة راضية عن هذه الحكومة إلاّ ظاهرياً وكانت القوى الديمقراطيّة قد اعتبرت هذه الحكومة المائعة في قراراتها مجرّد ستار لضرب التحركات الوطنية. وأثارت سياسة وزارة الخالدي احتجاجات الجماهير الشعبيّة، فاضطرّ الملك حسين إلى إعلان إقالتها في ٢٤ نيسان (أبريل)، بعد خمسة أيّام من تأليفها، وطُلب من إبراهيم هاشم تأليف حكومة جديدة. وهذه الحكومة اتخذت قرارات مهمّة مباشرة بعد تشكيلها: فقد أعلنت حالة الطوارىء ومنع التجوّل في البلاد، ورابطت وحدات جديدة من القوّات المسلّحة في المدن الكبرى، وأغلقت الحدود. وفي فترة قصيرة أعلن قرار الحكومة بحلّ جميع الأحزاب السياسيّة. وفي أوائل أيّار (مايو) أعلنت الحكومة قراراً بمنع نشاط اتحّاد الطلاّب واتحاد النساء الأردنيّات وسائر المنظمات اليسارية وفرضت الرقابة على مراسلات الصحافيين الأجانب ومنعت مؤقتاً صدور الصحف المحليّة. وقامت الحكومة الجديدة بحملة اعتقالات، ومحاكمة قادة الحزب الشيوعي في جميع أنحاء البلاد، وذلك في كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٥٧. وطالت هذه المحاكمات كل الذين عملوا من بعيد أو قريب مع الشيوعيّة.

أصيب الأردن بشللٍ عملي بعدما اقتصرت حياة البلد الاجتماعيّة على القوانين العرفيّة وأحكامها. وفي ٢٩ نيسان (أبريل) ١٩٥٧، منحت الولايات المتحدة الأردن معونة ماديّة قدرها ١٠ ملايين دولار. وفي تمّوز منحته ٢٠ مليون دولار (منها ١٠ ملايين دولار للأغراض العسكريّة). وتكون الولايات المتحدّة قد منحت الأردن في غضون شهرين قدر ما اعتمدت له في السنوات

الست السابقة، وكذلك فعلت الحكومة البريطانيّة. ففي آب (أغسطس) ١٩٥٧، استأنفت بريطانيا دفع المبالغ المترتبة عليها بموجب قرض سنة ١٩٥٥. كما تمّ جلاء القوّات البريطانيّة عن الأردن. وفي ٣١ أيّار (مايو) سنة ١٩٥٧، سلّمت بريطانيا الأردن مطار المفرق، وفي ٦ تمّوز (يوليو)، جلت القوات البريطانيّة عن العقبة.

الاتحاد العراقي ـــ الأردني

في شباط ١٩٥٨، وبعدما أُنشئت الجمهوريّة العربيّة المتحدة باندماج مصر وسوريا، بدأت المفاوضات بين الحكومتين الأردنية والعراقيّة حول توحيد المملكتين العربيتين الهاشميتين لتأليف جبهة مضادة للجمهوريّة العربية المتحدّة. ففي ١٤ شباط من سنة ١٩٥٧، تمّ تشكيل الاتحاد العراقي - الأردني، وكانت من صلاحيّات الحكومة الاتحادية كل قضايا العلاقات الخارجيّة والدفاع والسياسة الجمركية والتعليم. وأصبح ملك العراق رئيساً للاتحاد العربي. وبعدما أقرّ الدستور بهذا الاتّحاد في آذار (مارس) ١٩٥٨، أنشيء برلمان اتحادي (مجلس الاتحاد) مؤلف من ٤٠ عضواً نصفهم من الأردن ونصفهم الثاني من العراق. وبموجب الدستور، تمتّع أعضاء المجلس بحقّ تقديم مشاريع القوانين، ما عدا مشاريع القوانين المالية. وكان رئيس الاتحاد يتمتّع بحق حلّ المجلس وحق تأجيل وضع القوانين موضع التنفيذ، كما تمتّع بالسلطة التنفيذيّة التي كان يطبّقها بواسطة مجلس الوزراء. واندمج الجيشان العراقي والأردني في قوّات مسلّحة موحّدة (الجيش العربي) وعلى رأسها رئيس الاتحاد. وهكذا حرم كلّ من العراق والأردن حقّ امتلاك قوّات مسلّحة خاصة به، ما عدا قوات البوليس والأمن العام، وكان ملك الأردن يعتبر قائداً للقوّات المرابطة في أراضي الأردن.

والمرحلة التي تلت إنشاء المجلس الاتحادي والجيش العربي كانت مرحلة تأليف حكومة اتحاديّة في أيّار (مايو) ١٩٥٨، عهد فيها بجميع المناصب المهمة إلى ممثّلي العراق. وبهذه الخطوة وضعت أهمّ القضايا في أيدي حكام العراق كالسياسة الخارجيّة وقيادة القوّات المسلّحة.

أيّدت الولايات المتّحدة الأميركيّة وبريطانيا الاتّحاد العربي تأييداً كاملاً،

أمّا الجماهير الشعبيّة في الأردن والعراق وغيرهما من البلدان العربيّة فقد ندّدت بهذا الاتّحاد بشدّة. ولقد كان للاتحاد العربي تأثيره السلبي على العلاقات ما بين العراق والأردن من جهة، والبلدان العربيّة الأخرى من جهّة ثانية. ثمّ فُسخت اتّفاقيات الأردن مع مصر وسوريا بشأن إلغاء سمات الدخول وبشأن التعاون الثقافي والاتفاقيّة الأردنية ـ السورية بشأن تسليم المجرمين... وفي نيسان (أبريل) ١٩٥٨، توقّفت الحكومة العربيّة السعودية عن دفع المعونات الماليّة للأردن المتفق عليها في ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧. وطلب الأردن بدوره سحب القوّات السعوديّة المرابطة في أراضيه منذ زمن العدوان الثلاثي على مصر. ولم تنجح كل المحاولات لضمّ الكويت وغيرها من إمارات ومشيخات الجزيرة العربيّة إلى الاتحاد.

في ١٤ تمّوز (يوليو) ١٩٥٨، قامت ثورة في العراق أطاحت بالنظام الملكي، ووضعت حدّاً لاتحاد البلدين. وبدأ النظام الجمهوري في العراق وأسرعت بريطانيا في إنزال قوّاتها في الأردن، وأميركا في إنزال قواتها من مشاة البحرية في لبنان. وفي ١٦ تمّوز (يوليو) ١٩٥٨، أشارت الحكومة السوڤياتية في بيان نشرته إلى الخطر الذي يتهدّد قضيّة السلام في الشرق الأوسط من جرّاء التدابير الحربيّة التي قامت بها الولايات المتحدة الأميركيّة وبريطانيا، وطالبت هيئة الأمم المتّحدة باتخاذ الإجراءات العاجلة لوقف التدخل. وما فعله الاتحاد السوفياتي لتحاشي وقوع نزاع حربي جديد في الشرق الأوسط، دفع بالولايات المتحدة الأميركيّة وبريطانيا إلى سحب قواتهما من لبنان والأردن. وقد غادر آخر جندي بريطاني الأرض الأردنية في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٨.

بعدما انسحبت جميع القوّات البريطانيّة من الأردن، بقي التعاون الاقتصادي مستمراً بين بريطانيا والأردن. وكان ذلك من وسائل الحفاظ على النفوذ الغربي في الأردن.

بعد انتهاء الاتحاد العربي وقيام الثورة في العراق والإطاحة بالملكية، تألفت حكومة جديدة برئاسة هزاع المجالي في ٥ أيّار (مايو) ١٩٥٩. وأنشىء مجلس الأمن الداخلي الذي أعطي صلاحيات مطلقة «لحفظ النظام».

وبموجب قانون خاص، أُنشئ جهاز أمن الدولة للنظر في أهمّ القضايا السياسيّة، وقد جرى استبدال جوازات السفر للتثبت من ولاء السكّان. ثمّ أدخل تعديل على الدستور في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٠ يمنح الملك حقّ تمديد ولاية مجلس النواب، المحدّدة بأربعة أعوام، سنة أو سنتين «إذا هدّدت الانتخابات أمن البلاد».

الإنماء في تاريخ الأردن الحديث

في العام ١٩٦٠، اغتيل رئيس الوزراء هزاع المجالي وشكّل الوزارة الجديدة بهجت التلهوني، وهو من المقرّبين من الملك حسين. وقد تقلّب في مناصب قضائية مختلفة، وأصبح وزيراً للخارجيّة في السنتين ١٩٥٣ و ١٩٥٤، وكان على علاقة جيّدة بالقاهرة، إبّان حكم الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وكان له دورٌ كبير في تقارب البلدين. تولّى رئاسة الوزراء من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٧٠، في ما عدا سنوات ٦٢، ٦٣ و ٦٦. في عهده لم تطرأ تغييرات كبيرة على سياسة الأردن الخارجيّة أو الداخلية. وفي ٢٨ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٦٢ تولت الحكم في الأردن حكومة برئاسة وصفي التل، سفير الأردن في العراق (١٩٦١ ـ ١٩٦٢). وكان قد خدم في الجيش البريطاني (١٩٤٢ ـ ١٩٤٥)، وانضمّ إلى جيش الإنقاذ (١٩٤٨)، والتحق لبضعة أشهر بالجيش السوري، وقد عُرِف بتشدّده من المعارضة الأردنيّة.

في ٢ تمّوز ١٩٦٢ نشرت الحكومة «الكتاب الأبيض» الذي جاء فيه: أنَّ الأردن يعتبر أن امتناعه عن الاشتراك في الأحلاف مع البلدان العربية يتجاوب مع مصالحه العليا ما عدا الاتفاقيات السياسيّة والعسكريّة لجامعة الدول العربيّة.

وقرّرت الحكومة درس مسألة العفو عن السجناء السياسيين المحكومين في سنتي ١٩٥٧ و ١٩٥٨، بتهمة الانتساب إلى الحزب الشيوعي. كما سمحت للمهاجرين السياسيين بالعودة إلى الوطن، وللأحزاب السياسيّة باستئناف نشاطها. كذلك، عبّرت الحكومة عن نيتها في إجراء تعديلات في قانون الانتخابات لكي تنال المرأة حقّ التصويت. وقد بدا برنامج «الكتاب الأبيض» مليئاً بالتطورات الإيجابيّة في سياسة الأردن الداخلية والخارجيّة. وقد باشرت الحكومة الأردنية تطبيق الإجراءات التي نصّ عليها بيانها الصادر

في ١٩٦٢. ففي ٢٠ آب (أغسطس) ١٩٦٣، ورغبة منها في إقامة علاقات دبلوماسيّة مع الاتحاد السوفياتي، قرّرت حكومتا البلدين تبادل البعثات الدبلوماسيّة على مستوى السفارة، وفي ٣٠ آذار (مارس) ١٩٦٤، وصل إلى موسكو أول سفير للأردن جميل التوتنجي. وفي آذار (مارس) ١٩٦٥، تمّ الاتفاق بين حكومتي الاتحاد السوفياتي والأردن على عقد معاهدة بشأن التعاون الثقافي والتقني وحول فتح مركزٍ ثقافي سوڤياتي في عمان. كما أقام الأردن علاقات دبلوماسيّة وتجاريّة مع كثير من بلدان المعسكر الاشتراكي، بينها يوغوسلاڤيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبلغاريا.

ونشطت الحكومة الأردنيّة والمنظمات الاجتماعيّة الأردنيّة في الميادين الأخرى من الحياة الدوليّة. ففي هيئة الأمم المتحدّة، طالب الأردن مع البلدان العربية الأخرى بانتهاج سياسة عدم الانحياز وبتوطيد التضامن الأفرو ـ آسيوي. واشترك الأردن في جميع مؤتمرات رؤساء الدول العربيّة، كما أصبح عضواً في السوق المشتركة العربيّة. وكان الأردن يعارض كل المساعي التي تقوم بها الدول الغربية لفرض هيمنتها من جديد.

تطوّر السياسة الأردنيّة الداخليّة

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٤، قام أعضاء اللجنة التنفيذيّة لاتحاد نقابات العمّال الأردنيّة برئاسة الأمين العام محمد جوهر بزيارة الملك حسين، وعرضوا عليه عدداً من المطالب المتعلقة بتحسين أوضاعهم. ومن هذه المطالب، تعديل «قانون العمل والعمّال» الصادر عام ١٩٦١. وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥، صادق الملك على التعديلات التي أقرّها البرلمان، والتي كانت تنصّ على تقديم العون المادي للعمال في حال الزواج أو الدعوة إلى الجيش، إذا كانت مدّة العمل ثلاثة أشهر وما فوق. وبموجب هذه التعديلات نالت جميع فئات العمّال الحقّ في إجازة سنوية مدفوعة الأجرة مدّتها ثلاثة أسابيع، ونصّت التعديلات أيضاً على العقوبات التي تطبق بحقّ أرباب العمل الذين يخالفون أحكام القانون. وهذه الإصلاحات كانت خطوة إيجابيّة كبيرة بحقّ العمّال.

وكانت قد رفعت في (أغسطس) آب ١٩٦٣ عن رئيس الحكومة الأردنيّة السابق سليمان النابلسي الإقامة الجبرية التي فرضت عليه منذ انقلاب نيسان (أبريل) ١٩٥٧. وأصدر الملك حسين مرسوماً في آذار (مارس) ١٩٦٥ بتصفية إضبارات البوليس السرّي عن المواطنين الأردنيين الموجودة في الأرشيف. وكان هذا الإجراء بغاية الأهميّة، إذ إنّ عدد الأفراد الذين أتلفت إضباراتهم بلغ ١٨ ألفاً. كما أقرّ البرلمان في نيسان (أبريل) ١٩٦٥، قانوناً بالعفو العام عن السجناء واللاجئين السياسيين. وبموجب هذا القانون أخلي سبيل ١٦٠٠ شخص من السجون، وأعيدت الحقوق المدنيّة إلى ٢٤٠ مهاجراً سياسياً، من بينهم الأمين العام للجنة المركزيّة للحزب الشيوعي الأردني فؤاد نصّار. وقد صدرت التعليمات للهيئات الدبلوماسيّة في الخارج، من سفارات وقنصليات أردنيّة، بأن تعطي جميع المهاجرين السياسيين الراغبين في العودة جوازات سفر. وهذه الإجراءات نشرت أجواء ارتياح في الأوساط المعارضة.

ومن الناحية الاقتصاديّة، اتخذت الحكومة إجراءات عديدة لتعجيل تطوّر البلد الاقتصادي. ولهذا الهدف، وضعت برنامجاً سباعياً لتطوير الأردن إقتصادياً (من سنة ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٧٠)، وقد تضمن المهام التالية: الزراعة، الصناعة والخدمات. ويقوم الاقتصاد الأردني على ثلاثة أركان، متفاوتة: الزراعة ٩٪ من المنتوج الوطني العام، الفوسفات البوتاسيّة ٢٪، الخدمات والسياحة ٦٤٪، والصناعة ٢٥٪:

● يتراوح إنتاج الفوسفات بين ٦ و ٧ ملايين طن، ويدور إنتاج البوتاس حول مليون طن، وقامت تنقيبات نفطيّة في مناطق عديدة في الأردن.

● إنّ **الزارعة** تواصل الاضطلاع بدور مهم في الاقتصاد (يعيش منها ٣٩٪ من السكّان). ويملك شرق الأردن ٣ مناطق زراعيّة متفاوتة الأهميّة: وادي الغور (١١٠ كلم بعرض ٢ إلى ٢٠ كلم) على امتداد نهر الأردن (٤٠,٠٠٠ هكتار)، السفوح والتلال الواقعة جنوب اليرموك (٦٥٠,٠٠٠ هتكار)، البادية (١٧٠٠ هكتار) في قسمها الشمالي. إنَّ معظم الغور مروي،

ممّا يسمح بموسمين سنوياً. وقد أقيمت مشاريع عدّة لحلّ مشكلة الريّ.

أمّا على صعيد الصناعة، فلقد جرى تقدّم ملموس؛ فبعدما انطلق الأردنيون من موارد هزيلة، تمكنوا من تحقيق نتائج مرموقة على هذا الصعيد.

إلاّ أن الخدمات هي التي توفّر القسم الأكبر من المنتوج الوطني وتعيل ٧٣٪ من السكّان العاملين. وفي هذا القطاع، نذكر السياحة التي تشكّل عاملاً مهما لإقتصاد البلد ونشاطه، والأردن بلدٌ كثرت فيه الآثار العائدة إلى عصور قديمة، أيّام الرومان والبيزنطيين والأنباط. وموقعه بين الشرق والغرب ومناخه يجلبان السواح من جميع أقطار العالم. وهنالك أيضاً المال الذي يحوّله الأردنيون العاملون في الخارج والمساعدات الدوليّة ومن ضمنها من البلدان العربيّة.

وكان من المعتقد أن أداء هذه المهام سيتيح للأردن زيادة التصدير وبالتالي زيادة الإيرادات من العملة الأجنبيّة، الأمر الذي كان من شأنه أن يتيح في المستقبل تخفيف التبعية حيال المعونة الأجنبيّة. ونحو العام ١٩٧٠ كان ينبغي، وفقاً للخطّة التمهيديّة، أن لا تزيد المعونة الأجنبيّة على ١٥ مليون دينار أردني في السنة. وقد تقرّر صرف ٢٠٩ ملايين دينار أردني على تنفيذ البرنامج السباعي.

الأردن بعد عدوان ١٩٦٧

في ربيع سنة ١٩٦٧، تزايدت تهديدات إسرائيل للبلدان العربيّة، فتأزم الوضع في الشرق الأوسط، واضطرّت قيادات هذه الدول إلى التفكير جدّياً بالقيام بأعمال ما لأجل ضمان أمنها.

ولهذا الهدف، ذهب الملك حسين إلى القاهرة في أواخر شهر أيّار (مايو)، حيث أجرى مفاوضات مع الرئيس جمال عبد الناصر، تمّ التوقيع بنتيجتها على اتفاقيّة بشأن الدفاع المشترك بين الأردن ومصر مدّتها خمس سنوات. وقد أشير في الاتفاقيّة إلى أنّ كل هجوم مسلّح على أحد البلدين يعتبر هجوماً على البلدين معاً. وأنشأ الأردن ومصر مجلساً مشتركاً للدفاع وقيادة موحّدة. وبناء على طلب الملك حسين، دخلت قوّات من العراق والعربيّة السعودية إلى الأردن.

وفي ٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧، وقع الاعتداء الإسرائيلي على الأردن ومصر وسوريا في آنٍ واحد. وتكبّدت هذه الدول العربية خسائر فادحة في الأرواح والأعتدة. وبعد التدابير الحازمة والجهود المتواصلة التي قامت بها دول عدّة في العالم، ولا سيما الاتحاد السوڤياتي، أوقف المعتدي. ولكن نتيجة هذه الاعتداءات الإسرائيلية كانت احتلال قسم كبير من الأراضي الأردنية، وهو القسم الواقع غربي نهر الأردن. وكانت خسارة على جميع الأصعدة، من الناحيتين السياسية والاقتصادية. فمن المعلوم أنّ للضفة الغربية لنهر الأردن أهميتها من الإنتاج الوطني بنسبة ٣٨٪. ففي هذه المنطقة ٨٠٪ من مجمل الأراضي الزراعيّة المشغولة ببساتين الأشجار المثمرة، و٤٥٪ من مساحة بساتين الخضار، و٢٥٪ من مساحة الأراضي المزروعة بالحبوب، و٣٥٪ من المساحة المخصّصة لتطوير تربية المواشي وتربية الطيور. وكانت الضفّة الغربية تنتج ٦٥٪ من الخضار، و٦٠٪ من الفواكة، و٨٠٪ من الزيتون، و٣٠٪ من الحبوب. وفي الضفّة الغربيّة يقوم

أكثر من ٣٧٠٠ مؤسسة صناعية، أي قرابة نصف عدد المؤسسات الإجمالي. وكان يعمل حوالي ١٤ ألف شخص في هذه المؤسسات. كذلك، بقي في الأراضي المحتلّة أكثر من ٦ آلاف مؤسّسة تجاريّة كان يشتغل فيها ٤٤٪ من الأيدي العاملة في هذا القطاع من الاقتصاد الأردني. ونتيجة للاحتلال، انخفضت إيرادات الأردن من العملة الصعبة الحرّة في عام ١٩٦٧ وحده مثلاً، مقدار ٢٦ مليون دينار أردني.

شكّل احتلال الضفّة الغربية كارثة اقتصادية على الأردن وشعبه. فلقد تقلّصت الأسواق الداخليّة واستبعد عدد كبير من السكّان القادرين على العمل من الحياة الاقتصاديّة النشيطة. وبالتالي، انخفض إنتاج العديد من الأصناف، وتقلّصت عمليات الاستيراد والتصدير، وتجمّد بناء العديد من المشروعات الصناعيّة. فاضطرّ الكثير من المواطنين إلى مغادرة بيوتهم في الأرض المحتلّة والسكن في مناطق البلد الشرقية.

إختلّت الأوضاع السياسيّة ونشأت مصاعب اقتصاديّة عديدة بعد العدوان الإسرائيلي على الأردن واحتلال الضفّة الغربيّة. لذلك، وضعت الدولة الأردنيّة الخطوط العريضة لتصفية عواقب هذا العدوان. وقام الملك حسين على رأس وفدٍ حكومي بزيارة إلى الاتحاد السوفياتي في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٦٧. وقد عبّرت الحكومة الأردنيّة في البلاغ السوفياتي - الأردني المشترك عن تقديرها جهود الحكومة السوفياتية، سواء في هيئة الأمم المتحدة أم خارجها، لأجل وقف العمليات الحربيّة في الشرق الأوسط، وفي النضال من أجل تصفية عواقب العدوان بأسرع وقت ممكن. ومن أسباب الارتياح كان وجود تقارب في وجهات النظر بين الاتحاد السوفياتي والأردن في عدد من أهمّ القضايا الدوليّة. ولقد اتفقت الدولتان على تطوير العلاقات الاقتصاديّة ووقعتا اتفاقيّة بشأن التعاون الثقافي والعلمي.

وبدأ تطبيق الاتفاق حول تطوير العلاقات الاقتصاديّة والتجاريّة في بداية سنة ١٩٦٨. وصل إلى الأردن في شباط (فبراير) ١٩٦٨، أوّل وفد اقتصادي سوفياتي لدراسة إمكانيّة التعاون السوفياتي - الأردني. وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩، زار الاتحاد السوفياتي وفد اقتصادي أردني برئاسة وزير الاقتصاد

الوطني نظام الشرابية. وتمّ التوقيع في موسكو في ٢١ كانون الثاني (يناير) على أوّل اتفاقيّة سوفياتيّة ـ أردنيّة بشأن التعاون الاقتصادي والتقني. وقد نصّت هذه الاتفاقيّة على تطوير واسع للعلاقات الاقتصاديّة على أساس النفع المتبادل. كذلك تمّ التوقيع على بروتوكول بشأن تقديم المساعدة التقنيّة للأردن من جانب الاتحاد السوڤياتي في ميدان الأعمال الجيولوجيّة والأعمال الجيوفيزيائيّة للتنقيب عن البترول والغاز والدفائن النافعة الجامدة، وفي ميدان بناء المدارس المهنيّة التقنيّة. وفي الوقت نفسه وقّع الجانبان على اتفاقيّة تجاريّة.

ولقد قام الملك حسين أيضاً بزيارات إلى الولايات المتحدة الأميركيّة وجمهوريّة ألمانيا الاتحاديّة وفرنسا وبريطانيا بين عامي ١٩٦٧ و١٩٦٩، وذلك للبحث في القضايا المتعلقة بتصفية عواقب العدوان الإسرائيلي.

إستمرّت السلطات الإسرائيليّة في سياسة القمع والإرهاب في الأراضي المحتلّة. وقام الجيش الإسرائيلي بهجمات مسلّحة متكرّرة على الأراضي الأردنيّة غير المحتلّة، مستخدماً فيها على نطاق واسع الأعتدة الحربيّة وقنابل النابالم. ففي السنة الأولى من الاحتلال، قتل المحتلّون الإسرائيليون ٥ آلاف شخص من سكّان الأردن الآمنين، وزجّوا في السجون بسبعة آلاف عربي، وأنزلوا بهم من العذابات أصنافاً، وطردوا أكثر من ١٠٠ ألف من بيوتهم، وأحرقوا ودمّروا ومسحوا من على وجه الأرض عشرات القرى الأردنيّة.

ثار كل الشعب الأردني ضدّ هذا الاحتلال الغاشم، وتنظّم الكفاح ضدّ المحتلين، وفي طليعة جميع القوى الوطنيّة كان الحزب الشيوعي الأردني. ولقد عاد فؤاد نصّار، الأمين العام للحزب الشيوعي الأردني، إلى بلده بعد هجرة دامت عشر سنوات. وامتنع الحزب عن التعاون مع سلطات الاحتلال، داعياً إلى إنشاء جبهة وطنيّة واسعة تضمّ جميع القوى الوطنيّة والقوميّة في البلد. كذلك، أُنشئت لجنة تحرير القدس برئاسة رئيس الوزراء السابق وعضو مجلس الأعيان، سليمان النابلسي.

وفي هذه الأثناء، ولمقاومة الاحتلال، تنظم العمل النضالي الجماهيري؛ ففضلاً عن الجبهة الوطنيّة ولجنة تحرير القدس، والنقابات، أنشئت منظمات للنساء الأردنيات، عملت في نطاق الجبهة الوطنيّة، وأقامت علاقات مع اتحاد

النساء الديمقراطي العالمي والمنظمات النسائيّة في البلدان الاشتراكيّة.

وفي هذه الأجواء، أجازت السلطات الأردنية بنشاط بعض النقابات التي كانت قد حُلّت قبل العدوان الإسرائيلي وبنشاط المنظمات النسائيّة. وقد أنشئت لجان وطنيّة في الأراضي المحتلّة بهدف تنظيم الإضرابات ومقاطعة المحتلّين والقيام بحملات من أجل تحسين ظروف الحياة.

وفي كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٦٨، صدر قانون بشأن الخدمة العسكريّة الإلزامية العامة، وكان القصد منه تغيير طابع الجيش الذي كان حتى ذلك الحين جيشاً مرتزقاً ويتألّف أساساً من البدو.

فرض الاحتلال الإسرائيلي نظامه في المناطق المحتلّة التي عانت الكثير من القمع والإرهاب تحت الحكم العسكري الإسرائيلي؛ فلقد أخذت الحكومة الإسرائيلية تطبّق سياسة القضاء على السكّان العرب وسياسة التمييز العنصري على نطاق واسع، وتمسح قرى عربيّة بكاملها بالجرّارات والكاشطات من على وجه الأرض وتطلق النار على مظاهرات التلامذة.

وطالبت القوى الوطنيّة بالتسوية السياسيّة لأزمة الشرق الأوسط على أساس قرار مجلس الأمن الصادر في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٦٧. وهكذا سار النضال على خطين: الكفاح المسلّح، والخط السياسي.

أحداث أيلول ١٩٧٠

سنة ١٩٤٩، لم يُثر ضمّ الضفة الغربيّة للأردن أيّة ردّة فعل من الجانب الفلسطيني، لأنَّ الملك حسين العربي كان أفضل بكثير من الإسرائيليين. ولكنّ ظهور المقاومة المسلّحة كان مؤشراً للصراعات القادمة. فمنظمة التحرير الفلسطينيّة التي كانت في بادىء الأمر منظمة بين منظمات أخرى، صارت سنة ١٩٦٩ القاعدة الجامعة لبقيّة المنظمات الفلسطينيّة، وتراءت على الفور كأنها نقيض الملك حسين الذي راح الأمينان العامان للمنظمة، أحمد الشقيري ثمّ ياسر عرفات، يخاطبانه مخاطبة النّد للنّد، وحتى أنّهما كانا يعتقدان أنَّ في إمكانهما أن يمليا عليه إرادتهما. في الواقع، كانت منظمة التحرير الفلسطينيّة تطمح منذ تأسيسها سنة ١٩٦٣ إلى إقامة «كيان» له حكومة

في المنفى، وسيادة على الضفّة الغربيّة وغزّة. وتوصل الحسين إلى جعلها تتخلى، في مرحلة أولى، عن هذا الطموح. وبقدر ما كانت تزداد أهميّة المقاومة، كانت تتصاعد الصدامات، وممّا زاد الوضع تفاقماً حرب ١٩٦٧، واحتلال الضفّة الغربيّة، والموجة الجديدة من اللاجئين، فضلاً عن قبول الأردن، مثل مصر، بقرار الأمم المتحدة ٢٤٢ الذي كانت ترفضه سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينيّة. ومنذ ذلك الحين، وحتى انفجار ١٩٧٠، توالت الأزمات. وراحت منظمة التحرير الفلسطينيّة تطالب بحقّها في تدريب الفلسطينيين وتسليحهم وتحصين القرى الحدوديّة. ثمّ تتالت الصدامات بين القوّات الملكية المسلّحة والفلسطينيين. عندئذٍ طالب هؤلاء بإقالة المسؤولين. فراح الملك حسين يسايرهم ولكن أي اتفاق أو تسوية لم يصمدا، ووصلت الأمور إلى أيلول الأسود (سبتمبر) ١٩٧٠.

شعر الملك حسين أن بروز المقاومة الفلسطينيّة بات يهدّد مصير الدولة والعرش، لذلك، بادر عام ١٩٧٠ إلى تشكيل حكومة عسكرية بهدف لجم فلتان المقاومة الفلسطينيّة، وحتى إخراجها من الأردن.

بعد ضرب المقاومة في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠، وإخراجها من الأردن، حاول الملك حسين أن يعيد سلطته على الضفة الغربيّة بعد الانسحاب الإسرائيلي إذا حصل ذلك. وبالمقابل، راحت منظمة التحرير الفلسطينيّة تطرح من جهتها حقّ تقرير المصير وإقامة الدولة المستقلّة عن الأردن فتبنّت الدول العربيّة هذا المطلب في قمّة الرباط سنة ١٩٧٤ وكذلك الجمعيّة العامة للأمم المتحدة. ولقد شارك الأردن بشكلٍ رمزي في حرب تشرين الأوّل ١٩٧٣، وذلك إلى جانب سوريا. وعندما انتهت الحرب، تحفظ الملك حسين على مبادرة الرئيس المصري أنور السادات وزيارته إلى القدس، وعارض الملك اتفاقيات كامب ـ دافيد، وشارك في قمّة بغداد ١٩٧٨. وكان ياسر عرفات قد قام بزيارة للأردن، وكانت الأولى بعد خروج المقاومة الفلسطينيّة من الأردن بالقوّة سنة ١٩٧٠. وهكذا، بدأ الحوار الرسمي بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينيّة، وصادفت بعد القمّة العربيّة التي عُقدت في القاهرة في إطار ١٩٧٧ وحضرها كل من الملك حسين والسيّد ياسر عرفات.

مفاوضات حتى السلام مع إسرائيل

بعد قمّة الرباط سنة ١٩٧٤، عُقدت في عمان القمّة الحادية عشر للملوك والرؤساء العرب، غابت سوريا عن هذه القمّة وكذلك الجزائر وليبيا واليمن الجنوبيّة (جبهة الصمود والتصدّي المطالبة بالحلول العسكرية الجذريّة). ولقد توثقت العلاقات بين الأردن والعراق على مرّ السنين. فقد كان العراق يستوعب القسم الأكبر من الصادرات الزراعيّة للأردن الذي كان بدوره يشتري منه معظم احتياجاته النفطيّة. وفي خلال الحرب مع إيران، كان مرفأ العقبة قد لعب دوراً حيوياً في تموين العراق الذي لم تعد مرافئه آمنة. لذلك أيّد الأردن العراق في حربه ضدّ إيران. وفي علاقاته الخارجيّة العربيّة بدأ يدعو في ربيع ١٩٨٢ إلى المصالحة العربيّة مع جمهورية مصر العربيّة، وذلك بعد استلام الرئيس حسني مبارك الحكم في مصر. وفي سنة ١٩٨٢، غزت إسرائيل لبنان، فتنادت الدول العربيّة إلى مؤتمر قمّة في «فاس» في المغرب وسميّت مقررات هذه القمّة «بمشروع السلام العربي» وفيه الكثير من النقاط المشتركة مع مبادرة ريغان للسلام في الشرق الأوسط. وبعدها ترأس الملك حسين لجنة عربية سباعيّة، ضمّت إلى جانب الأردن، سوريا، منظمة التحرير الفلسطينيّة، السعوديّة، الجزائر، تونس، المغرب، وأمين عام جامعة الدول العربيّة. وذهبت هذه اللجنة إلى عواصم الدول الكبرى وغيرها لشرح مشروع السلام العربي ومطالبة بتأييده.

بعد الغزو الإسرائيلي للبنان وبدء الحديث عن مفاوضات السلام، أشار الملك حسين إلى أنّه لن يدخل المفاوضات إلاّ بموافقة من منظمة التحرير الفلسطينيّة. ولكن تطورات آذار ـ نيسان (مارس ـ أبريل) ١٩٨٣ (لقاء عرفات مع الحسين في الأردن ورفض الزعماء الفلسطينيين تفويض الأردن مع إلحاح للإدارة الأميركيّة...) أصدر مجلس الوزراء الأردني برئاسة الملك حسين

بياناً في ١٠ نيسان (أبريل) ١٩٨٣ جاء فيه أنّ الأردن قطع خطوات التنسيق مع منظمة التحرير الفلسطينيّة تاركاً للفلسطينيين أنفسهم تحقيق أهدافهم.

بعد «مشروع السلام العربي» (١٩٨٢) بدأت المفاوضات الأردنيّة ـ الفلسطينيّة، ولكنها سرعان ما باءت بالفشل؛ فحمّل الرئيس «ريغان» «العناصر المتطرفة» في منظمة التحرير الفلسطينية مسؤولية هذا الفشل. وأعلن وزير الخارجيّة الإسرائيلي، إسحق شامير، عن فشل مبادرة ريغان وبالتالي فشل سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وتأجل البحث في عقد قمّة عربيّة لدرس كل هذه الأمور، فاستغلّ السوڤيات هذا الوضع وأعطوا زخماً جديداً لدبلوماسيتهم في الشرق الأوسط.

ولقد تمحورت مبادرة ريغان للسلام في الشرق الأوسط حول النقاط الآتية: ضمان أمن إسرائيل، دعوة الشعب الفلسطيني والدول العربيّة للاعتراف بها، حكم ذاتي كامل (مع فترة انتقاليّة) للفلسطينيين في الضفّة وغزة، دعوة الأردن للتفاوض مع إسرائيل في ما يخصّ الحدود بينهما، وضع القدس... وهذه المبادرة جرت سنة ١٩٨٢ بعد جلاء القوات الفلسطينيّة من بيروت في أيلول (سبتمبر).

ولقد تضمن الجزء الخاص بالقضيّة الفلسطينيّة من مشروع السلام العربي (فاس، أيلول ١٩٨٢) هذه النقاط: ـ انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربيّة التي احتلتها. ـ ضمان حريّة العبادة وممارسة الشعائر الدينيّة لجميع الأديان في الأماكن المقدّسة. ـ إزالة المستعمرات الإسرائيليّة في الأراضي العربيّة بعد ١٩٦٧ ـ حقّ الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره. ـ منظمة التحرير الفلسطينيّة هي الممثّل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. ـ إخضاع الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة لفترة انتقال تحت إشراف الأمم المتحدة لمدّة لا تزيد عن بضعة أشهر. ـ قيام الدولة الفلسطينيّة المستقلّة بعاصمتها القدس. ـ يضع مجلس الأمن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينيّة. ويتولى مجلس الأمن الدولي ضمان تنفيذ تلك المبادىء.

بعد فشل مبادرة الرئيس ريغان ومن ثمّ فشل المفاوضات الأردنيّة ـ

الفلسطينيّة، فقد الملك حسين الأمل في السياسة الأميركيّة وركّز اهتمامه على فكرة المؤتمر الدولي، وبدأ المفاوضات لشراء الأسلحة من الاتحاد السوڤياتي. وكانت قد تحسّنت علاقاته مع منظمة التحرير الفلسطينيّة ومع الدولة السورية أيضاً. وبعد ما وقّع اتفاقيّة للمرّة الثانية مع منظمة التحرير (١٩٨٥) تدهورت العلاقات بينهما (١٩٨٦) حيث أقفلت الحكومة الأردنيّة ٢٦ مكتباً لمنظمة التحرير الفلسطينيّة. ثمّ قرّر الملك حسين قطع كل الروابط الإداريّة والشرعية مع الضفّة الغربيّة. وأخيراً، في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٩، دشّن الملك حسين والرئيس ياسر عرفات سفارة فلسطين في الأردن.

لعب الملك حسين دوراً ناشطاً لإنجاح مفاوضات السلام العربيّة ـ الإسرائيليّة بمباركة أميركيّة، والتي بدأت في مدريد سنة ١٩٩١، وأعلن التزامه، عند مقابلته الرئيس كلينتون، «العمل لتحقيق تقدّم ملموس في عمليّة السلام الخاصة بالشرق الأوسط».

وتعرّض الأردن لضغوطات سياسيّة واقتصاديّة كثيرة بسبب تأييده للعراق في حرب الخليج. ولم يطرأ أيّ تحسّن في العلاقات بين الأردن والدول الخليجيّة، فخشي الملك حسين من أزمة اقتصاديّة خانقة، لذلك، تحرّك نحو الغرب والعرب في آنٍ واحد. وما لبث أيضاً أن أجرى تغييراً ملموساً في علاقاته مع العراق.

وعلى صعيد العلاقات الأردنيّة ـ الفلسطينيّة، تحدّثت وسائل الإعلام عن بدء السلطات الأمنيّة الأردنيّة تحضيرات لتدريب مجموعات من الفلسطينيين على الحفاظ على الأمن في الأراضي العربيّة المحتلّة، مستقبلاً. ولقد تركز اهتمام الرئيس ياسر عرفات على التحرّك الدبلوماسي الأردني، كما أعرب الجانب الأردني عن اهتمامه بالتنسيق مع الفلسطينيين على جميع الأصعدة، خاصة بعدما حصلت تطورات على الاتفاق الإسرائيلي ـ الأردني. ولقد أُعيد البحث في فكرة كونفيديراليّة أردنيّة ـ فلسطينيّة. ولدرس هذا الموضوع، شكّلت ست لجان فرعيّة للبحث في الموضوعات المشتركة وهي لجان القدس، والأمن، والحدود، واللاجئين النازحين، والقضايا الاقتصاديّة،

والمياه، ولجان القوانين، والتشريعات. وبعد زيارة منسّق شؤون المفاوضات في الخارجيّة الأميركيّة، دنيس روس، إلى الشرق الأوسط، بدأ الجانب الإسرائيلي يطرح أيضاً مسألة الكونفدراليّة بين الأردن والفلسطينيين. وكان الرأي الفلسطيني في ذلك «أنه مجرّد تهرّب من تنفيذ القرار ٢٤٢ الذي يقضي بانسحاب القوات الإسرائيليّة من الأراضي العربيّة المحتلّة والعمل لإسقاط هذا القرار كأساس للتسوية في الشرق الأوسط».

وأصبح الموضوع الأهمّ في الأردن هو موضوع مفاوضات السلام العربيّة ـ الإسرائيليّة في وجهتيها المتعدّدة الأطراف والثنائيّة. ومن جهّة المفاوضات الأردنيّة ـ الإسرائيلية، جرى الحديث عن قرب التوصل إلى اتفاق سلام مع إسرائيل. وداخلياً، جرت انتخابات ديمقراطيّة ودستوريّة في تشرين الثاني من عام ١٩٩٣، وكان الملك حسين قد قبل باستقالة حكومة الشريف زيد بن شاكر، وكلّف الدكتور عبد السلام المجالي تأليف الحكومة الجديدة التي أشرفت على الانتخابات النيابيّة. ولقد تميز البرلمان الجديد بالتعدّدية الحزبيّة والسياسيّة. وفي تلك المرحلة، أبرمت معاهدة سلام بين الأردن وإسرائيل.

المراجع

١ ـ حربا بريطانيا والعراق ١٩٤١ ـ ١٩٩١، رغيد الصلح.

٢ ـ تاريخ الأقطار العربية المعاصر، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي ـ معهد الاستشراق، دار التقدم، موسكو.

٣ ـ ٢١ دولة لأمة عربية واحدة، جان فرانسوا نودينو، ترجمة د. خليل أحمد خليل، بيسان للنشر والتوزيع ١٩٩٣.

المحتويات

القسم الأول: العراق

القسم الثاني: الأردن